

الفكر العربي



تأليف

الدكتور الأدب عيروط اليسوعي

نقد الى العربية

الدكتور

محمد غلاب

استاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية

A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY

916.2

Ag8mA

c.2

الفيلسوف عبد الرحمن بن عبد الوهاب

تأليف

الدكتور الأديب عيسى بن
عبد الوهاب

نقد الى العربية

الدكتور

محمد عبد الوهاب

خريج جامعة ليون

وأستاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية

مطبعة كوثر

٢٩ شارع قصر اللؤلؤة بالفجالة ، القاهرة

تقديم

ليس هناك كتاب من بين المؤلفات التي عينا حتى الآن بترجمتها من منتجات صفوة المؤلفين الأوروبيين بدا لنا عظيم الفائدة ، جليل النفع ، وجلب الى نفسنا كثيراً من اللذة العقلية على النحو الذي أحسنا به عند ترجمتنا كتاب « الفلاحون » تأليف الأب المحترم الدكتور هنري عيروط ، هذا السفر القيم الذي خصصه المؤلف لتصوير تلك الناحية التي كانت لا تزال مجهولة من مصرنا العزيزة وهي حياة الفلاح ، ذلك المخلوق العس الذي نحن مدينون له ، بعد النيل ، بهذه الحقول الخضراء الخصبة الباسمة التي هي منذ أقدم العصور موضوع افتتان الشعراء ، وإعجاب الكتاب ، وإجلال المؤرخين ، وحسد الأتانيين ، وطمع النهمين .

هذا الكتاب الذي تقدمه اليوم هو في طبعته الثانية تحت عنوان جديد ، وإذا كان تقديم كتاب سبق نشره بنفس اللغة يخشى أن يكون فيه شيء من العبث أو من الفضول - كما لاحظ ذلك بحق سعادة فؤاد اباضه باشا في تقديمه - إذ يمكن أن يعيد المقدم الجديد شيئاً من التعليقات المثنية أو التقرّيات المطرية التي أفاضتها صحافة أرقى الدول المتحضرة في الشرق والغرب على هذا السفر الجليل ^(١) في استحقاق نبيل كريم ، فإن هذه المهمة بالنسبة إلينا - ونحن بازاء نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية - تصير

(١) ليس في هذا شيء من الاسراف ، فقد قرظت هذا الكتاب صحف فرانسأ وألمانيا وانجلترا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا وأمريكا والبرتغال ومصر ولبنان .

أكثر سهولة ويسراً ما دمنّا نحن الذين سنؤدى رسالة الاطلاع عليه إلى مواطنينا وإلى جميع الناطقين بالضاد الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية. ولا سيما الفرنسية، وما دام أنه من الخير لهؤلاء جميعاً أن يلموا ولو إلماماً عاجلاً بصدى ذلك الاستقبال الحافل والاعجاب الشامل اللذين لقيهما فى البيئات الأدبية هذا السفر الذى لم يرم إلى تثقيف قرائه بما احتواه من معرفة محددة، ووقائع معينة، أو إلى فتنهم بما صيغت فيه معانيه من مبان رائعة وعبارات أخاذة فحسب، وإنما رمى إلى إنشاء حركة واسعة لضمان العدالة الاجتماعية، وتحقيق الوطنية الصحيحة، وبالتالى هو مساهمة فعلية فى بناء نهضتنا الحديثة التى تتوقف عليها عظمة بلادنا الحقيقية التى هى مطمع جميع أنظار المجددين المخلصين من المعاصرين، وإذاً، فما يرفع شأن هذا الكتاب، ظهوره على مسرح الحياة المصرية فى أشد الأوقات حاجة إليه، ومعالجته مشكلة إذا وضعها المجتمع الحديث فى الصف الأول من صفوف المشكلات العمرانية، فإنها فى مصر تتشكل فوق ذلك بصورة الضرورة الملحة التى يقى حلها البلاد شراً مستطيراً عاجلاً، تلك هى مشكلة القرويين وكل ما يتفرع عنها من معضلات أساسية تختلف خطورتها باختلاف منزلتها من المشكلة العظمى.

لم تثر مسألة الفلاح فى مصر قبل الآن رغم خطورتها وتعقدها وضرورة سرعة التفكير فيها إلا إثارة سطحية تتم إما عن جهل مثيرها بجوانبها المتباعدة، وإما عن عدم اكتراثهم بنتائجها، وهى على كل حال تدل على غفلة المصريين عن ناحية من أهم نواحي حياتهم الاجتماعية، ولكن لعل الجهل بحالة الفلاح الحقيقية هو منشأ هذا الإهمال البغيض، إذ منذ الذى يعرف الفلاح أو يأبه لتعاسته من الأجانب بل من المصريين؟ وإنما قدمنا الأجانب هنا على المصريين، لأنهم هم الذين مسوا على الأخص هذه المشكلة وإن كان مسهم إياها يشبه مس الزهرة، لأنهم لا يتحدثون عن الفلاح الا عرضاً فى أحاديثهم عن المسائل الجيوغرافية أو الاقتصادية أو الزراعية،

ولا يسكادون يذكرونه إلا تبعاً للرى أو للبذر أو للتسميد أو للحصاد ، أما ذاته ككائن حى ذى كرامة وعزة فلا نوشك أن نعثر عليها فى مؤلفاتهم . نعم إن الاجانب يعرفون جيداً مصر الفرعونية بآثارها ومعابدها ، ومصر الاسلامية بفنها ومساجدها ، ويعرفون كذلك مصر السائحين بمدنها العظمى ، وفنادقها الكبرى ، ومقاصفها الفاخرة ، ومراقصها الساهرة ، وملاهيها الزاخرة ، ومتنزهاتها الفاتنة ، ونيها الصافي ، ومناخها المعتدل ، ونسيمها العليل ، وقرها الزاهى ، ولياليها العذبة ، ولكنهم يجهلون الفلاح جهلاً يوشك أن يكون تاماً ، بل هم لا يلمحونه - كما يقول المؤلف - إلا من خلال نوافذ القطار أو السيارة مختلطاً بالأرض التى هو مقوس عليها ولا يسكاد يظهر من الغراس الذى بين يديه ، وكل ما يظفر به منهم هو إثارة حب الاطلاع فى نفوسهم .

أما المصريون فإن صفوتهم المثقفة ، والطبقة المتوسطة فى المدن منهم ، وكبار ملاكهم يجهلون الفلاح جهلاً مطبقاً يزيد من صفاقته مع الأسف الشديد احتقارهم لهذه الطبقة الريفية الفقيرة إلى حد جهل أو تجاهل كل شئ عنها .

يا للخجل ! أليس ذلك فقدراً تاماً للاحساس بالمسئولية بل بالكرامة من جانب هذه الطبقات الثلاث التى تعزو إلى نفسها شرف الادارة والقيادة ؟ ولم لا ؟ ألا يؤلف الفلاح ثلاثة أرباع سكان مصر ؟ أو يحسب أولئك الأقولن أنه يكفى لتكوين شعب عظيم أن توجد صفوة ممتازة تتولى إدارة أ كثرية عظمى ، هى كما يرسمها لنا الأب عيروط فى هذا الجهل المرهق وتلك التعاسة المادية والأدبية الشاملة ؟ أو ليست هذه الصفوة وتلك الجماهير أبناء وطن واحد ؟ ثم ألا تلحق وصمات الوالد جباه جميع أبنائه على السواء ؟ أولا تلتصق هنات الاخوة بأسماء إخوتهم ؟

فى هذه الساعة التى نتباهى فيها بيقظة عاطفتنا الوطنية ، وبزوغ فجر نهضتنا الأدبية والفنية والعلمية ، فى هذه الساعة التى يتطلع فيها العالم العربى كله إلى مصر كزعيمته

الناطقة بلسانه ، والمعبرة عما يحيش بجنانه من آمال وأحلام ، والتي ينظر فيها العالم المتمدين نحوها مترقباً نتائج نشاطها في جميع أفرع الحياة الراقية ، ومفتوناً بجلالة مليكها الشاب الحكيم ، في هذه الساعة الخطيرة المحملة بكل تلك الأعباء الجسام ، ألا نحس تلك الصفوة بوطأة المسؤولية الثقيلة التي تنهال عليها أمام ذلك المنظر الأليم الذي يمثل التعاستين : المادية والأدبية لأكثرية الشعب المصري ؟

نحن نعلم أنه لم يعد من الممكن دوام هذه الحالة الأسيئة ، بل إن أصوات الاحتجاج عليها قد بدأت ترتفع من كل مكان لا سيما في هذه الآونة الحاضرة التي أخذت فيها فكرة التضامن الاجتماعي بين أعضاء جسم الوطن الواحد تسلك سبيلها إلى عالم النور .

ليس من الغريب أن تنتعش هذه العاطفة النبيلة في قلب المؤلف المحترم وفي قلوب من هم على شاكلته من المثقفين الممتازين ، لأنهم لم يعدوا في هذا أن انتهجوا نهج ملوكهم العظماء ، فبالأمس قل لنا المؤلف عن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول تلك العبارة السامية التي تدل دلالة ناصعة على أنه لم يكن يشاطر كبار رجال حاشيته رأيهم في إهمال الفلاح والاستهانة به .

واليوم لا يجمل أحد ذلك المجهود العظيم الذي يقوم به حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول لا في العمل على تخفيف ويلات هذه الطبقة التهمسة فحسب ، لأن هذا أمر طبيعي ، ولكن في محاولة الوقوف على حقيقة أحوالها الداخلية بنفسه ، لا عن طريق الوسطاء الذين كثيراً ما يجربون الحقائق عن أرباب السلطان لغايات في نفوسهم ، فيظل الشركامناً حيث هو ينخر في عظام الأمة حتى يأتي عليها .

أما إذا عرفت حقيقته ، واكتشف مقره ، وظهر مآتاه ، فقد أمكن استئصال شأفته ، واقتلاع جرثومته وهذا هو الذي سيكون بالفعل في عهد هذا الملك العظيم المترسم خطى والده الجليل والذي جمع إلى نشاط الشباب الفائق وحماسه الكامل نضوج الكهول

المجربين ، وحكمة الشيوخ المحنكين . أليس في عهد الميمون قد أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية التي يمكن أن ينتظر الشعب منها في هذه البرهة الراهنة تحسينات جمة لأحوال الطبقات الدنيا ولا سيما طبقة الفلاحين الذين هم عماد سعادة البلاد ورخائها ؟

قد يدهش القارىء عند ما يرى أننا نقدر من جانب صاحب العرش مجهوده في تعرف دواخل الأمور حق قدره وتقديمه على كل شيء ، ولكنه لا يلبث أن يرى هذا أمراً طبيعياً إذا علم أن المعرفة الصحيحة هي أساس كل خير ونجاح ، وأن الجهل هو منبع كل بلية ، إذ هو مصدر شل حركة الذين لا يعملون البتة ، كما أنه مآتي إخفاق الذين يقومون ببعض المجهودات .

ومن دلائل هذه العناية الملكية الكريمة بمشكلة الفلاح أن جلالته قد تفضل فتقبل هذا الكتاب في طبعته الفرنسية بعطفه السامي وأمر رئيس ديوانه ببلاغ هذا العطف إلى المؤلف . لهذه الأسباب عينها كان من الضروري أن ننقل إلى العربية هذا السفر الذي هو - إلى جانب قيمته الأدبية العالية - سيسد تلك الثغرة الشائنة في حياتنا الاجتماعية ، وهي ثغرة الجهل التي كانت تتأهب شؤماً على الدولة . ولقد عرف كثير من العلماء والكتاب الصحفيين في أوروبا وفي مصر قيمة هذا الكتاب فأنزلوه منزلة من التجارة والاحترام ، ووصفوه بأنه « كتاب أسامي » أو بأنه « لا غنى لأى مصرى عن مطالعته » أو بأنه « يجب أن يذاع في كل مكان كالبذرة الطيبة » أو بأن « نتيجة ستكون عظيمة تلفت الأنظار » .

لم يكن من الخير إذا ، أن يظل هذا السفر - وله كل هذا الشأن - مجهولاً في مصر إلا من هذه الصفوة القليلة العدد التي تجيد اللغة الفرنسية . إجابة تسمح لها بمعرفة ما فيه من حقائق محددة وصور ناطقة ، ولوحات صادقة ، ومشكلات معقدة ، وحلول موقفة ، وأفكار ثاقبة ، وآراء صائبة .

ولما كنا نشاطر المؤلف آراءه ، فانه يسرنا أن تقدم هذا السفر إلى مواطنينا الأعزاء آمليين أن نساهم بهذا العمل في رسالة التجديد الذي ترمقه مصر بعين شغوفة .

وإذا كان لا بد لنا بعد هذا الوصف العام للكتاب أن تقدمه إلى القراء تقديمًا أقرب إلى العلم وأدنى إلى التحديد والتعيين ، فانه ينبغي لنا أن نقرر بديا انه سفر نفيس ، لانه مليء بالأحاسيس المخلصة التي لا ترمى الى التهريج أو إلى الدعاية للذات ، ومفعم بالحساس الصادق المعتدل الذي لا يدعو الى الثورة أو إلى الصيد في الماء العكر ، وإنما يدعو الى تحقيق العدالة الاجتماعية التي بها يستقيم ميزان البلاد ، وأنه يمتاز بالموضوعية على أدق ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، فمؤلفه لا يسكاد يظهر على المسرح ، وإنما هو يعالج الموضوعات التي يعرض لها معالجة هادئة نزيهة بريئة من التعصب ، وكل ما يبدو عليها من علائم الحياة العملية هو المظهر الانساني قارة ، والمظهر المصرى تارة أخرى .

ومن تلك الخصائص الذاتية لهذا الكتاب أيضاً أنه معتمد على مستندات مباشرة ، ومصادر أساسية ، ومعلومات يقينية . ولا ريب أن الذي يسرله هذا هوعدة عوامل جوهرية ، منها أن مؤلفه الأ ب المحترم الدكتور عيروط هو مصرى الجنس والنشأة ، وان رسالته الدينية قد أتاح له فرصة الاتصال بالفلاح عن قرب ، وممكنته من معرفة كثير من عاداته وتقاليده ، وأخلاقه وميوله ورغباته ، فجمع كل هذه الجوانب وربتها دون أن يشوها كما يفعل البعض ، أو يجملها كما يفعل الآخرون ، وإنما رسمها كما ألفاها على حالتها الطبيعية شأن الفنان الأمين .

ولما كنا - والله الحمد - قد انحدرنا من إحدى الأسر التليدة في الريف المصرى ، بل الضاربة في القدم ، فقد اجتمع لدينا عن تقاليد الريفيين وطبايعهم وتصرفاتهم من المستندات التحريرية والشفهية ما يحملنا على إقرار ما سجله الأ ب عيروط راضين مطمئنين . وإذا كنا قد أشرنا في هوامش هذه الترجمة الى بعض الملاحظات ، فانها

ليست الا مفارقات ترجع الى أسس عرضية كالالتباس بين عادات الأسر القبطية والأسر المسلمة ، أو كاللاطمثان الى رواية مشهورة ، ولكنها كلها تتعلق بأمور ثانوية ليست من الموضوع الجوهرى للكتاب فى شئ .

وأخيراً يمتاز هذا السفر كذلك بدقة ملاحظة غذتها الاحاطة بالمشكلات الاجتماعية ، والجيوغرافيا الانسانية ، والحوالج النفسية ، والروح الادبية .

لهذا كان ذلك الكتاب القيم دراسة علمية محددة بأسلوب أدبى أنيق بعيد عن جفاف العلم المشتم ، فهو يصور الفلاح ويرسم إطاره الجيوغرافى والاجتماعى ، وأرومته وتاريخه المفعم بالبأساء ، وحياته الراهنة التى لم تتغير منذ آلاف السنين ، والتى يحمل وصفها الى النفس الالم والرحمة والاحساس بالمسئولية .

فى هذا الكتاب يعثر المثقف الممتاز على ضالته المنشودة ، لان المؤلف يعالج فيه معضلات عامة تستهوى كل العقول الراجحة حتى الغير المختصة فى تلك النواحي ولا سيما فى هذه البرهة الحاضرة كمعضلات ازدهام السكان ، وهجرة الريفيين الى المدن ، ووفرة الوفيات بين الاطفال ، والامراض الريفية المتوطنة وغير ذلك .

فاذا فرغ من رسم هذا الاطار وتصوير أحوال من هم فى داخله ومعالجة مشكلاتهم ، اتجه الى شخص الفلاح ولم يأت أن ينزل إليه فى أرضه ، ليجث عنه بين بذور النبات وأسمدته ، أو بين ماء النيل ورواسبه ، فاذا عثر عليه مدفوناً فى وسط العناصر الطبيعية ، أو مضغوطاً بين الأرض والهيئة الاجتماعية ، إحداهما تحته والأخرى فوقه ، وهو بينهما كأنه بين شقى الرحى وقد فقد كل أمل فى الخلاص ، فأصبح لا يصرخ ولا يستغيث ثم جعل يتناسى الاسترحام ، بل يتناسى الألم حتى نسيه وأضحى لا يشعر به ، إذا عثر عليه المؤلف فى هذه الحالة تناول ريشته وأخذ يرسم بيد رحيمة شخصيته وما يحقد بها من يؤس مآدى وأدبى ، ولكنه - مع اهتمامه بالناحية المادية -

هو معنى أكثر من ذلك بالناحية الأدبية فيصور لنا ذكاه الناشئ، الزاهر الذى يفوق فى طليعة الشباب ذكاه نظرائه من أبناء الغرب والذى لا تلبث عوامل البيئة أن تصدمه صدمة عنيفة فتقف إنتاجه وإبتكاره ، وتحوله الى آلة ميكانيكية لا عمل لها إلا المحاكاة وتنفيذ الأوامر الصادرة من الغير ، وتنحى فيه نوعاً من اللا شعور بالتعاسة يسمح له بأن يعيش فى الشقاء راضياً ، لأنه ما دام أن أدنى قدر ممكن من القوت متحقق وأنه « لا يموت أحد فى الريف جوعاً » فهو لا يمد عينيه الى ما وراء ذلك . ولا ريب أن هذا اللا شعور ، أو هذا الاطمئنان يصلح رداً على أولئك المعارضين الذين يجحدون بأساء الفلاحين محتجين بأنهم لو كانوا تعساء لما نما عددهم من مليونين الى اثني عشر مليوناً فى أكثر قليلا من قرن واحد ، وهم يرون أن المصورين لشقايمهم إنما يغالون فيرسمون فى ذلك لوحات أكثر سواداً من الواقع . ولكن هذا غير صحيح ، فتلك اللوحات صادقة دقيقة ، وانما الفلاح يأكل ويعيش ويتناسل ، وجبلته رصينة ، وأخلاقه متينة ، والروابط الطبيعية فى أسرته قوية .

وهذه العوامل مجتمعة هى التى تكاثفت على نموه ، غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر أنه لا يحيا حياة داخلية لذيذة ، ولا ينعم بحالة اجتماعية ذات قيمة ، ولا يعرف أدنى قدر من الرفنية ، وليس لديه أية فكرة عن التدبير الصحى ، وأنه يجب على الصفوة المثقفة أن تنقذه من هذه الوهدة السحيقة ما دام أنه ليس كفتاً لا تقاذ نفسه ، وهذا هو الذى دعا اليه المؤلف فى حرارة تلك الطبقة العليا التى تستطيع القيام بهذه المهمة والتى يجب عليها الامراع الى تنفيذها . ولا جرم أن القسم الذى اشتمل على هذه الدعوة من الكتّاب بهم المصريين أكثر من الأجانب ، لأنه هو الذى يعين العمل الإيجابى الذى يجب على الطبقة المثقفة أن تسلك سبيله ، لتشارك الحكومة فى مهمتها ، وتضاعف نشاطها وتكمل مجهودها بالنجاح ، وتقدم اليها حلول المعضلات التى تورط فيها ، إذ أن الحكومات الرشيدة لا تسير الا على ضوء نصائح المثقفين من

أبناء دولها . ولقد أجمل الأب عيروط أهم هذه النصائح في كتابه وألح عليها إلحاحاً جعلها واضحة جلية أمام كل من يبغي الاستفادة منها . وقد أوصى كذلك بتعليم الفلاح وأبنائه بكل الوسائل ، ولكن على أن يؤسس هذا التعليم على قواعد الالتئام مع عقلية الخاصة وحاجاته الضرورية ، لا تقليداً لمناهج أوروبا التي لا تتفق مع طبيعة مناخه ونشأته وحالته الاجتماعية .

يبدى المؤلف في هذا القسم الأخير حمية كريمة تشف عن مقدار السخط الذى تركه فى نفسه هذا الحيف الاجتماعى البغيض ويسجل فى حزم قسوة أكثر كبار الملاك وفقدان وطنيتهم اللذين يتمثلان فى أنانيتهم المقمقوة التى تساهم فى إدامة شقاء هذا الفلاح التعس . أليسوا هم الذين كان يجب عليهم أن ينظروا الى هذا السفر على أنه « عمل خطير كأنه محاسبة للضمير » كما يصفه أحد المقرضين ؟ .

ذلك هو الشعور الذى يجب أن تتركه مطالعة هذا الكتاب فى نفس كل مصرى ، ولا ريب أن هذه المحاسبة اذا تحققت فانها تقود أربابها فى الطريق السوى الذى طالما تمناه المؤلف والذى ينتهى إلى أشرف المقاصد وأنبى الغايات وأجدرها بالاحترام ، وهى تحقيق العدالة الاجتماعية والسمو الى الوطنية الصادقة .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذا المقام أن نرجو أننا نكون قد وقفنا الى الاحتفاظ بشيء من جمال هذا الاسلوب الحى اللدن الرشيق الواضح الصافى ، فيكون له فى العربية بعض الجاذبية التى له فى الفرنسية لتحقيق بهذا العمل فائدة جلية لا لمصر وحدها ، ولكن لجميع الناطقين بالصاد .

محمد غنيم

« من يلقي بنفسه بين الشعب أو في الأقاليم لا يلبث — إذا كان له عينان — أن يستحدث اكتشافات غريبة ، إذ يرى فيهما أشياء هي عنده جديدة لم يكن يتصور وجودها ، ولم يكن يستطيع إحراز أقل فكرة عنها فيتقدم بتجارب متواصلة في معرفة الإنسانية . »

لابروبيير

استهلال

أخرجنا في سنة ١٩٣٨ عند « بايو » بياريس في « مجموعة الدراسات والمستندات والشهادات لخدمة تاريخ زماننا » مؤلفاً عنوانه « أخلاق الفلاحين وعاداتهم » قد صدر بمقدمة قيمة لـ « أندريه أليكس » .

كان ذلك السفر المعتمد على الدراسات والملاحظات وعلى ميل دام عدة سنين يتطلب الايضاح والتحديد بل بدء العمل فعلاً .

ولما كنا اليوم منوطين بخمس وسبعين مدرسة أولية في مصر العليا ، ولما كنا نغادر العاصمة في كل شهر إلى تلك القرى البعيدة ، فأننا نحاول أن نبرز إلى الواقع أفكار ذلك الكتاب ، ولكي نهذب فلاحينا ونخرجهم من الأرض ، سنجتهد أن نقرب ما نسميه مصر الخارجية : أي نحن ، من مصر الداخلية : أي هم .

ولكن لما أصبح ذلك الكتاب — وقد صار ملائماً — مطلوباً أكثر من ذي قبل ، أضحي غير موجود وطلب منا أن نعيد طبعه .

وهذا السفر الذي تقدمه اليوم بمقدمة أخرى وتحت عنوان جديد يحمل معه عدة تنقيحات وإضافات ، ولكن ليس فيه تغييرات جوهرية ، لأن الفلاح لا يتغير كثيراً في أربعة أعوام .

أما الصور فلم يسبق لها نشر ، ونحن مدينون بها إلى أصدقاءنا شكرهم هنا .

الفكر والسياسة

مقدمة

معرفة الفلاح

كذلك الأدوات النحوية التي تربط الجملة وتمنعها ثباتها، أو كخصائص اللحمية الذي يمسك ويرسم القطع المتعددة الألوان من زجاج نوافذ الكنيسة، طبقة الريفيين تخلع على الوطن مظهره العميق، هي دعامة متواضعة، ولكنها ضرورية لتوازنه الاقتصادي ونظامه الاجتماعي. ولما كانت منتجة أكثر منها مستهلكة فإنها تحفظ صحة الدولة وتضمن لما فيها تنفساً منتظماً.

ولكن طبقة القرويين مكونة من ريفيين أي من رجال... مهما كانوا عبيداً للأرض وللفضول، ومهما بدت طريقتهم في التأثر متجلدة وبطيئة، ومهما كانوا خاضعين للعادة جامدين إلى الحد الذي يخيل إلينا، فهم يبررون أكثر من غيرهم كرامة الشخص البشري.

لما كان الناس قد خلطوا زمناً طويلاً بين الانتاج والمنتج، والعمل والعامل، والغلة والزراع، وحدقوا إلى المخزن دون أن يروا رجل الأرض الذي ملأه ولم يلاحظوا التضايق الذي لم يكن يعرف التعبير عنه والذي ربما أنه لم يكن يشعر به الشعور الكافي، فإنهم يشهدون اليوم اليقظة الريفية دهشين ويلاحظون في ذهول عبء الجهد الثقيلة به الجماعة والدولة بازاء رجل الارض.

إن الشعراء والفنانين في كل الازمنة منذ «فيرجيل» الى «جوزيف دي سيسكيديو» -

باستغلالهم موضوعي « الحارث » و « جمال الحقول » وبأذابتهم القروى في الاطار الذى يحوطه - قد ساهموا في حجب الحقيقة الريفية . انهم رسموا صوراً عامة جميلة ، ولكنهم عودونا أيضاً ألا نرى في الحياة الريفية الا المظهر المؤثر والعاطفى ، وأن نجد في لوحة كل الحقيقة « إن إشارة الزارع الجلييلة ^(١) » قد أخفت عنا الزارع نفسه .

هذا التزييف الأدبي يتحقق بنوع خاص بالنسبة الى مصر . ولقد لفت أنظارنا الى ذلك تعقبنا عاماً بعد عام كل ما كان ينشر في باريس فحسب ، إذ أن مصر لدى الكتاب الفرنسيين العصريين قطب جاذبية ، وهم في ذلك يسايرون إحدى تقاليدهم ^(٢) .

فمنذ سنة ١٩٢٦ مثلاً أثرت المراجع المصرية بنحو أربعين من الروايات أو التحقيقات الجديدة ، وذلك عدا مقالات الصحف والمجلات التى لا تحصى ، والمحاولات المنشورة في مصر وفي السكتب الانجليزية ، وهذا الانتاج العظيم والشيق من عدة وجوه يصف برشاقة إطاراً ومناظر ، ويرسم مشاهد وأشخاصاً يشغلها بهم ، ولا يفوته ألبتة أن يذكر الفلاح ، فهو يخصص له بضعة سطور أو بضع صفحات ولكنه يراه من الخارج ولا يعرفه ، ينبغى أن نذكر أن الفلاح ليس ممثلاً بادياً للعيان ، فهو لا يبرز كثيراً من الارض .

(١) هذا هو بيت شهير لفيكتور هوغو في إحدى مقطوعات مجموعة « أغنيات الطرقات والغابات » (المترجم) .

(٢) « جان - مارى كاريه » ، الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر منذ بدء السيادة التركية (١٥١٧) الى افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) ، مجلدان ضخمان من القطع الثمانى ؛ القاهرة في سنة ١٩٣٢ . و . م . ليكستينبرجيه ، « الكتاب الفرنسيون في مصر العصرية من سنة ١٨٧٠ الى أيامنا » من القطع الثمانى ؛ المطابع الجامعية بباريس سنة ١٩٣٤ . - ٣٠ - دراسات عن المستعمرات ، مصر في الادب الفرنسى . « مجلة التعاليم الشيوعية » مائة صفحة من القطع الاثنى عشرى ؛ باريس سنة ١٩٣٦ .

وإذا ، فالذى يحدث بمطالعتنا هذه الكتب هو أننا نعرف معرفة جيدة جداً :
أرجاء البغايا والفنادق الكبرى فى القاهرة والاسكندرية ، وجيدة نوعاً : الاهرام
والمتاحف والمعابد أو المساجد والاسواق ، وأقل من ذلك الحالة السياسية والاقتصادية
والاجتماعية ، ولكننا لن نعرف شيئاً أثبتة عن روح أو عن حياة هذا الرجل الذى هو
جزء أساسى فى أداة مصر العاملة وهو الفلاح .

ولم يكن رجال العلم الذين نظروا الى مصر أكثر من رجال الأدب رؤية
للفلاح ، فهؤلاء كانوا يعتبرون المناظر الطبيعية ، وأولئك يعتبرون البلاد ، والقرويون
يظنون ثانويين . نحن نقصد خبراء الزراعة والاقتصاديين بل الجيوجرافيين الذين
كثيراً ما ساهموا فى كشف أرض مصر .

ان بحوث المسيو أوديو ، والمسيو موسيرى عن الزراعة ، والمسيو فيلكوكس ،
والمسيو باروا عن وسائل الري ، والامير عمر طوسون عن النيل ، وأرتين باشا ،
والمسيو أرمانيجون ، والمسيو مينوست عن الملكية العقارية ، والمسيو كيفيليه ،
والمسيو هوج عن طبقات أرض مصر وجيوجرافيتها تعتبر بحق عمدة .

يتحدث فى هذه الكتب عن الفلاح ، ولكن فى علاقته بهذه العوامل الأولية ،
و كعنصر من عناصرها ، فهو يرى بمناسبة التسميد والحصاد والري ، وبمناسبة الضريبة
والملكية والاتاج ...

قد حسبنا أنه يمكن أن يخصص للفلاح المصرى مؤلف فردى يصفه كشخص
إنسانى ويعتبر كل تلك العوامل التى يجعل هو تابعاً لها ، متعلقة به ، وهو عكس لوجهة النظر
يسمح بفهم مصر على طريقة أفضل .

نحن لن نقول : « لا شيء الا الارض » . سنشتغل بالجيوجرافيا ، ولكن
بالجيوجرافيا الانسانية . homo additus naturae أى الانسان يوجد بدياً .

بالجيوغرافيا الانسانية كما كان « فيدال دى لابلاش » يفهمها أى الوصف الشارح ، العلم الذى يصل الى الدراسة النفسية والاجتماعية ، وهكذا ، دون أن نجد ألبتة رجل لأرض من الأرض التى تحفظه وتغذيه - وذلك يكون تشويهاً له - نحن سنركز فيه دراستنا .

ان رسم الاطار والشخص وتصوير الحياة الوقتية لأولئك الرجال الذين « يؤنسون » أرض مصر وهى تدفنهم ، اذ هذه الأرض هى نظيرتهم ، ومحاولة إظهار نقطة التماس التى تشرح النفس هى موضوع هذا البحث .

ولكى لا نطيل سنفرض أن حوادث تاريخ مصر الكبرى وأوليات جيوغرافيتها معروفة . على أن المؤلفات الحديثة لا تدع شيئاً يشتهى فى هذا الشأن (١) .

ولما كنا قد قصرنا بحثنا على الفلاح بالمعنى الضيق لهذه الكلمة أى الزارع الصغير ، فلن نتحدث عن الملاحين وصناع القرى . هؤلاء هم أيضاً فلاحون ، ولكن اختصاصاتهم تخلق لهم نوعاً من الحياة يستحق دراسة منفردة .

ولما كنا ننظر الى الفلاح اليوم ، فلن نذكر عن الماضى الا الشئ الجوهري على أنه فى الحاضر يتلخص كل الماضى كما يمكن ان نلاحظ ذلك .

أما فهم المقاييس والموازين والمكاييل والعملة والعبارات الوطنية التى ليست

(١) « تاريخ الوطن المصرى ، تحت اشراف د ج . هانوتو ، وهو سبعة مجلدات من القطع الرابعى بباريس سنة ١٩٣١ - ١٩٣٥ . موجز تاريخ مصر ، تأليف عدة مؤرخين وأثريين ؛ أربعة مجلدات من القطع الثمانى ، القاهرة سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٥ . مصر القديمة والحديثة والعصرية ، تأليف دى هينو ، س . ج . من القطع الاثنى عشرى ٤٤٠ ص ، الطبعة السادسة ، القاهرة سنة ١٩٣٥ . ، مصر ، لمحة تاريخية وجيوغرافية ، من القطع الثمانى ، ٤٥٦ ص ، القاهرة سنة ١٩٢٦ .

مشروحة في كل مرة في النص ، فليفضل القارىء بالرجوع فيه إلى القائمتين المثبتتين في آخر الكتاب .

وأما فيما يتعلق بالمراجع التي ليست كثيرة العدد ، فنحن لم نذكر من بين المؤلفات التي قرأناها إلا ما أعاننا على تحديد هذه النقطة أو تلك ، وقد جرينا على تفضيل المؤلفين المصريين والدوريات المصرية ، لأنهما - وإن كان مليئين بالحشو وليسا علميين إلا قليلا - يريان الأشياء المصرية من الداخل ، وهذا النوع من الانباء الذي يفسح المجال للحكم يفوق كل نوع آخر .

ولكن قضيتنا تعتمد في جوهرها على ملاحظات شخصية تمتد الى عدة سنين - فنحن من مصر - وإلى عدة أقاليم من وادى النيل . وهي تعتمد أيضاً على محادثات خاصة مع أناس من جميع البيئات ، وعلى التفكير المنطبق على الأشياء المرئية والمسموعة . وإذا ، فهذا المؤلف الذى تقدمه اليوم قد نظرنا فيه وتأملناه قبل كتابته .

فترجو أن يساهم في أن تبسط في عمق مسألة الفلاح ، وأن يساعد في أن تعرف بوساطته مصر الخالدة .

الفصل الاول

إن الفلاحين أى الصعاليك القرويين الذين سنصف حياتهم فى الفصول التالية يؤلفون أكثر من طبقة اجتماعية واحدة ، فهم يعددهم الذى هو أكثر من ثلاثة أرباع مجموعة الاهلين ، وبوحدة طبيعتهم وبأصالتهم يكونون حقاً الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى أنتج المدنية الأولى أو على الأقل أنتج مدينة جد خاصة يملأ تاريخها خمسين قرناً من الزمن يبدى لنا خصائص ليست أقل شخصية من مدنيته .

الدوام والثبات : فسادته ودينه ولغته وثقافته قد تغيروا ، ولكن نوع حياته لم يتغير ، بل استعصم واحتفظ بذاته منذ زمن الامبراطورية القديمة البعيد الذى هو فوق قمة عصر الأسر .

امتلكه على التوالى : الفرس والاعريق والرومان والبيزانتيون والعرب والترك والفرنسيون والانجليز . وسواء أكان هذا الامتلاك عدة قرون أم بضعة أعوام فانه بقى كما هو .

واليوم أيضاً هو لا يساهم فى نهضة مصر وفى حريتها وفى تطورها إلا قليلاً ، أو لا يساهم أبته .

أما روحه - التى هى وثنية منذ ما وراء عصر (التوتيميسم) : تقديس الحيوان أى منذ عهد عبادته ثم هى ، إبان ستة قرون مسيحية الى حد السكالك الممثل فى التنسك وفى احتمال التعذيب - فقد تركت ذاتها تسلم بلا مقاومة ، ولكن دون أن تستطيع ثلاثة عشر قرناً فى الاسلام أن تغير دخليتها الدينية (١) .

(١) المراد الدخيلة الوثنية القديمة التى تتمثل فى تقديس الأشجار والأحجار .

شعب قابل للانفعال ، ولكنه غير قابل للاستكناه ، صبور ولكنه مقاوم ، ومع أن هذا الشعب يعيش منذ زمن طويل في ملتقى القارات ، وعلى مفترق الطرق الدولية ، وفي بلد كان مسرحاً لأعظم أحداث التاريخ ، قد بقي هادئاً ثابتاً كفأح البحر تحت الأمواج الهائجة .

لقد غيرت وجوه الأوطان الحجب مرات كثيرة حسب ألاعب الرجال ، وكذلك وجه مصر أيضاً ، ولكن الذى لم يتغير هو الأساس ، والفلاح الذى هو عين ذلك الأساس من مصر .

كان يقدم نفسه دعامة للمناظر التى كانت تجرى عنده وفوقه وكان يصمد لها ، وبينما كانت تلك الزعازع العنيفة المتكررة تعصف بالشعوب أو تدمرها كما تشهد بذلك الى اليوم خرائب افريقيا وكلدان المقفرة ، وتلك البساتين المزدهجة بالاجانب ، كان الفلاح الغير القابل للاستهلاك باقياً . . .

يروى تاريخ مصر كثيراً من الحروب والثورات ، ولكن الشعب لم يكن يحتمل بها ، ومع ذلك فهو - فى عصر واحد أى بين سنتى ٧٢٥ و ٨٣٠ - يتحدث عن اضطرابات فى الأرياف ، إذ حين أرهق الفاتحون (١) العرب الفلاحين بالضرائب جعلوا يهجرون القرى التى هم مقيدون فيها ويستقرون فى بلاد أخرى وقد صارت حركة الفرار هذه عامة ولكن القمع كان فظيلاً الى حد حمل الاقباط على الثورة الصريحة ، فتألبوا ست مرات ولكن بدون تماسك ولا اتحاد فى الزمن ، فقهروا فى

(١) بقصد المؤلف وصف الاضطرابات التى بدأت فى مصر من عهد هشام ابن عبيد الملك واستمرت الى عهد المأمون واضطهد الولاة أثناءها المصريين وأرهقوهم حتى اضطروهم الى الثورة عدة مرات ثم قمعوا تلك الثورات بالعنف وإراقة الدماء (المترجم) .

المرات الست على أشد الصور إراقة للدماء ، وذلك لأن الثورات ليست من خاصياتهم ،
على أن غور الشعب حتى في هذه الثورات لم يلحق .

لم يتقنت هذا الشعب أكثر من جرائت المعابد ، ولكنه لم يتطور تطوراً جوهرياً
أكثر من تلك الصور الفنية التي تحدت مرة واحدة ، فتفاصيل حياته اليومية التي
تستحضرها نقوش حوائط القبور الفرعونية ، أو الحرافات القبطية ، أو مؤرخو العرب ،
أو « وصف مصر » أو المحققون الانجليز ، أو حالة اليوم يخيل إلينا أنها سلسلة من فصل
واحد ، وشعورنا هو أن هذه المناظر التي تفصلها القرون تتكرر ويغطي بعضها بعضاً .
على أن هذا ليس أحاسيس فحسب ، فنحن نشاهد وحدة آلات العمل :
كالخراث والشادوف والساقية والجاروف ، والمنجل والقفه ، ووحدة معاملة الجسم
كالوشم والحثان ، واستعمال السكل والحناء وإزالة الشعر ، وثبات عدد كبير من العادات
في الزواج والحداد وما شاكل ذلك (١) .

من خلال روايات هيرودوت ، وديودور الصقلي ، واسترابون والمقريري ،
وفانسليب ، والاب سيكار ، وفولنيه وأمثالهم نحن نعرف ذات الفلاح : لا ثورة ولا تطور .

هنا نحن أولاء في صميم المشكلة ، فكيف يمكن شرح هذا الثبات الجسماني ،
وذلك التوازن النفساني والاجتماعي ، وذلك الدوام الفوق العادي عند شعب من الناس ؟ .

نحن نشرح ذلك بالأرض كما يمكن أن نشرح ثبات الفن المصري الذي
تكون بوساطة الاستيلاء على البيئة الطبيعية ، فالخطوط الأفقية الحادة للصخور
العربية والبيئة قد ألهمت ذلك الشبح المنخفض المستطيل الممتلئ السميك المعابد
الفرعونية ، وذلك الافريز المتحد الصور الذي يتممها .

(١) سنبين هذه التشابهات في مواضعها ، وكل واحد يستطيع أن يثبتها بنظره في
المنابع المذكورة في المصادر .

وكومات البردى واللوتوس والقصب التي كانت تزهو على شاطئ النيل قد منحت صوراً فنية تشاهد على هذه الأعمدة وتيجانها التي ندعوها بصور البردى وصور اللوتوس والدور يانية البدائية .

منذ زمن بعيد قد تثبت في وادي النيل بين العقل والطبيعة تماسك متين . وقد أبرز ملاك مصر المختلفون بكل أعباء سيادتهم هذا التماسك .

يجد الفلاح نفسه موضوعاً بين الأرض وأربابها كأنه بين المطرقة والسندان ولكنه بنوع حياته أقرب إليها منه إليهم ، وضرباتهم بالمطرقة تزيد التصاقه « بالأرض » . هذا الاتحاد واقعي إلى حد أن سادة الفلاح باستيلائهم عليه يستولون على الأرض وبامتلاكهم الأرض هم يمتلكونه .

وهكذا يحتفظ الشعب الفلاحي بهذا الثبات وتلك الوحدة اللذين يدعشئنا ، بوساطة ارتباطه بثبات آخر ووحدة أخرى ، وهما : ثبات تربة مصر ووحدتها .

قد وجد بين هاتين الكتلتين الحيتين اتصال مرن وضيق ، وتوازن مقفل وشبه كفاية لا تصل الحوادث ولا الحكومة إلى سبر غوره . وقد نستطيع أن نستعمل هنا تعبير « سولى - برودوم » الجميل الذى يتحدث عن : « ذلك الزواج القاسى السابق على التاريخ بين جنس وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما » .

إن رفقة الجنس والحقل المتصلة قد أنتجت طائفة من الأفعال وتجاربها الدائمة ، ومن المشابهات والمعارضات صيرت الاتحاد الغير القابل للانحلال بين تينك الكتلتين أكثر متانة ، ولنقل بالأحرى : بين تينك البيئتين : الطبيعة أو البيئة الطبيعية بالمعنى الواسع لكل ما يحيط كما يقول الانجليز أى المناخ والنور ، ولكن قبل هذا كله : ماء النيل ورواسبه ونباته وجيرته من الرمال من ناحية ، ومن ناحية أخرى الانسان أو البيئة الاجتماعية بمعناها الضيق أى البيئة الفلاحية المحصورة فى عاداتها وفى قراها .

والشديدة الانضغاط والازدحام . وان كانت منزلة وغير منظمة والتي هي أقرب إلى الأرض التي يعرفها الفلاح من الحكومة التي لا يعرفها .

ولكن لنحترس هنا من كل جبرية ناموسية ، بل نحن نريد أن نقصى منها حتى ظاهرها ، فالفلاح ليس ثمرة الريف المصرى أكثر من أن يكون هذا الريف ثمرة ، والأمر لا يتعلق هنا بخلق ضرورى ولا بتأثير محدد ، وإنما الانسان يظل حرّاً ، ونحن نحد الحرية بأنها « مقدرة المرء على تحديد نفسه بنفسه » .

الانسان حر ، والطبيعة الزراعية إحدى الممكنات ، وهى تنتج إمكانات غير محدودة تختار من بينها إرادات الأناسى - ولكن السادة لا الفلاحون - أجدها أو الآخر حسب الزمان . . .

فيما مضى غرست الكروم فى حقول مصر ، ولكن لما كان العنب يعطى التبيذ ، فقد قتلت التحريمات القرآنية تلك الكروم . وبالألمس كانت شجيرات التبغ تغطى سطوحاً واسعة ، ولكن الحكومة حظرت زرعها ، وعلى العكس من ذلك الدرة (الشامية) الآتية من أمريكا ، والقطن المحبوب فى القرن التاسع عشر لها اليوم الصدارة على جميع الزراعات الأخرى . وغداً سيمكن استغلال نباتات مغايرة .

ليست هناك أية ضرورة من ضرورات المناخ أو ضرورات الأرض تحدد مرة نهائية الانتاج الزراعى فى مصر ، ومن باب أولى هى لا تحدد الوجود الانسانى . ومع ذلك فقد بقى فعل خاص للبيئة (المناخية) فى الكائنات التى تعيش فيها ومنها .

لدى سكان المدن ولدى عمال الصناعات تكون الرابطة بين الطبيعة والأناسى أكثر تفككاً ، وطابع البيئة الطبيعية ينحل ويتعطل عمله لصالح البيئة الاجتماعية والوطنية والسياسية التى تبرز وتسد ، وذلك يصير الجماعة أقل ثباتاً ، ولكن أكثر

تقدماً ، وليست هذه هي الحالة بالنسبة إلى رجل الحقول ، فطابع الأرض عليه يظل بادياً . والمسيو « فيفر » يعارض بحق في تعميمات « رازيل » و « برون » حول تأثير البيئة الطبيعية ^(١) ولكن يخيل إلينا أننا - دون أن نمنح قضيتيهما قيمة الحقائق التي تنطبق على مجموعة التاريخ والأرض - نستطيع أن نعرف بأنهما تنطبقان انطباقاً جيداً على الجماعات الزراعية ، وأجود من ذلك أيضاً انطباقها على الحالة الخاصة التي ندرسها وهي حالة فلاح مصر .

سنرى في الواقع أنه على تماثل وادى النيل ووحدته وخصوبته يجاوب تماثل الجمعية الفلاحية ووحدتها وخصوبتها وسنرى أن هاتين الظاهرتين الموجودتين ليستا متوازيتين ، ولكنهما متاستان تلتقيان في « نوع الحياة » (العنصر الجيوغرافي والاجتماعي) .

سنرى كيف أن ماء النيل ورواسبه تتغلغل في عمل الفلاح وجسمه ونفسه ومسكنه وأسرته وكل حياته وتشرح جزءاً عظيماً منها وتقل إليه محامدها ومساوئها .

بسبب أن الفلاح « مدفون » في هذه الرواسب صارت هذه الأخيرة مخصصة : مصر هبة النيل ، وهي ليست أقل من ذلك هبة الفلاح .

وبسبب أن هذه الأرض تجسدت في الفلاح ، كان هذا الأخير ثابتاً إلى هذا الحد ، ولكنه كان أيضاً مادياً وراكداً .

(١) « جان برون ، . الجيوغرافيا الانسانية ، . والسكان » . باريس سنة ١٩٢٥
الطبعة الثالثة ٩٧٥ صفحة عدا مجلد صور ، ب . فيدال دي لابلانك . . مبادئ
الجيوغرافيا الانسانية ، . كولان ، باريس سنة ١٩٢٢ ، ٣٢٠ صفحة « لوسيان فيفر ،
الأرض والتطور الانساني ، . مقدمة جيوغرافية للتاريخ ، مكتبة سانتير التاريخية ،
نهضة الكتاب . باريس سنة ١٩٢٢ ، ٤٧١ صفحة .

وإذًا ، فالتقدم سيأتى من انتزاع وبروز وترمية بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة

e ducere :

انتزاع روح الفلاح من هذا الغلاف الطينى الذى يخنقه ، ورفعها دون اقتلاع جذوره ، وتحليصه من معائب الأرض دون محامدها ، هذا هو عمل الجماعة ، ولكن هذه الجماعة ليست جماعته التى هى بدون قوة روحانية داخلية . ليست تلك الجماعة القروية المشلولة فى حالتها الراهنة ، ولكنها جماعة الطبقة العليا التى تدره وتستطيع أن تتغفل فيه ، جماعة الصفوة التى بوسائلها وثرواتها تستطيع أن تمنحه الحياة .

ذلك هو فعل الخير فى العجيين ، وفعل الذكاء وحسب الآخرين .

ستحدد الفصول الآتية هذه الاعتبارات العامة وستمثل لها وستقودنا بوساطة منطق الحوادث الى هذه النتيجة الانسانية الخالصة التى رسمناها كلها آنفاً .

الفصل الثاني

الاطار الطبيعي

مصر ————— بلد زراعى

— ١ — الجيوغرافيا

لقد استطاع الناس التحدث عن تصيير مصر بلداً صناعياً . وفى الواقع أن وثوب الصناعة فى هذه السنين الخمس الأخيرة يسجل من الاتساع بقدر ما يسجل من السرعة ومنذ الآن توجد طبقة من صعاليك المصانع أو طبقة عاملة وطنية تمكن دراستها ، ومع ذلك فإن انعدام مناجم الحديد ^(١) أو الفحم من الأرض المصرية سيمنع دائماً هذا القطر من أن يصير مركزاً صناعياً بمعنى الكلمة ، بل من أن يكفى فى المواد الصناعية لسد حاجات سكانه ، ولكنه يبقى وسيبقى بلداً زراعياً من الصف الأول .

ذلك هو قانون تكوينها الطبيعي .

إن مصر بأرضها المسطحة ، وتربتها الغنية الرطبة الرخوة . ومهرها الفياض ، ومناخها الحار الجاف تحقق الجيوغرافيا المطلوبة للزراعات الكثيرة الانتاج ، الواسعة الامتداد ؛ وتولاها بدون تحاذل .

(١) ستغير هذه الفكرة بعد اكتشاف منجم حديد اسوان العظيم الذى نرجو أن توفق الحكومة المصرية الى استغلاله على صورة تضمن تحقيق أمل البلاد فى أن يكون ذلك المنجم منبع ثروة جديدة لها . المترجم .

رمال هي في ذاتها لا تكاد تكون زراعية أكثر منها صناعية ، وكتل من الجرانيت والجص غير صالحة لأى بذر . على هذا النحو كان وجه مصر سيبدو أرضاً فقيرة يسكنها البدو والرعاة كشبه جزيرة العرب وقورينا جارتها لو لم يمر في هذه الجهة من صحراء افريقيا خط من خطوط الحياة ، وهو النيل الزارع .

ليس النيل من موالد مصرى ، ولكنه يهب مصر نضوجه والفتح الذى ينهيه . هو يدخل أرضها غنياً بجريان ٥٠٠٠ كم ، ومحملاً بالرواسب التى يجلبها معه إبان هذا السفر العظيم خلال أشد الاراضى تبايناً . هو يتجدد فى كل عام وينظم بحباته حياة مصر .

إن الطغي الذى يجمعه النيل من الخارج ويحمله مع فيضانه يضعه منذ القدم الاخير من العصر الرابع فوق شاطئى بحراء المسطحين ويبسطه فى هيئة طبقة ظافرة بعرض مصبه على حساب البحر (١) .

كونت هذه المحمولات فوق الجرانيت أو الجص أو الرمل سمكاً من « أرض سوداء » (كيمى) يتراوح بين عشرة أمتار وثلاثين متراً حسب الجهات .

إن الارض النيلية التى تغطى الوادى على هذا النحو مكونة من صلصال طبيعى وصلصال هلامى تنضم اليه جواهر ملحية ، وذلك منتج دقيق من تحلل آت من محمولات شديدة الانسحاق من التيلين : الابيض والازرق .

وتكون هذه الارض القابلة للزراعة - بعكس ما عليه جميع الجهات الزراعية تقريباً - هو بعينه فى جميع أجزاء القطر . والتحليل الآتى الذى يثبت وحدة هذه التربة يظهر أيضاً محتوياتها المعدنية القوية . ومنشير إلى ذلك بنماصة غذاء الفلاحين .

(١) ب . بوقيه - لايبير . مصر فيما قبل التاريخ ، فى كتاب : تاريخ مصر ، المجلد الأول صفحة ٩ - ١٤ : مصر والنيل .

مصر العليا		مصر السفلى		
مطاي	إطبا	المنصورة	طنطا	
٪	٪	٪	٪	
٠,٧٦	٠,٦٣	٠,٥٦	٠,٥٥	بوتاس
٠,٧٤	٠,٧٢	٠,٧٠	٠,٥٨	صودا
٤,٤٧	٥,٥٣	٣,٢٨	٣,٣٨	كالميوم
٢,٨٩	٢,٧٥	٢,٦٦	٢,٨٨	مانيزيا
٠,٢٦	٠,٢٤	٠,٤٥	٠,٢٢	(المنغنيز
٢٤,٣٩	٢٠,٢٣	٢٤,٩٠	٢٣,٣٦	(الحديد والشب
٠,٢٨	٠,٢٢	٠,٢٣	٠,٢٠	(الفوسفوريك
١,١٠	٣,٠٣	٠,٨٥	٠,٦٧	(الكرونيك
٠,١٠	٠,١١	٠,٠٣	٠,٠٩	كلورين
٧,٧٨	٧,٣٨	٧,٧٦	٧,٧٩	(العضوية
٥٧,٢٣	٥٩,١٦	٥٨,٥٨	٦٠,٢٨	(الغير القابلة للتحلل والرمل
٩,١٩	٠,٠٥	٠,٠٧	٠,٠٧	نيتروجين

(١) بحوث مدرسة الزراعة الملكية بالجيزة .

إن الأرض التي آتى بها النيل لا يكف عن إغنائها وإروائها بالفيضان أو عن طريق القنوات ، وذلك دائماً تحت مراقبة الانسان .

وطريقة الري بالحياض الضاربة في القدم والتي لا تزال إلى اليوم تشمل مليوناً من الأفدنة تنحصر في إحضار الماء في عصر الفيضان عن طريق قنوات صغيرة إلى

سطوح واسعة من الأرض محوطة بحجور عالية فتبتلع الأرض الماء إلى حد الشبع ،
والباقي يسيل في سير بطيء بعد أن يضع طبقة من الرواسب الدقيقة التي كان الماء
محملاً بها قبل وصوله إلى الحياض . وعلى هذا النحو ينال كل فدان ٧٠٠٠ متر مكعب
من الماء تغنيه بمائية أو تسعة (أطنان) من الرواسب . وعلى أثر انسحاب الماء مباشرة
(نوفمبر) يبدأ العمل في الزراعات التي تأخذ في النمو إلى الحصاد دون احتياج إلى
رى آخر . وبعد هذا تظل الأرض باثرة إلى الفيضان التالي ، ومع ذلك فزراع
الأرض الواقعة في الحياض لكي يستفيدوا من زراعة صيفية بعد غلة الشتاء يلتجئون
إلى الماء النابع من الأرض بوسيلة (ماكينات) المياه التي انتشرت إلى حد أن غيرت
بهج الزراعة في تلك الأصقاع .

أما طريقة الري الذي يدعى بالدائم والذي أدخل في سنة ١٨٤٠ وصار ممكناً
بفضل الأشغال الفنية ، وأكثرها جدارة بالاعتبار سد خزان اسوان ، فهي تسيطر
على كل الدلتا وعلى جزء عظيم من الوجه القبلي (٤٣٠٠٠٠٠ فدان) .

لم يعد النيل يفيض في تلك الجهات ، ولكنه - محجوزاً في خزانات وموزعاً بواسطة
سدود - يتفرع إلى عدد كبير من القنوات ويغذيها في جميع الفصول أي أنه :

أولاً في موسم الفيضان (من أغسطس إلى أكتوبر) لا تكون الحقول مغمورة
بالمياه ، ولكنها تكون مروية فقط وتنتج الغلة المسماة بـ (التيلية) .

ثانياً في وقت نقص النيل (من نوفمبر إلى إبريل) تتلقى الأرض التي تكون
لا تزال رطبة الماء الكافي لزراعة الشتاء (الشتوية) .

ثالثاً في زمن التحريق (من إبريل إلى يولية) تفتح الخزانات وتسمح بالرى
الذي يقتاد الغلة الثالثة المسماة بـ (الصيفية) إلى النضوج .

لكي يثمر الأرض يجب أن تروى ، ويجب أيضاً أن تنفس .

بوساطة التشققات التي ترسمها أشعة شمس الصيف على الأرض المسطحة تتكفل تلك الشمس بصحة الحقول البائرة وتساعد على إقناص أملاحها وتجففها وتحقق لها نهوية عميقة وهكذا تصير الأرض جافة ومتجددة^(١) . . .

وإذا ، فنحن نرى النيل بمساعدة الشمس يعد أرض البلاد ويزرعها ، وهو بهذه الظاهرة نفسها يرسم حد البيئة الطبيعية للفلاح أو مصر الحية .

في الواقع أنه في الأماكن التي لا يتغلغل فيها من فوق أو من تحت تبدأ الصحراء بقتة بدون منطقة انتقال . واصطلاحات الأطالس التي تظهر فوق خريطة مصر شريطاً رقيقاً أخضر على أساس بين الصفرة والحمرة تتحقق هنا تماماً .

من فوق قمة الهرم الأكبر أو من ضواحي القاهرة أو من الصعيد (مصر العليا)^(٢) وأياماً اتجه نظر المرء يسترعى انتباهه وضوح خط الانقسام ، وهناك ينتهى ممر الانسان وعمله .

واد مسطح بين صحور الصحراويين : الليبية والعربية ، طوله ١٥٠٠ كيلو متر ، وعرضه كيلو متر عند وادى حلفا ، و ٥ كيلومترات في ادكو ، و ١٤ كيلو متر بين

(١) « موسيرى وأوديبو » عن دور وتشققات الأرض في جفاف تربات مصر وصحتها الدائمة نشرة معهد مصر ، المجلد الأول (١٩٢٢ - ١٩٢٣) ص ٩ - ١٩ : ١ ديمانجون « المشاكل الوقية والمظاهر الحديثة للحياة الريفية في مصر » : المجلة الجيوغرافية ، باريس ، مارس ١٩٢٦ ص ١٥٥ - ١٧٣ .

(٢) قال المقرئى : الصعيد المرتفع من الأرض ، وقيل : الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة ، وقيل ما لم يحاطه رمل ، وقيل وجه الأرض ، وقيل الأرض الطيبة وقيل هوكل تراب طيب . . . سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر . ص ١٨٩ من المجلد الأول من خطط المقرئى .

الاقصر واسيوط حيث يضيق من جديد ، و ٢٥ كيلو متر في بني سويف حيث يتفرع نحو الغرب (الفيوم) وهو يعتد على عرض ٢٦ كيلو متر في الدلتا . ومجموعة كل هذا ٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع من أرض جيدة في وسط مليون من الكيلومترات المربعة من الرمال القاحلة - وهي ٣ ٪ . من مجموعة الأرض - هذه هي مصر الحية المقدية .

رسم النيل شعبها : هو يبدو لنا كأنه لتوسعة عملاقة ، جذراها - وهما : النيل الأبيض والنيل الأزرق - مغروسان في قلب افريقيا وفي جبال إتيوبيا العليا وفي بحيرة كونجو الكبرى ينبتان من الخرطوم ساقاً وحيدة تتغلغل في مصر ضيقة عند وادي حلفا ولا تخضر إلا في اسوان ، وهي تثبت ورقة في بني سويف (بحري يوسف - الفيوم) وهي تزهر في القاهرة وتفتح إلى أغصان لا تحصى على فرعي رشيد ودمياط ثم تلحق البحر الأبيض المتوسط من خلال أهداب بحيرات : مريوط ، وادكو ، وبراس ، والمنزلة التي تمتد من الغرب إلى الشرق حول مصب النهر .

إن وادي النيل المحصور بين الصحراوين اللتين تقوم وراءهما الحدود السياسية هو ذو طبيعة زراعية في جوهرها ، وحياته يعبر عنها بنغمة واحدة وهي : الأخضر ذو الزراعات الغير المنقطعة ، وهذه الزراعات تمتد في ريف عظيم واحد مسطح يثمر المدن والقرى .

على ارتفاع قامته الرجل وقبل ضم غلة الدرة مثلاً لا يرى المرء النيل ولا القنوات التي لا تحصى ، ولا مجارى المياه ، ولا قضبان السكة الحديدية التي تظهرها الاعمدة التلفرافية وحدها ، ولا المنازل المنخفضة المتجمعة ... على نحو ما في مروج هولاندا أو روسيا الرطبة ، ولكن تحت سماء لا تمطر تبدو صدارة الزراعة والحقول . ليذهب كل راحل في مصر النيلية من القاهرة إلى الاسكندرية ، أو ليذهب بالعكس

نحو الجنوب ، ليسافر في سفينة أو في سيارة ، وفي الدلتا أو في الصعيد ، وفي الصيف أو في الشتاء ، فإن المظهر الزراعي للمناظر المحيطة يتغير .

غير أنه عند ما يبتعد عن النيل نحو السويس ، أو نحو دير واد النطرون القبطي فإن الصحراء تفتح من كل جهة . وإذا ذاك يعتقد أنه قد غير البلاد .

في الغرب يلتقي بالواحات البدوية : الخارجة والداخلة ، والفرافرة وسيوة ، وفي الشرق نحو شواطئ البحر الأحمر يجد استغلالات للبتروول والفوسفات وأسمراً من الفلاحين (الصمائدة) قد استقرت هناك للأشغال .

في هذا القسم القصي الأجرد الذي ليس هو مصر العليا ولا مصر السفلى يذكر هؤلاء الرجال الذين انقلوا من منابهم المسافرين بالريف المألوف الذي هو عنده كما عند تسعة أعشار المصريين يمثل البلاد .

٢- الدراسة المساهمة للجغرافية البصرية

ومع ذلك ، فلا ماء النيل ولا رواسيه ولا أشعة الشمس الحارة كانت ستصنع أو ستحفظ إلى اليوم مصر الزراعية بدون معاونة شعب هو في جوهره أيضاً زراعي .

نحن نلاحظ بدياً اتصالاً بين الاجتماع البشري وإمكان الاحتواء ، فهنا أكثر من أي مكان آخر تلتم خريطة الماء وخريطة الأناس .

يمكن أن يكون العدد قد احتل تغيرات على ممر العصور ولن يستطيع أحد أن يحدد تلك التغيرات بطريقة يقينية ، ومع ذلك فما عثر عليه من آثار ما قبل التاريخ يتم منذ زمن مبكر عن أمارات الازدهار .^(١)

(١) ج دي مورجان ، « بحوث عن أصول مصر » ، ص ٦٧ . مجلد واحد .

وقد يتأرجح العصر الفرعوني بين سبعة ملايين ، وهو العدد الذى عينه ديودور الصقلى ، وعشرة ملايين^(١) . ويتحدث كتاب مصر المسيحية عن عشرين مليوناً ، وفى زمن الحملة الفرنسية - وكان الفتحان : العربى والتركى قد مرأ - نهوى الى مليونين ونصف تقريبا . وقد اعتبر «جومار»^(٢) معتمدا على كمية القرى وعلى الانتاج أن من الطبيعى أن يكون هذا عدد السكان .

أما أن يكون ذلك بالعكس حدا أدنى تجاوز المألوف ، فهذا ماستكفل الاحصاءات التالية بإثباته . وفى الواقع أن التوازن الذى دمرته أسباب غير جيوغرافية كالقتل والوباء والجوع^(٣) . . لم يلبث أن عاد إلى الاستقرار كما يسجل ذلك المسيو فيدال دى لا بلاش بحق عندتنا وله مصر فيقول : «عند هذه المدنات القديمة المؤسسة على ما هو أقل الاشياء تقيرا ، وهو خصوبة التربة وقواها على إصلاح نفسها»^(٤) توجد محدة غربية وهى المرونة .

(١) ا . موريه والنيل والمدنية المصرية . ص ٥٦٧ . لا تقدم الآثار أى تحديد على عدد الشعب فى الأزمنة الفرعونية ، وبالمقارنة مع العصر الحديث يمكن المرء أن يعتبر أن مصر بمعنى الكلمة قد استطاعت أن تكون ثمانية ملايين نسمة فى عهد الامبراطورية الطيبية ، وقد قدر الأمير عمر طوسون هذا العدد بثمانية عشر مليوناً (مذكرات عن ماليات مصر منذ القراثة إلى أبامنا)

(٢) جومار ، مذكرة عن الشعب مواز فى مصر القديمة والحديثة فى « وصف مصر » طبعة بانكوك ، المجلد التاسع صفحة ١٠١ - ٢١٠ .

(٣) قال عبد اللطيف البغدادى فى « وصف مصر » متحدثا عن قراها : بعد نزول الكوارث بها ما معناه : حسبى أن أقول : إن القرية التى تحتوى عشرة آلاف نسمة لم تعد تظهر لمن يمر بالقرب منها إلا موضعا واسعا لإلقاء القاذورات ، فتارة يوجد فيها بضعة أشخاص منعزلين ، وتارة لا يرى فيها أى ساكن .

(٤) مياى . الجيوغرافيا الإنسانية صفحة ٥٣ .

وفي الواقع أن الأمن العائد ، والنظام المستقر ، واستعمال الرى الدسم ، والزراعات الصناعية التى تنتشر انتشارا مطردا بمضاعفتها إمكانات التربة ، كانت تضاعف فى الوقت ذاته بفعل السببية المتبادلة اقتضاءات الأيدى العاملة ، وبالتالي كان ذلك يستتبع نمواً فى عدد الأهلين .

أسفر التعداد الفردى الأول سنة ١٨٧٣ عن ٥٢٥٠٠٠٠ ساكن ، وبعد نصف قرن أى (فى سنة ١٩٢٧) صعد عدد الأهلين إلى ١٤٢١٧٨٦٤ . وفى سنة ١٩٣٧ وصل إلى ١٥٩٠٤٥٣٥ .

ومهما يكن من شئ ، فإن العمران يظل دائماً مزدحماً على الأرض السوداء ، وهو دائماً محدود بها ، و ٩٩ / أى أكثر من خمسة عشر مليوناً يقيمون فى الحركة الناشئة من مياه النيل أى فوق جزء من ٣٠ جزءاً من أرض المملكة .

فى هذا المسطح الضيق لا تكاد المدن المفرطة فى الزحام وإن كانت قليلة العدد تحتوى على أكثر من ثلاثة ملايين من المدينين ، والمصريون الآخرون قرويون ، وهم كلهم تقريباً عمال فى الأرض أى فلاحون . وبمقتضى التعداد الرسمى يشتغل ٦٢ / من رجال البلاد فى الحقول ، وينبغى أن يضاف إليهم النساء والأطفال ، لأنه يجب علينا هنا أن نقدر هذه الأيدى العاملة الشبيطة الكثيرة العدد . وإذا ، فنحن نعتقد أننا نظل فى داخل حدود الحقيقة إذا أوصلنا إلى اثنى عشر مليوناً من الأنفس هذا الشعب الزراعى الذى هو موضوع دراستنا . (١)

وهذا الشعب ينمو . . . نعم بحالة أقل منها سرعة فى شعب القاهرة مثلاً ما دام أن الزيادة فى القاهرة فيما بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢٧ كانت بنسبة ٢٨ / على

(١) لا يوجد فى انجلترا مثلاً إلا أربعة ملايين قروى . ومنذ سنة ١٩٠٠ فقط هجر الزراعة ٢٥٠٠٠٠ شخص

حين أنها في الريف لم تكدر تتجاوز ١٠ ٪ ، ولكن بينما يكون في المدن جزء عظيم من تلك الزيادة ناشئاً من هجرة الأجانب والقرويين إليها ، فإنها في الريف ليس لها سبب إلا التنازل ، وهكذا يكون لدينا متوسط من الشعب الريفي عدده (٤٥٠) شخصاً في كل كيلو متر مربع . وهذه الحالة ليس لها نظير إلا في توكان حيث يقيم ٦٠٠٠٠٠٠ من الأنفس فوق ١٤٥٠٠ كيلو متر مربع أي ٤١٣ شخصاً في كل كيلو متر مربع ، و ٩٣ ٪ من الأهلين فوق ١٦ ٪ من مجموعة الأرض . ومن هذا الجمهور يعيش مليونان وتسعمائة وثمانون ألف شخص في متوسط قدره ٥٠٠ في كل كيلو متر مربع ومليون وخمسمائة وخمسون ألفاً في متوسط قدره ألف شخص في كل كيلو متر مربع (١)

إن ازدحام التعمير في وادي النيل تشرحه ظاهرة واحدة وهي أن جميع الشروط الجيوغرافية والاقتصادية والاجتماعية المعينة على نمو النسل تلتقي على هذه الأرض وتلك الشروط هي :

(١) المناخ الحار ونفس طبيعة الوادي المحدد تحديداً واضحاً والذي هو مسطح وواحد وسهل الاستنبات .

(٢) تكدر الزراعات المقوتة التي تغذى في مكانها شعباً عظيم العدد : فالذرة والقمح والأرز والعدس والفول تنبت في جميع البلاد ، وزراعة القطن التي تتطلب عدداً كبيراً وتبته والتي يستطيع دخلها أن يغنى . والرى الدائم الذي يقتضى من جهة مساعدين كثيرين ، ومن جهة أخرى - بسبب زيادة القيمة التي يمنح الأرض إياها - يسمح بالحياة لعدد أكبر .

(٣) ذلك التقسيم الأقصى للأرض إلى قطع صغيرة سواء أكان ذلك في الإيجار أم في الملك ، إذ يصير الاستغلال الصغير سبباً لزيادة السكان . وهذا يتعلق

(١) أرقام المسيو « جودو » في « فلاحو الدلتا التونكيون » . دراسة الجيوغرافيا الانسانية . باريس طبعة الفن والتاريخ . ٦٦٦ صفحة - سنة ١٩٣٦

الأمر بالحصول على معونة في مقابل رخيص ، وهي معونة الأطفال . الفلاح إذا مدفوع بحاجة الأرض ، فالحصول على الأولاد بأسرع ما يمكن هو في رأيه معنى الزواج والأسرة .

هناك حيث تجتمع هذه الأسباب كما في مديرية المنوفية بالدلتا مثلاً ، وهي أقدم الأراضى المزروعة والمروية وأكثرها زراعة للقطن وأشدها توزعاً (قطع من ١٠ إلى ١٥ قيراطاً ^(١)) شاهد متوسطاً قدره : ٧٤٧ شخصاً في كل كيلو متر مربع .

وعندما تكون تلك الأسباب غير متلائمة يخف هذا المتوسط . مثال ذلك في الجنوب في الجهات الواقعة في أعلى وفي أدنى شلالات أسوان حيث الأراضى أقل غنى ولا تزال خاضعة لنظام الفيضان والملكية الكبرى : ففي مديرية أسوان نعد ٣٠٥١٩٥ فقط على ٢٢٤٠٠٠ فدان أى أن المتوسط هو ٢٨٥ في كل كيلو متر مربع ، وكذلك في الشمال في جهة البحيرات حيث الأراضى شديدة الانخفاض والملوحة والرطوبة ، فإن لدينا هناك أضعف المتوسطات الريفية ، إذ يوجد في كفر الدوار على مقربة من الاسكندرية ١٨٥ شخصاً في كل كيلو متر مربع ، غير أن عدم التساوى في التوزيع إذا كان يشرح بوساطة التأثيرات الطبيعية ، فإنه لا يحدد بوساطتها ، إذ أن الاستعداد لسعة السكان في الجهات المتطرفة التي عيناها آنفاً بعيد عن أن يكون قدامتلاً . وهنا ينبغي الالتجاء إلى عامل نفساني من الدرجة الأولى في الأهمية وهو : العادات . ففي عقل الانسان يؤثر الزمان بمقدار ما يؤثر المسكان . وفي الواقع أن الفلاح ذو مزاج مستقر إن لم تقل : إنه ملازم لداره ، فهو يبقى مسعراً في قريته التي هي مسقط رأسه والتي تمثل له اطمئنان الحاضر والماضى . هو على العكس من قروي فلسطين وسوريا لا يهاجر ليحرب حظه ، بل هو لا يذهب لبحث عن عمل في مديرية أخرى

(١) من الملكيات التي عددها ٢٨٣٢٣٢ الموجودة في تلك المديرية يملك ٢١٦٨٦١ أقل من فدان ومتوسطها ٤ ، من الفدان .

تقل فيها الأذرة إلا إذا صودر وأخذ بالقوة . وإذا غادر بلده ، فليس إلى قرية أخرى لا يمكن أن تساوى قريته ، ولا يمكن أن تكون حياته ولا ربحه فيها أحسن ، ولكن إلى المدينة ، وعلى التفضيل إلى القاهرة .

وهكذا تندر الانتقالات ، ولكي يُعمر الملاك أراضي البرارى الجديدة رغم شروط الدفع والسكنى المفيدة التي يعرضونها ، هم يحصلون بصعوبة على الأيدي العاملة الكافية .

رقيق متزاحم مستقر ، كذلك يبدو لنا الشعب المصرى فى خصائصه السائدة . ولقد تسببت هذه الخصائص فى ازدحام وادى النيل بقدر ما تسببت فيه الحاجات وإمكانات الأرض . ومع ذلك فنحن لا نعتقد أن هذا الزحام هو إلى حد أنه يمكن أن يصير خطراً .

إن التربة السهلة تضاعف عدد الزراع ، ولكن الزراع أيضاً يضاعفون حجم الأرض . وإذا غا عدد الاهلين الزراع فان الأرض القابلة للزراعة والمقوتة تنمو ويمكن أن يكون نموها فى الإثمار بقدر ما يكون فى السكينة .

بوساطة تعميم الرى الدائم واتساع استعمال الأسمدة الكيماوية — وذلك رغم إنهاك التربة الناشئ من القطن — قد تضاعف دخل الأرض ، والمسطح الذى يزرع واقعياً فى كل عام يمثل تقريباً من تسعة ملايين فدان .

ومن ناحية أخرى فبين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٣٧ بفضل أعمال المصارف والتحسينات المدخلة على التربة (الأرض البور والبرارى) الواقعة فى طرف الدلتا قد نما المسطح المزروع بمقدار ٧ ٪ / ويوجد اليوم ٥٤٠٠٠٠٠ فدان منتجة ولا يزال ١٧٠٠٠٠٠ فدان بدون استغلال ، إذ أن مجموعة مسطح الأرض المصرية الصالحة للزراعة هى ٧١٠٠٠٠٠ وهذا الهامش يمثل نوعاً من الاحتياطى يؤخذ منه بقدر ما تتطلب

الحاجات وتسمح الوسائل ويستصلح منه ٨٠٠٠ فدان تقريباً في كل عام . وعند ما ينتهى منه سيقى السودان الصالح للاستقبال والقليل التعمير والذي هو يطيل مصر العليا ويشبهها .

ولكن مصر لا تزال بعيدة عن درجة التخمّة ، وهذه التخمّة توجد عند ما نزول المقدرة على الابتلاع أى حينما تصبح كمية الوسائل في بلد من البلاد عاجزة عن تقويت السكان الذين يشغلونه في مستوى حياتهم .

وما دام أن موضوع هذه الدراسة هو الفلاح ، فانه ليس عندنا نية عرض دراسة الشعب المصرى بطريقة تامة ، وإنما سنقتصر على هذه المسألة فحسب ، وهى : هل يوجد زحام فوق الطبيعى في القرى ؟

٧١٠٠٠٠٠ فدان - وهى مجموعة المسطح الصالح للزراعة - تستطيع أن تقوت ١٤٢٠٠٠٠٠٠ فلاح ، ففي الواقع أننا إذا سائرنا نفقة المعيشة في القرية حتى مع فرضنا تحسين مستوى حياة الفلاح فإن دخل نصف فدان يمكن أن يحقق قوته . إن متوسط دخل الفدان هو اثنا عشر جنيهاً . فلنأخذ أسرة ريفية مكونة من ستة أشخاص مثلاً : أب وأم وأربعة أولاد ، فالجميع يستطيعون أن يعيشوا من ثلاثة أفدنة أى من ٣٦ جنيهاً في العام وثلاثة جنيهات في الشهر . وينبغى أن تضاف إلى ذلك الوسائل الصغيرة التي تأتي بها المرأة (كبيع البيض والطيور المرباة في المنزل) بهذا لا تعيش هذه الأسرة في البأساء وتستطيع أن تدخر .

سيتحقق من هذه الحالة عندما سيكون في البلاد ١٤٢٠٠٠٠٠٠ شخص لا يعيشون إلا من العمل في الأرض ، وهذا يقتضي أن يكون سكان مصر عشرين مليوناً لأننا لا نعد هنا المدنيين ولا الريفيين الذين ليسوا زراعاً كالصناع والملاحين والتجار ، فهؤلاء كأولئك لديهم وسائل أخرى للعيش .

ولما كان لا يوجد اليوم اثنا عشر مليوناً من الفلاحين بالمعنى الضيق المراد هنا فانه

يبقى إذاً ، هامش قدره ثلاثة ملايين للحقوق بمستوى التخمّة ولكن ذلك لن يكون قريباً ، لأنه إذا كان النسل القروى قوياً جداً : ٤٤ فى الألف (أى متوسط ثمانية مواليد فى كل أسرة) . وإذا كانت الهجرة جد ضعيفة (١ /) فان وفيات الأطفال — وعلى الأخص بالزهرى الوراثى — تبقى جديرة بالاعتبار ، وهو يبيد أكثر من نصف المواليد . فى سنة ١٩٣٤ مثلاً بدون عد الأطفال الذين يولدون أمواتاً كان الأطفال الذين توفوا قبل العاشرة يمثلون ٦٥ ٪ من الوفيات العامة ، والذين لا يلحقون من بين الأحياء ٢٠ عاماً هم بقدر الذين يتعدونها . وفى المجموعة بين الإحصاء وفيات قدرها : ٦ ، ٢٦ فى الألف ، وفوق ذلك فان الأمراض المتوطنة التى تهجم الشعب القروى وتضعفه تقف متوسط سن الجيل عند الستين ، والرجال الذين يولدون أكثر عدداً من النساء يلحقون الشيخوخة بهيئة أندر منهم .

وأخيراً قل تعدد الزوجات ، فى سنة ١٩٣٤ من بين ٣٠٧٩٤ مسلماً قد تزوجوا ، كان ٣٥٠٠ فقط من ذوى الزوجتين .

من المحقق أنه بتقدم الصحة العامة يمكن أن تنجو حياة كثير من الأنفس ، فإذا واجهنا الأمور فى أحسن صورها ، فإن الشعب القروى يمكن أن يزيد مائتى ألف تقريباً فى كل عام بدلا من ١٦٨٠٠٠ كما حدث فيما بين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٧ وإذ ذاك يصير عدد الفلاحين أربعة عشر مليوناً بعد أربعين سنة .

تلك هى نقطة الاتهام إذا لم يكن المصريون إلى ذلك العهد قد عرفوا كيف يصيرون الأرض أكثر إنتاجاً ، ولكن تلك الأرض ليست عند نهاية استعداداتها ، فكل الناس يعرفون — والتجربة تؤيد ذلك — أن الفدان بقليل من العناية يقل سبعة أراذب من القمح بدل خمسة ، وعشرة من الذرة بدل سبعة .

ولكى نعود إلى الحالة الراهنة نقول : إننا إذا اعتبرنا كل مديرية على حدة ،

نلاحظ أن عدد السكان يتفق في العموم مع عدد الأقدنة حسب النسبة التي حكمنا بأنها ضرورية أي نصف فدان تقريباً لكل شخص ، فمثلاً لكي لا نذكر إلا المديريات الأكثر ازدحاماً في الوجه البحري نقول :

الغربية	١٦٣١٠٠٠	فدان	على	١٩٦٣٦٥٤	شخصاً
الدقهلية	٦٣٣٠٠٠	»	»	١٣١٥٤٤٠	»
الشرقية	٨٥٢٠٠٠	»	»	١١١٩٣٣٦	»
البحيرة	١٠١١٠٠٠	»	»	١٠٦٠٨٨٩	»

ان مديرية المنوفية التي تحدثنا عنها هي وحدها التي يبدو أنها لحقت درجة التخمة ففيها ٣٨٣٠٠٠ فدان على ١١٥٧٤٣٣ شخصاً أي أقل من ثلث فدان لكل فرد . ولهذا بينما كانت المديريات الأخرى فيما بين سنتي ١٩٢٧ - ١٩٣٧ تسجل زيادة قدرها ١٠٪ لم تكن زيادتها هي إلا ٤٪ (في سنة ١٩٢٧ كانت ١١٠٥١٩٧) وبالإيجاز يوجد تضخم في الشعب ، ولكنه محصور ونسبي . والدواء ليس في « المتوسية » (أي تحديد النسل) كما يطلب ذلك بعض الملاحظين السطحيين ، ولكنه في سياسة التقسيم والتوزيع وزيادة الإنتاج . والحكومة وحدها لا تستطيع أن تقوم بالتطبيق الناجع لهذه السياسة . وهناك كما في كل المشكلات الفلاحية التي سنلتقي بها : التريية قبل كل شيء .

لم تكن غاية هذا الفصل هي إعادة الكتابة عن جيوغرافية مصر أو دراسة شعبها ، ففي هذه الحالة كان سيجيء غير كامل ، وكان عدم الخرائط سيكون فيه ثغرة ضخمة ، فنحن قد أردنا - باعتبار الأرض بقدر ما أردنا ذلك باعتبار السكان وبالصلة بين هذين المظهرين - أن نظهر أن مصر هي قبل كل شيء بلد زراعي ، ولن يقتادنا ذلك إلى زراعتها ولكن إلى الرجال الذين يقومون بتلك الزراعة والذين قد تكونوا بوساطتها وهم الفلاحون .

الفصل الثالث

الاطار الاجتماعي

مصر بـ _____ لد أوليجارشى

في الدولة وفي الجماعة - واليوم كأمس - يمثل شعب مصر القروى الجمهور والسكية وكأنه المادة الأولى . إنه يؤلف الدعامة ، وكنا سنقول أسس البنية الحكومية والاجتماعية هذه البنية المزوجة هي التي تهم معرفتها قبل مرافق الفلاح في حياته .

إن واجهة مصر العصرية هي من طراز حديث ومختلط . وهذه الواجهة تشغلها ثلاث مدن وهي : القاهرة والاسكندرية وبور سعيد بنشاطها المتضاعف الساطع .

القاهرة بجامعةيها المحتويتين على عشرين ألف طالب ، وبتاحفها ومعاهدها العلمية ومؤتمراتها الدولية ، ومحاضراتها الشتائية وقصورها . . .

والاسكندرية بمرفئها التجارى العظيم (وبورسها) القطنية وحماماتها الفاخرة ، ومعاهدها الأجنبية وإفريزها . . .

وبور سعيد - وهي طريق الهند - بقناة السويس وكل التجارة التي تنتجها . . .

على هذه اللوحات الثلاث تصطف طوائف اجتماعية متراحة ومتباعدة ، وهي تخفى مصر الأساسية كما تخفى أحجار الفسيفساء الأسمت الرمادى الذى هي ملتصقة به . . . لأنه على نفس النهج الذى كان يقال به سابقاً عدة « روسياوات » و « ألمانياوات » من الحيثية الاجتماعية يمكن أن يقال اليوم « الأمصار » نعم لا توجد هنا جماعة مصرية

بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة فى الأدب أو فى التاريخ ، ولكن يوجد فقط مجتمع متقلب ومتباين لا يكاد يلتئم مع البلاد ، وكذلك لا توجد جماعة قروية وإنما يوجد فقط جمهور ذو طبيعة واحدة مؤلف من قرويين منتسبين الى الأرض ومستقرين فى القرى .

فى كثرة لا تؤلف جسماً تتلامس الجمعيات أو يتكسد بعضها فوق بعض دون اتساق ولا تداخل ، بل دون تعارف .

لا يعرف مدينو القاهرة أو الاسكندرية الريف الا كمنظر يلمح فى الخارج من باب السيارة أو مركبة القطار ، وكذلك الفلاحون المحصورون فى حقولهم وقراهم لا يعرفون المدينة الا عن طريق العمدة أو البقال الإغريقى أو الناظر .

وفى القاهرة نفسها أو الاسكندرية اللتين تجمعان أريستوقراطية مصر لا تختلط الجماعات الا بأطرافها ، وكل فرد يقتاد حياته الخاصة الكافية ، ولكل واحد عقليته ومصره . هذا هو العالم الوطنى ، وهو قبضى أو مسلم ، وبيثة الملاك الأثرياء هى مغارة لبيثة الموظفين ، وطائفة الأزهر الدينية لا تكاد تتصل ببيثة الجامعة الملكية المدنية ، وفى الاستقبالات والحفلات يظل عالم المجتمعين ذكوراً ، والنساء يؤلفن عالمًا آخر ، وهناك أيضاً بيثة القصر ، وبيثة الأمراء المستقلة وهكذا .

وها هى ذى « الجاليات » انها قد تمصرت . هذا هو مظهرها العام ، ولكن كل واحدة منها تحتفظ بسحنها وميوها : السوريون النشطاء الجراء ، واليهود المالىيون المقنطرون ، والانجليز المترفعون أصحاب « تورف كلوب » والفرنسيون والبلجيكي ذو الشركات العظمى : (الغاز ، والمياه ، والبنك العقارى ، والسكر ، وقناة السويس) . والإيطاليون المتخصصون فى العمارة والتجارة ، والإغريق الأكثر عدداً وقرباً من الشعب .

كل هذه البيئات المدنية في جوهرها هي بصفاتها ورؤوس أموالها كأنها الخميرة الاقتصادية والمالية والسياسية لمصر ، ولكنها لا تكاد تكون خميرة اجتماعية ، لأنها لا تمتاز بالمعجبين لترفعه ، وهي لا تجذبه معها في تطوراتها ، وإنما هي - من الخارج وعلى بعد وعن طريق عدد من الوسطاء - تعجبه وتستخلص منه كل ما يمكن استخلاصه .

إن مستودع ثروة مصر هو دخل الأرض عن طريق عمل الفلاح ، ولكن قبل كل شيء ما هو النظام الشرعي للتربة المنتجة ؟ إذ أن التكوين الاجتماعي للبلد الزراعي يرتسم على نظامه العقاري .

إن الأراضي النافعة في مصر - وهي الثلاثون ألف كيلو متر مربع تقريباً التي تمثل ثروة قدرها ٤٣٥ مليون جنيه - تنقسم إلى ممتلكات أميرية (وهي الممتلكات الحكومية الخاصة) وممتلكات الاوقاف (وهي غير قابلة للانتقال) والممتلكات الشخصية .

الدولة والارض

في سنة ١٨١٣ بعد أن صادر محمد علي (١٧٦٩ - ١٨٤٩) مؤسس مصر الحديثة ثروة المالك قسم الأراضي التي كانوا يملكونها الى مناطق ثم وزعها على القرويين ، وهكذا نال كل زارع من ثلاثة إلى خمسة أفدنة بعنوان مستثمر . وقد ظل الى سنة ١٨٤٠ تحت نظام الاحتكار ، فكان يجب عليه أن يسلم إلى مستودعات الحكومة كل قطنة في مقابل ثمن رسمي أدنى من الثمن الحقيقي . أما الغلال التي يستطيع بيعها بعيداً ، فقد كان يدفع عنها حقوقاً تبلغ ثمانية عشر قرشاً عن كل إردب بمقتضى المبدأ الإسلامي كان الحاكم الأعلى - وهو في الماضي السلطان أمير المؤمنين ، والآن واليه المتحرر - يبقى مالكا لجميع الأراضي المفتوحة باسم الله ، ومع ذلك فالأراضي التي تنازل عنها السلاطين السابقون للأفراد والتي كانت تمنح لرؤساء الضرائب والثروات المتقلة الى الأوقاف كانت تظل خارج ممتلكاته ، وفوق ذلك فإن أراضي واسعة وغير منزوعة

قد أقيمت عن سجل المساحة فبقيت غير خاضعة للضرائب (الى سنة ١٨٥٨) ثم عزيت ملكيتها الى الأعيان وكبار الموظفين وأعضاء الأسرة الحاكمة القادرين على جعلها مخصصة ، وهذا هو منشأ الملكية الكبرى .

أما الملكية الصغرى فقد تكونت صادرة عن تقسيم الاراضى . وفى سنة ١٨٤٦ قد أذن للفلاح المستثمر فى أن يتنازل عن نصيبه بطريقة شرعية مع احتفاظه بحقه فى الاسترداد بدون إمكان سقوط الحق ، وكذلك إذا خرج من الملكية بسبب تأخر الضرائب فانه بمجرد استطاعته دفعها يعود الى ملكية حقله . وبعد ذلك بقليل أصبح أولاد المستثمرين يستطيعون الاستمتاع بنفس حقول آبائهم ، ولم يكن هذا عن طريق الإرث ، وإنما هو منحة من الحكومة . وفى ١٨٧١ عرض اسماعيل باشا المهرق بالديون على المستثمرين أن يمتلك كل من يستطيع منهم دفع ضريبة ستة أعوام مقدماً نصيبه امتلاكاً كاملاً ، ولكن هذا القانون لم يفرز إلا بنصف نجاح ، وقد ألغى فى سنة ١٨٨٠ غير أن مبدأ ملكية الفلاح قد صار حقاً مكتسباً وقد اعتمدته الحكومة ببيعها فى كل عام لصغار الملاك قطعاً من ممتلكاتها .

ومع ذلك فقد ظلت نسبة الضرائب وطريقة دفعها خاضعتين للأهواء الشخصية وكانت سبباً فى نشوء عسف فظيع ، وقد اكتشفت « اللجنة العليا لتحقيق الضريبة العقارية » (١٨٧٨ - ١٨٨٠) ذلك فى جميع المديرىات وبأعظم النسب فصارت المساواة فى توزيع الضرائب شيئاً يقتضى سرعة البت ولكن لا بد قبل ذلك من وضع سجل جديد بطريقة علمية اذ كان محمد على فى تقسيماته قضائياً أكثر من المؤلف .

وفى سنة ١٨٩٣ شرعت مصلحة المساحة التى كانت قد أسندت الى مهندسين من الانجليز فى ذلك العمل الضخم وهو تجزى الارض ، فبعد أن استبعدت مقادير الطرق والقنوات والحدود الطبيعية قسمت أراضى كل قرية (زمامها) وهو ٢٠٠٠ فدان تقريباً الى أجزاء (أحواض) كل منها من خمسين الى مائة فدان متحدة

القيمة والخصائص بنسبة ٩٥ ٪ على الأقل ، وهذه الاحواض محددة بقطع من الحديد ورسم المساحة لكل قرية - وهو المعد على أساس $\frac{1}{٣٥٠٠٠}$ لجميع الاراضي الزراعية

ثم تقدم فصار $\frac{1}{٣٥٠٠}$ - يعين كل حوض برقمه السائر طبق النظام والتقدير . أما مقر السكنى فهو مرسوم فى صورته العامة ومعنى من الضريبة ، وسجل المساحة مضافاً إلى هذا الرسم يعين لكل قطعة من الحوض مكانها ومساحتها بالفدان والقيراط والضريبة النهائية واسم المالك (١)

تم هذا العمل فى سنة ١٩٠٧ ولكن الحكومة كان لديها منذ سنة ١٨٩٩ من العناصر ما يمكنها من تحديد النسبة العامة للضريبة وقد حددتها بنسبة ٦٤ ، ٦٥ ٪ من قيمة متوسط تجاره ، وهذه القائمة المحددة مشروعة لمدة ثلاثين سنة.

هذا المتوسط المؤسس على مقتضى تقدير لجان من الوطنيين يراعى طبيعة التربة وما تحتوى من ملح ورمل وماء ، ومسافتها من النيل ، ولكنه يراعى أكثر من ذلك ظواهر الجيوغرافيا الانسانية كسهولة الرى وصعوبته وكانتاج القطن وقرب الارض من المدينة أو القرية وقدم الاستغلال ونوع اليد العاملة والمواصلات والأمن وقانون العرض والطلب ... وبالأجمال : هو يراعى نفس الاسباب التى تؤرجح ثمن الفدان بين ٤٠ جنياً و ١٨٠ وهكذا توجد اثنتان وعشرون درجة من القيم يمتاز بعضها عن بعض وإذا كانت الضريبة تتأسس على نفس النسبة ، فإنها تتراوح بين ١٤ قرشاً و ١٦٤ قرشاً . وفى سنة ١٩٣٩ حدد القانون رقم ١١٣ الضريبة الجديدة بنسبة ١٦ ٪ من قيمة إيجار الأراضى ، وذلك حسب التقدير الذى أجرته فى جميع البلاد لجان خاصة على متوسطات إيجارات الاعوام العشرة السابقة ، ومع ذلك فإن رقم الضريبة كما كان قبل لا يمكن أن يتعدى ١٦٤ قرشاً للفدان .

(١) "the Cadastral Survey of Egypt" سجل المساحة المصرية ، ١٨٩١ - ١٩٠٧ تأليف ك . ا . ب . ه . ج . ليونس ، وزارة المالية القاهرة سنة ١٩٠٨ ٥٠٠ صفحة .

ذلك بدون إضرار بضرية النخل - الى سنة ١٩٢٠ - وهي قرشان ونصف على كل نخلة ، ويجرى التعداد فى كل خمس سنين ، ولا بحق الرى ، وهى خمسون قرشاً عن كل فدان فى الأراضى التى يمكن أن يحدث الرى الصينى فيها بوساطة الجريان الطبيعى (free flow) وثلاثون قرشاً فى الأراضى المحتاجة إلى آلات رافعة (lift flow) وقد تنبه الى إقصاء الضرائب فى حالات حقوق أضرار بالزراعة بوساطة نقص الماء على أن تكون بحيث يتطلب ريعها تكاليف ضخمة ، والذي يدفع الضريبة هو المالك وحده .

وكما أن رقم الضريبة محدد ، كذلك يوم الدفع محدد من قبل ، وهو يختلف فى كل مديرية حسب تواريخ الغلات الأساسية فيها ، وتجرى الدفعات بصورة تحقق سداد كل ما يجب على الأربعة والعشرين قيراطاً فى آخر العام . وفى القليوبية مثلاً فى يناير ٢ وفى مارس ٣ وأبريل ٣ وفى أكتوبر ٨ ونوفمبر ٨ ، وفى أسوان فى سبتمبر ١٢ وفى أكتوبر ١٢ وهكذا تجرى الدفعات الضخمة كما يرى على الأخص فيما بين سبتمبر ونوفمبر أى فى موسم غلة القطن .

تدفع الضريبة فى القرية عن طريق الصراف ، والإخطار (الورد) الموقع عليه يستعمل كخالصة . وإذا لم تحدث الدفعات - وهوشى ، مألوف - فإن الحكومة تتقاضى حقها بوساطة الحجز الإدارى والبيع الجبرى . فمثلاً فى عدد يناير من سنة ١٩٣٧ من الجريدة الرسمية قد أحصينا ٧٣٢ نزع ملكية ، وكلها تقريباً ملكيات صغيرة ، وهى دائماً معلنة فى صيغة واحدة ، وهى « فى ١٩ يناير ثلاثة قرارات يملكها إمام إمام إبراهيم المقيم بقرية كفر منصور مركز طوخ بحوض مدور رقم ٤ قطعة رقم ١٩ ومحجوز عليها بمقتضى صورة دعوى ٢ مارس سنة ١٩٣٦ وذلك لسداد الأقساط ، والتمن المحدد هو تسعة جنيهات وستون قرشاً للقيمة المحجوز عليها »

إن الحكومة أكثر صبراً مع كبار الملاك ، وقد اعترف لنا أحد الصيارفة بأن

هذا ظلم ، ولكن قد يكون الظلم في التطبيق لا في نفس النسبة التي هي - فيما عدا أوقات الازمات - ليس مبالغاً فيها ، إذ هي تقتضي فقط ممولا لا يكون ادخاره في حالة سيئة ودخلا بدون تقلب محسوس .

وإذا ، فإذا أضفنا إلى الضريبة العقارية (وهي خمسة ملايين ونصف) الضرائب المستحقة على بيع القطن ودخل الممتلكات الخاصة للحكومة فإن الارض تدر عليها نحو عشرة ملايين من الجنيئات في العام أى ما يقرب من ربع إيرادات الميزانية ، ذلك لان الحكومة هي أول مالك في مصر ، إذ أنها - زيادة على الاراضى المرصودة في سجل محمد على والتي لم يشترها القرويون - قد امتلكت في سنة ١٨٧٨ ثروات الاسرة الخديوية في مقابل دفع جزء من ديون إسماعيل الجسيمة ثم غت ممتلكاتها بإصلاح مساحات جديدة في جهة البحيرات وعند حدود الصحراء . وهكذا لا تزال الحكومة تملك خمس المسطح الزراعى الذى هو سبعة ملايين فدان أى تملك بالضبط ١٤٧٠٣٠٥ وهى تستغل منها مباشرة ٤١٨٧٧٨ منشرة على الاخص في مصر السفلى تلك الممتلكات الضخمة المعفاة من الضريبة منها قسم مرهون (لضمان الدين العام) وقسم غير منتج . ومع ذلك ففي كل عام تصلح الحكومة حوالى ٨٠٠٠ فدان من تلك الاراضى الشديدة الجفاف أو الشديدة الرطوبة وتبيع القسم الأكبر منها للأفراد . صغار الزراع . تشغل ممتلكات الحكومة وتقوت نحو مليونين من الفلاحين الأجراء والمستأجرين وهناك كثرة لا تكاد تقل عن ١٠٠٠٠٠٠٠ نسمة تعمل فى أراض لن تستطيع امتلاكها أبداً .

الاراضى الموقوفة

منذ الفتح الاسلامى ولغاية من غايات التقوى ، ولكن أيضا لوضع الثروات فى مأمن من مصادرة الامراء أو من إسراف الورثة قد حول كثير من الملاك كل

أراضيهم أو قسماً منها إلى الوقف أى أنهم بوساطة نوع من التخصيص الدينى أو الهبة للإله قد صيروها شرعاً وأبدأ غير قابلة للانتقال، ولكن دخلها معد للمساجد والمدارس والمقابر والملاجئ . . . وهو الوقف الخيرى ، أو عائد الى المنحدرين من المالك الى انطفاء الاسرة . وإذا ذاك يرد هذا الدخل الى الاعمال الخيرية ، وهذا هو الوقف الاهلى

ولما كان الإله وحده هو المالك فإن المنتفعين بالاراضى الموقوفة لا يستطيعون أن ينالوا منها إلا الزرع ، واسكنهم لا يتصرفون فيها ألبته . وقد تبع المسيحيون الشرقيون هذا النوع من الايداع ، واليوم أكثر من ٦٠٠٠٠١٠ فدان أى سدس الاراضى المنزرعة تقريباً توجد على هذا النحو خارج الاعمال التجارية .

هناك وزارة - وهى وزارة الاوقاف - تسهر على استغلال الموقوفات القديمة للمسلمين وعلى تحقيق مقاصد الموصين والواهبين ، غير أنه من الواضح أن هذه الممتلكات المحبوسة التى ليس لها مالك إنسانى هي أقل الممتلكات إنتاجاً ، ومع ذلك فهذا السبب نفسه وبسبب قلة الحماية لدى النظار والوسطاء الذين يتقاضون أجورهم ببجوحة على الدخل أيا كان ، يعيش الفلاحون على أرض الوقف بدون كثير عنا.

الملكية الخاصة

يروق الثشرات الحكومية أن تعلن أن مصر بلد الملاك الصغار ، وهى تستشهد على هذا بالإحصاءات الرسمية . وفى الواقع يوجد مليون ونصف من الفلاحين يملك كل واحد منهم حوالى ثلث فدان ، ونصف مليون من الفلاحين الآخرين يملك الواحد منهم من فدان الى خمسة ونحو ١٥٠٠٠٠ يملك الواحد منهم من خمسة الى عشرين فداناً ، ولكن هؤلاء الملاك الصغار جميعاً لا يستحوذون على أكثر من نصف الاراضى المنزرعة . وفى أربعين سنة ازداد المسطح الذى يملكه صغار الملاك ٨٠٠٠٥٠ فداناً

أى ٨٣ ٪ على حين أن عدد صغار الملاك قد زاد الى ٣٥٥ ٪ (١) لانه اذا كان هناك من ناحية ٢٢٨٤٥١٣ شخصاً يملكون أقل من مليونى فدان ، فانه من ناحية اخرى يوجد أكثر من مليونى فدان يملكها فقط ١٢٥٥٩ مالكا . وبين هؤلاء الاخيرين ثلاثة وعشرون مصرياً وخمسة وعشرون أجنبياً يملكون وحدهم حوالى ٣٠٠٠٠٠ فدان . وأول هؤلاء الملاك الكبراء هو المغفور له الملك فؤاد الاول الذى كان يملك ثمانمائة فدان عند صعوده على العرش سنة (١٩١٧) ثم ترك عند موته سنة (١٩٣٦) بفضل إدارة ماهرة ٢٨٠٠٠ فدان ، وهذا بدون اعتبار دخل ال ٤٥٠٠٠ فدان وهى الاراضى الموقوفة الموكولة الى رعايته . ومجموعة ممتلكات الشركات المجهولة الاسماء تبلغ ١٥٠٠٠٠ فدان . وهذا هو السر فى أن مصر قد ظلت بلد كبار الملاك .

توجد الملكية الكبرى على الأخص فى مصر العليا وفى الجهات التى أصلحت حديثاً من الدلتا ، وهى لا تبقى دائماً فى الأيدى ذاتها بل إن بعض الملكيات قد غيرت سادتها ست مرات فى عشرين سنة دون أن تتبدل إدارتها من أجل ذلك .

كما تفعل شركات : (السكر ، وكموم امبو ، والبحيرة . . .) والمصارف : (كالبنك العقارى ، ولند بنك وغيرها) ومصالح الأوقاف والأمالك الأميرية ، كذلك يستغل كبار الملاك أراضهم بواسطة دوائرهم ونظارهم .

الدائرة هى مكتب الإدارة والحساب ، ومقرها المدينة ، وهى تنجز الطلبات والمشتريات وتم القروض والبيوع وتدفع الضرائب . . .

(١) ان نتيجة هذا التفاوت هى ان المسطح الذى يملكه كل واحد منهم ينقص باطراد : ففي سنة ١٨٩٧ كان متوسط ملك كل واحد من ملاك ما دون الخمسة أفدنة فداناً ونصفاً (١٠٥٨ ف بالاضبط) واليوم ليس المسطح المملوك إلا ٨٢ : من الفدان لكل فرد وذلك ضئيل .

والناظر هو في الحقول ممثل المالك ونائبه المنفذ وهو الآلة العاملة في الاستغلال .
ولما كان مفرطاً في الخضوع للمالك بقدر ما هو معدوم الشفقة بإزاء الفلاحين ، فإن مهنته
تنحصر في الضغط بكل الوسائل على الآلة الزراعية - وهي الفلاحون - لكي يزيد
في دخلها . « إنه كالمنشار طالع يا كل ، نازل يا كل » (مثل فلاحى) هو الذى ينظم
الحرث والتسميد والبذر والضم بمقتضى وسائل تجريبية جامدة ، ومع ذلك فالملاك
يفضلون خدماته وتجاربه على معاونة المهندسين الزراعيين الذين لم يستحوزوا بعد في
الحياة القروية المصرية على الدور الذى أعدوا له .

أما أملاك الحكومة والملك والأمرأ كما في المستغلات الكبرى فإن الإدارة فيها
أكثر تعقداً إذ أفرعها المختلفة تؤلف من تقاتيش تقام لها مقرات في العزب ، لأن
العزبة مرتبطة بالملكية الكبرى ، وهى مقر المساكن المعدة لعمال الضيعة والمنفصلة عن
القرية أو هى مباني الدسكرة التى يملكها رب الضيعة . ولم يرجع هذا النوع إلى قرن
مضى وإنما هو قد نظم في سنة ١٩١٣ وجدد في سنة ١٩٣٣ .

« لا يمكن أن تبنى اية عزبة فى ضيعة بدون إذن مجلس المديرية الذى يجب
أن يراعى مساحة أراضي مقدم الطلب ومسافاتها من القرية وعدد الزارعين المراد
إسكانهم » لأن القانون الذى لا يسمح « بأية حالة ولائى شخص كان بأن يبنى
مساكن فى الاراضى الزراعية الكائنة خارج (دائرة الناحية) » لا يزال قائماً .

يوجد اليوم أكثر من خمسة عشر ألف عزبة ، وأهمية كل واحدة منها وتعميرها

وهكذا يكون نمو الملكية القروية فى مصر قد عنى فقط الملكية الصغيرة التى زادت
فى العدد ولكنها نقصت فى متوسط المسطح على حين أن الملاكيتين : الكبرى والوسطى
قد ظلتا بدون تغير تقريباً واستمرت مستحوزتين على مسطحات واسعة (ج . انبورى ،
المظاهر الكبرى للاقتصاد الزراعى فى مصر . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٤١

يرتبطان باتساع ضيعتها ، وعدة من هذه العزب قد صارت قرى حقيقية ، ولكن أكثرها من الناحية الادارية يتعلق بالقرى التى انفصلت منها .

وهنا كل أدوات الاستغلال والآلات القديمة والحديثة أى الساقية أو المضخة المازوتية والنورج والدراسة الميكانيكية والمستودعات وفى أغلب الأحوال المواشى ، كل ذلك يملكه رب العزبة . وإذا كان هذا المالك يشتغل بالزراعة المباشرة كان الفلاحون أجراء بالمياومة وإلا فهم شركاء أو مستأجرون ، وفى إحدى الحالات أو فى الأخرى هم ينتسبون بنوع ما الى الأرض وهم يظلون فيها رغم تبدل الملاك إلا لسبب قاهر كالطرد الجبرى .

فى الواقع عند ما يرهن المالك أرضه - وتقدر الأراضى المثقلة على هذا النحو بليون من الأفدنة - ولا يدفع فوائد دينه يحدث أن يحجز المصرف الدائن على الملك . وفى سنة ١٩٣٥ نزع ملكية خمسين ألف فدان بسبب الديون ، وفى هذه الأحوال يحجز فى الوقت ذاته على حصص الفلاحين غالباً ، إذ منذ الذى سيميزها ؟ وأحياناً يكونون قد دفعوا بالفعل ما كان يجب عليهم للبك أو للباشا ، وهم ليسوا مسئولين عن ديونه ، ولكن ما أهمية هذا فى نظر الدائنين ؟ إنهم يحجزون على الثروة المرهونة ...

كان أحد المصارف الكبرى قد انتزع عزبة يملكها أحد أعيان بلدة شبرا ريس مركز كفر الزيات وكانت هذه العزبة تحتوى على عدة قطع من الارض مجزأة ، وكان عدد كبير من القرويين يقطنها منذ أكثر من عشرين سنة ، وحينما وصل مندوب المصرف ليقوم بإجراءات نزع الملكية عارض السكان ، وكان لابد للشرطة من التدخل وقد انتقل معاون المركز على رأس قوة مسلحة إلى موضع الحادث ، ولكن الاهلين هاجموه فلما رأى ان الحالة ستصير أكثر سوءاً ألغى نفسه مضطراً إلى إطلاق عدة طلقات نارية فى الهواء ، ليرهب الفلاحين ، غير أن نتيجة هذه المناورة كانت إثارتهم

فشرعوا في قطع الاسلاك التليفونية وإحراق سيارة المندوب ولم تلبث قوة أخرى أن وصلت للنجدة ، ولكنها كانت في عدم الكفاية شبيهة بالاولى فأتى المدير الى مكان الحادث على رأس قوة ثالثة ولم يستقر النظام إلا حين أطلق عدد آخر من الطلقات في الهواء وقد جرح سبعة من رجال الشرطة ، لان السكان قد رشقوهم بالحجارة ، وقبض على عدد من القرويين وكلف أحد وكلاء النيابة بإجراء تحقيق (١)

هذه هي قصة عادية وفي مثل هذه الحالة دائما تقريباً يكون المالك غائباً .

إن المالك العقارى الكبير ، ولو كان من أرومة فلاحية - والارض في أكبر أجزائها ومن كثير الى أكثر مملوكة للمصريين - لا يعنى بعزبته إلا من حيث هي منتجة دخل . إن مثله كمثل رؤساء الأديرة السابقين لا يذهب اليها إلا قليلاً ولا يقيم فيها الا نادراً . أما عماله فهو لا يعرفهم الا عن طريق المال الذى يضعه ناظره بين يديه ، وهو لا يدري عن أسرهم أى شئ . انه يحجل حياتهم كأناسى وحاجاتهم الاجتماعية . المالك الكبير متأغرب يعيش في القاهرة والاسكندرية ويمضى الصيف في أوروبا ، والكل يعرف كم هو ينفق ثروة مصر . إنه يبذر في مساء واحد ما يقوت فلاحيه مدة سنه ، وهو يرى بأساءهم ورفهنيته أمرين طبيعيين .

ليس بينه وبين رجاله أية جامعة ولا أى ماضى يجتذبه أو يستبقيه في قرية كهذه .

لا يوجد أشرف (٢) عقاريون في مصر الحاضرة ، ولكن توجد فقط أريستوقراطية المال ، والمال يفضل المدينة .

(١) ٢٣ أبريل سنة ١٩٣٦

(٢) لعل المؤلف في هذا الحكم قد نظر الى المدن ، إذ أن في القرى كثيراً من الاسر العريقة في شرف المتمدن والتي يصعد تاريخ مجدها على سلم الماضى عدة مئات من السنين . « المترجم »

حدثنا شاهد عيان أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول في إحدى زياراته للأقاليم قد وقف ليستمع الأغاني وليرى الرقصات التي ارتجلها له الفلاحون على الطريق ، فدهش أحد الوزراء المتملقين من هذا الانتباه وقال :

« - مولاي أتضيع دقيقتين هكذا أى كرم !... »

فأجاب الملك :

- لولا هؤلاء الفلاحون يا صاحب المعالي لما كان دخلك خمسة آلاف جنيه ، ولما كنت وزيراً ولا باشا .

إن احتقار الفلاح ناشب في عقول « المتمدنين » إلى حد أن هذه الكلمة وحدها قد صارت أشد الشتائم إهانة : « يافلاح » أى يابدوى ياخشن ، وأراداً من ذلك أيضاً .

لقد لاحظنا في أغلب الأحياء لدى أولئك الأثرياء بإزاء الفلاحين عدم الاكتراث . إنهم « أشياء » لا يليق الاعتناء بها ، ومن الممتاز عدم معرفتها أصلاً . ولقد وجدنا لديهم تجاه المسائل الأشد بساطة جهلاً يدل تماماً على أن المسألة بالنسبة إليهم لم تطرح ألبتة ولا تقتضى أية رغبة في الاطلاع . وهناك آخرون وهم خير من الأولين يتأسفون على جمود الفلاحين وغبائهم ، ولكن بدون أن يعملوا لتحسينهم شيئاً يمكن أن ينقص من دخلهم وكل ذلك يحتفظ ببقاء الطرفين المتعارضين .

ومع ذلك فهناك طبقة قروية من ذوى الثراء ، وهى طبقة الملكية الوسطى ، وهى - كطبقة الملكية الصغرى - مرتبطة بالقرية ، وهى مiale الى الربح ، محافظة ، بسيطة ، تعيش فى الريف وتراقب عن قرب دخل أفدنتها ، وفى الأعياد والمآتم هى تجود على الفقراء فى سعة ، والتلاميذ الذين يختلفون الى المدارس الابتدائية والثانوية فى عواصم

المديريات وطلاب المعاهد الدينية التابعة للأزهر ، والموظفون والضباط ، كل أولئك وهؤلاء ينتسبون إلى هذه الطبقة ، ومنها خرج عظماء رجال مصر العصرية : كالشيخ عبده ، وزغلول باشا ، والنحاس باشا ، وطه حسين . . . غير أن عدد هذه الأشر المحافضة قد أخذ يقل شيئاً فشيئاً .

أولاً بسبب زيادة الثراء والمطامع . وعلى هذا سيتساق الجيل الآتى إلى الدرجة العليا ويستقر فى القاهرة أو فى الاسكندرية . ولقد أثارت بحبوحة سننى ١٩١٩ - ١٩٢٠ على الأخص هذه الهجرة ، وكذلك تربية الاطفال على الطريقة الغربية وتذوق أوروبا الذى جلب التفرز من الحياة القروية .

وهكذا اتسعت القاهرة والاسكندرية وجهلتا بهيئة قينة بالاعتبار منذ خمسة عشر عاماً . وكل سنة تسجل وارداً جديداً من أهل الأقاليم آتياً من عواصم المراكز ومن بلاد جميع المديريات وهم يحضرون معهم المال فتتضاعف البنايات الكبرى و« الفلل » وتنهأ متاجر الرفنية . . .

ثانياً بسبب تجزئ التركات ، إذ ينال كل واحد من الأبناء نصيباً ، ومن البنات نصف نصيب بمقتضى قانون الإسلام المطبق على الجميع . وهكذا ليس من النادر أن يصبح حفيد مالك ذى اربعين فداناً ولم يعد لديه من نصيب إلا فدان واحد ، واذا ذاك يهوى إلى صف الفلاحين .

ليس بوساطة تجزئ التركات دائماً تتألف الملكيات الصغيرة ، ولكن بوساطة شراء قطع صغيرة بقدر الإمكان ، اذ الفلاح يشتهى الارض إلى حد أنه يشتريها فى أغلب الاحوال بضمن باهظ ، ولعل ذلك أيضاً ناشئ من أنه يشتريها مجزأة أى بالقيراط ولما كانت مؤجراته لا تكفى فهو لى يملك يستدين .

ذلك لانه بسبب الطلب تباع الحصص للاكثر عرضاً للعال والمزايدين فى حالة البيع الجبرى ، وقد يحدث ما يلى : تعرض عشرة أفدنة للبيع بثمن قدره أربعائة جنيه مثلاً فيتفق نحو اثنى عشر فلاحاً على شرائها بدون رفع ثمنها وتقسيمها فيما بينهم ، ولكن أحد أثرياء الملاك من جيرانهم يسمع بالقصة فيحضر ويجلس بحالة ظاهرة فى المقهى قبل اعلان المزايدة ببيع ساعات ويؤكد لكل من يريد سماعه أنه سيشتري هذه الحصة بأى ثمن كان . وهنا يأتى الفلاحون الذين سيحرمون ويتوسلون اليه أن ينسحب ويعرضون عليه مبلغاً كتعويض فيدعهم يرجونه ويساومهم ثم يستولى منهم على كل ما يستطيع أن يناله ويفادر القرية مسروراً من ضربته التى سيعدها فى فرصة أخرى والفلاحون أيضاً بإعطائهم اياه عشرة جنيهات يظنون أنهم أحسنوا صنعا ..

الحكومة

تضع الحكومة نفسها فوق رأس المال والعمل والطبقة القروية بوساطة الأرض ، وأكثـر من ذلك بوساطة الماء . إنها سيدة الرى وهى لهذا فى نظر الفلاح تتولى أهمية النيل ومقدرته . وبقدر ما تنظم الحكومة النهر تتعلق بها الأرض ، وبالتالى زارعها . ولما كانت مصر بلداً زراعياً فإن جميع أفرع السلطة فيها تقريباً تنتهى أخيراً بإصدار أوامر إلى الفلاح .

بينما تكل الحكومة فى الصناعة وفى المدينة بكل امتنان مصالح عامة إلى جهات خاصة فإنها فى الزراعة على العكس حتى أن الوظائف التى يحققها فى البلاد الأخرى أفراد ، هى تقوم بها إلى حد أنها فى نظر الشعب القروى هى الممثلة للعناية السماوية التى تنظم كل شىء وترتب كل شىء . أما الفلاح فى نظر الحكومة فهو يظل دائماً القاصر الذى ينبغى أن تأمره بكل شىء والعاجز الذى ينبغى أن تنوب عنه . . .

وهكذا تدير وزارة الأشغال العمومية رى جميع الزراعة وتعد لكل منطقة نظام أدوارها وتراقب الجسور والقنوات وتستولى على الفلاحين الضروريين عند ما يكون النيل مشرفاً على الفيضان . . . ووزارة الزراعة تنظم الأراضى التى ستزرع قطعاً والمسطحات التى ستزرع أرزاً ، وهى وحدها التى تباع بذرة القطن والتى تتحقق من حسن اختيار الحبوب ، وهى التى بالاستيلاء على الرجال تنظم المقاومة ضد دودة القطن والجراد ، ووزارة المالية تسلم الضريبة عن طريق الصيارفة المنتشرين فى جميع البلاد وتنفذ الحجز وتشتري القطن لتوجد التوازن فى السوق الداخلة ، وبوساطة مؤسسة (بنك) التسليف الزراعى هى تجتهد فى أن تنظم اقتصاد الفلاح . ووزارتنا المعارف والصحة العموميتان ترغمان القرويين على النهوض عقلياً وبدنياً . ووزارة العدل عن طريق محاكم المراكز وبعد تأجيلات لا تنتهى تدينهم أو تبرئهم . ووزارة الدفاع تسكفل بتجنيد الجنود أو تسلم الفدية العسكرية (البذل) . ووزارة الداخلية تؤيد كل هذه الأوامر التى تتبع الفلاح فى المصلحة العامة وهى تحقق الأمن بالنظام .

لا يرجع تاريخ الحكومة على صورتها الحالية إلى مائة عام فقد أقامها المغفور له محمد على على نفس النحو الذى تسير عليه اليوم تقريباً . انه لم يخلق هذه الماكينة التى تنتهى فوق الفلاح ، ولكنه أعاد تنظيمها وترتيبها بعد حكم اهواء الاتراك والمماليك وتدميراتهم وهكذا وضع مؤسس الاسرة المالكة فوق الفلاح نظام طبقات للشرعية والعدالة يسمح له بان يعيش ان لم يسمح له بأن يظهر .

لننظر من هذه الوجهة السلسلة الحكومية ولنعتبر كل حاكم بالنسبة الى المحكوم الذى يعيننا .

الملك فوق القمة .

ان الملكين الأخيرين - لكى لا تتكلم الا عنهما - كانا يشتهيان باخلاص خير

بالمحافظات وهي : القاهرة ، والاسكندرية وبور سعيد ، والسويس ، والقنال ، وأربع مناطق على الحدود ، وهي : مركز البحر الأحمر ، وسينا ، والصحراء الغربية التي تشمل واحات : سيوة والبحرية والفرافرة ، والصحراء الجنوبية ، وتشمل واحتي الداخلة والخارجة . وأخيراً وعلى الأخص أربعة عشر إقليماً زراعياً تدعى بالمديريات : البحيرة ، والغربية ، والدقهلية ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، وهي تتفتح في الدلتا على هيئة مروحة ، وكل واحدة منها مأهولة بعدد من الأنفس يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٩٠٠٠٠٠ . وهذه المديريات الست المعينة على هذا النحو منذ عهد العرب هي الأشد عمراً والأفضل رياً . وفي مصر العليا تتبع المديريات الثماني الجنوبية على طول النيل مصطفة كحُرَزَات المسبحة ، ومعينة بأسماء المدن التي هي عواصمها (البنادر) وهي : الجيزة ، وبنى سويف ، والغيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا ، وأسوان . وعلى رأس إدارة كل مديرية يوجد موظف كبير يحمل عنوان مدير هو تابع لوزارة الداخلية ، وينقل من مكانه غالباً ، ويقرب من القاهرة أو يصير وزيراً إذا كان مميزاً ، وهو بالعكس يطاح به نحو الجنوب إذا فقد الحظوة .

يقيم المدير في المدينة التي تختلف أهميتها . كثرة وقلة وإن كانت ليست شديدة المرح والتي هي له كعاصمة يمثل فيها السلطة المركزية .

ولما كان أكثر الثقات نحو الأكبر منه نحو الأصغر ، فهو لا يعرف الفلاحين بطريقة مباشرة ، على أنهم هم لو أرادوا الوصول إليه لما استطاعوا . إنهم يسمعون التحدث عنه ، ويؤدون الحق الواجب له ، ويلمحونه حين يحدث أن يزور قريتهم . هم يحكمون أنه من مولد سام ويجلونه كإله ، وهو في نظرهم يمثل الرئيس المطلق .

وفي خارج عاصمة المديرية يباشر المدير سلطته العليا بوساطة المأمورين ، وكل مديرية تنقسم إلى عدة مراكز من ثلاثة إلى سبعة ما عدا الغربية الأشد ازدحاماً فإن فيها اثني عشر مركزاً .

يتصرف المأمور في قوة من البوليس موزعة في الثلاث أو الأربع قرى الأساسية من مركزه ، وهو العامل التنفيذي وسلطاته واسعة جداً ، ولكن الفلاح يعتقد انها غير محدودة ، وبسبب ذلك هو يهرب كثيراً من هو قابض عليها .

إن ملك الفلاح هو المأمور ، ولم لا ؟ أفلا يروى حادث ذلك الفلاح الذي تمنى بحسن نية للخديوي عباس قائلاً : « الله يحفظك ويجمعك مأموراً عندنا » ؟
غير أن المأمور نفسه لا يعرف الفلاحين وشواغلهم وأسهمهم إلا عن طريق العمدة ، وما يعرفه الفلاح - وهو المواطن الناخب - من السياسة والإدارة لا يعرفه إلا عن طريق العمدة الذي يتلخص فيه القانون .

يحكم العمدة في كل واحدة من الـ ٤٠٠٠ قرية المصرية ، وهو يعين من بين أعيان القرية التي يحكمها ويملك غالباً جزءاً منها . على أنه لا يستطيع تقديم ترشيحه إذا لم يكن مالك عشرة أفدنة على الأقل (قانون سنة ١٨٩٥) وتسبق تعيينه مباريات تتحول الى منازعات تتبعها أحقاد تتمادى إلى القتل .

على أن العمدة في وظيفته يعرف جيداً كيف يدافع عن نفسه ، بل كيف ينتقم لنفسه ، لأنه هو الوحيد الذي يقدم المعلومات الى المأمور ، وهو السيد الفرد لعشرين أو خمسة وعشرين خفيراً (حراس القرى ليلاً) . في الواقع إن وظيفته الجوهرية تنحصر في تحقيق الأمن في القرية وفي الحقول التابعة لها أكثر منها في السهر على الجمال والصحة اللذين ليس ما لديه من الانشغال بهما أعظم مما لدى مروضيه .

إنه يمثل (ناحيته) لدى المأمور ويسأل عن الجنايات - المبلغ عنها - التي ترتكب ويساعد الصراف في تسلم الضرائب ويحقق الاستيلاء على الرجال للمهمات ، ولديه مكتب بريد وتليفون ، وهو يراقب حمل السلاح والحالة الصحية للأناسي والحيوانات ويقيد المواليد والوفيات .

لاتدفع الحكومة اليه أجراً ولكنه - فوق الأثر الفخم المكافي المرتبط بوظائفه - يستمتع بامتيازات عديدة مثل المعافاة من ضريبة خمسة أفدنة ، ومن السخرة والخدمة العسكرية هو وأولاده . وعملياً إن لم يكن ذلك حقاً من الحقوق تعد هذه الوظيفة ميزة الأسرة .

إذا كانت القرية هامة ، فإن العمدة يعاونه مشائخ وهكذا يناقش ويحكم . ولقد وصف لنا أحد تلاميذنا ، وهو ابن عمدة في مصر العليا ، سير هذه الوظيفة فقال : « يوجد ٢٥ خفيراً تحت أمر والدي ، هم يقومون بحراسة الحقول ^(١) من الخامسة مساء الى الخامسة صباحاً ماعدا اثنين يحرسان بيت العمدة . وطريقة الحكم بين الناس هي أن العمدة يجلس في المتنزه مع بعض المشائخ ويتقدم الخصمان فيشرح كل منهما حالته ، وهو يحكم ويجتهد في أن يصلح بينهما ، فإذا لم يرضيا حكمه يحبسهما في حجرة إلى الغد ليرسلهما الى المركز مع خفيرين » . يستطيع العمدة أن يحبس أربعاً وعشرين ساعة وأن يفرض غرامة قدرها خمسة عشر قرشاً .

لا يوجد في القرية مركز للعددية ، وإنما منزل العمدة هو محلها ، فهو يستقبل فيه طول النهار زبائنه حينما لا يرافق أحد الموظفين أو لا يراقب حقوله . وفي أغلب الأحيان هو يذهب الى المركز أو الى المدينة لأعماله أو ... للهو .

إن هذا النظام الذي لا رقابة فيه إذا كان يقدم كثيراً من الفوائد المالية للحكومة فإنه مليء بالأضرار على الفلاح الذي يسلم بدون دفاع الى سيد قليل التعود على حياة المجالس البلدية بقدر ما هو قليل التعود على العدالة الوطنية فيما عدا استثناءات نحن أول

(١) لعل ابن العمدة الراوى قد التبس عليه خفراء الملكيات الخاصة الذين يحرسون الحقول بخفراء الحكومة النظاميين الذين هم معينون لحراسة المساكن ، وهم يقضون الليل ساهرين داخل القرية لا يتعدونها إلا لضرورة . المترجم ،

من يقدرها ، وكذلك هو ملء بالأضرار على الأمن العام . اذ كثير من الجنايات يمكن أن ينجأ في سهولة أو يعزى زيفاً الى أبرياء . بوساطة هذه السلطة المطلقة وذلك فضلاً عن أن الأحقاد القروية تتولد في أغلب الأحيان وتخلد حول هذه الوظيفة .

في ناحية البارود التابعة لمركز أبي تيج كان تعيين عمدة جديد سيحدث وكان بين المرشحين ذوى التأثير اثنان على الأخص ممتازان ، وهما الشيخ أحمد أبو زيد ، والشيخ أحمد فرغلى ، وكان أحدهما قد فصل من وظيفته عن طريق الإدارة ، وكان الآخر عمدة منذ سنة ١٩٣١ ثم فصل في وزارة نسيم باشا ، وكان المرشحان مهيين في البلد ، وكل واحد منهما له أنصار متأهبون لمساعدته ، وكانت اللجنة التى يجب أن تحصى عدد الأصوات ثم تتم عملية الانتخاب مؤلفة من المأمور ومن ممثلى القرى المجاورة ومأذون القرية ، ولكن المأذون كان قريباً لأحد المرشحين ، وبالتالي عدوا للثانى ، فاستبعد هذا الأخير ، وإذ ذاك أعلنت سلطة المركز أن مأذون ناحية أولاد إلياس سيخلف في اللجنة المأذون المستبعد ، غير أنه لما حل موعد الانتخاب - وكان شفهيًا - لوحظ أن المأذون المستبعد قد بقي في اللجنة فتظلم أنصار خصمه وأيده أنصاره ، واشتبك الحزبان بالأيدي ، وبأشر من ذلك أيضاً ، إذ قد لجئوا الى استعمال كل ما يقع تحت أيديهم وتبادلوا ضربات وحشية . وحينما تدخل البوليس كان ثلاثة رجال قد قتلوا وآخرون قد جرحوا جروحاً خطيرة فقبضت السلطات على المرشحين وأمر مدير أسبوط بتأجيل انتخاب ناحية البارود والقرى المجاورة لها الى أن يعود استقرار الهدوء (١١ يولية سنة ١٩٣٧)

يتخذ الفلاح بإزاء رؤسائه - ملاكاً كانوا أم موظفين - هيئة رهبة ممزوجة باحترام وخضوع وحذر ويقبل منهم أسوأ المعاملات قسوة ، وهؤلاء الذين يحتمقرونه سواء أكانوا مصريين أم أجنبى يعتقدون أن هذه الطرق ضرورية .

ولقد قال لنا أحد أثرياء الملاك من أصدقائنا - وهو رجل لطيف في غير ذلك -

« ان الفلاحين يجب سوقهم بالسوط » . ولقد كان أحد معاوفى البوليس يوسع أحد المتهمين ضرباً أثناء دخولنا مكتبه ، فاجاب على دهشنا بقوله : « تنبغي معاملة الفلاحين على هذا النحو لأنهم بهائم » . هُوَّةٌ بين المدينة والحقول ، فبين الفلاح الذى ظل بربرياً ، والمدنى الذى يختلف تأغربه كثرة وقلة يوجد حاجز سميك مانع ضارب فى القدم . وقد جاء فى رسالة خاصة كتبت فى القرن الثالث قبل المسيح ما يلى : « لا تنظر إلى كفلاح مصرى » . وفى ذلك الحين كما هو اليوم لم يكن ممثلو الطبقة الثرية يظهرون فى القرية إلا ليطالبوا بدخل ضياعهم أو يتقاضوا الحقوق الواجبة للحكومة (١)

نحن ان نحكم فى الوقت الحاضر على نفسية الفلاح ولكننا نستطيع أن نلاحظ كخاتمة لهذا الفصل أنه إذا كان متبوعاً ومتعقباً كدافع للضريبة ومنتج ، فانه ظل مجهولاً كرجل ، ومهجوراً كمواطن .

إن الهرم الأكبر لمصر الاقتصادية والسياسية ينوء فوقه بكل ثقله ، والطبقة الحاكمة التى تتكبد فوق القمة يمكن أن تكون وجوها قد تغيرت ، ولكن الضغط على الأساس أى على عمل الفلاح لم يقل .

إن جهل هذا الرجل وعزله والتحامه بالأرض تمنعه من أن يقوم برد فعل ضد هذا السحق ، وهذا السحق يطبع كل حياته .

(١) ب . جوجيه ، مصر فى القرن الثالث . فى تاريخ مصر . المجلد الاول

الفصل الرابع

عمل الفلاح

كانت الفصول السابقة تحاول أن تقيس المحيطين : الطبيعي والاجتماعي للقرية المصرية ، فكان ذلك وضعاً للمشكلة واقتراحاً منها . ومن الآن فصاعداً نستطيع أن نواجهها مباشرة بدراسة الفلاح نفسه . وقبل كل شيء ، في عمله ، لأن من يتحدث عن الفلاح يتحدث عن العمل . إذ أن هذه الكلمة العربية التي صارت دولية والتي نجدناها في قواميس جميع اللغات هي التعت بصيغة المبالغة من فعل فلح الذي معناه بالضبط : حرث في معناها الأصلي اللاتيني « Laborare » أي تعب واشتغل . . . لأن الناس عملياً ، كما لا بد أن يكون ذلك قد لوحظ ، يرون في الفلاح على الأخص - إن لم نقل إطلاقاً - اليد العاملة : الآلة الزراعية . وفي قضية الحياة الاقتصادية لرجال الاقتصاد العصريين هو يمثل العمل ، لأن من الممكن أن يكون عمل الفلاح قد تحدد في الإطار الذي عرضناه أكثر من جسمه ونفسه ومسكنه . وفي الواقع يبدو لنا أن هذا العمل ليس إلا النتيجة البسيطة للسهولة والتحديد اللذين تضعهما له الأرض والجماعة .

وعلى هذا النحو يقودنا ذلك العمل إلى معرفة الفلاح كإنسان ، لأنه هو الذي يجتذب على التبادل فعل الأرض ويؤنسه . . ونحن نلاحظ هنا بطريقة جد واضحة مجموعة سير عمل القوتين ورد فعلهما .

١- أنواع العمل

الأرض السوداء تستمر في الإنتاج وفي الحاجة من يناير إلى ديسمبر ، والفلاحون الذين لا يرغبهم القرآن على الراحة الأسبوعية يظلون يعملون طول السنة ولا يتعطلون

إلا في الأعياد الكبرى أى نحو عشرة أيام في العام ، والشمس تسطع على الأقل إحدى عشرة ساعة ، وفي مايو ويونيو ويوليو خمس عشرة ساعة في اليوم . والفلاح يمضي في الحقول أكثر أجزاء وقته ، ولبعض المشاغل يمضي فيها الليل ومختلطاً بالعناصر في الصيف (ومتوسطه ٦ ، ٢٦ درجة) كما في الشتاء (ومتوسطه ٥ ، ١١ درجة) . هو يعمل عارى الرأس حافى القدمين ، ولشغله - وكله عمل عضلات ومجهود بدني - يستعمل يديه ، ولكي يطيلهما يستخدم بعض الأدوات البدائية التي هي مع اعتبار تربة مصر وكثرة الأيدي العاملة فيها كافية .

(١) كيف يعمل المزارع - بالناس التي يستخدمها بمهارة ويستعملها استعمالات

شنتي هو قلب ويسحق مدر الأرض ويحفر الخطوط ويعزق . . . والناس هي معول طويلة متينة ثقيلة يمكن أن يستخدم جزؤها الأمامي العريض كمجرفة . وأقصر العمال يملك على الأقل هذه المتممة الضرورية للزراعة .

يمكن أن يقال إن جميع حقول مصر هي على هذا النحو معدة بالأيدي حتى حين يشتغل الفلاح بالمحراث ، لأن المحراث المصرى هو أداة أكثر منه آلة ، أداة زنتها أربعون كيلو تحمل وتعاد على ظهر حمار ، وهو النوع الذى لا عجل فيه ولا مجرفة والذى نجده في فلسطين وسوريا وكل إفريقيا الشمالية أى محراث البلاد العربية .

هو يتكون من قطعة من الخشب في أسفلها سكين مسطحة ، طولها خمسة وعشرون سم ، ومجر ، طوله ثلاثة أمتار ونصف تقريباً ، وبه تربط حيوانات الجر بواسطة نير مستقيم معتمد على غواربها لا على جياها كما في أوروبا ، وهذه الحيوانات هي جاموستان ، أو جاموسة المالك الصغير وحماره ، أو جملان مستأجران لهذا الغرض ، أو جمل وحمار . والمحراث يعتمد على يد المحراث الوحيدة ، ليفرس السكين ويتعقب سير الحيوانات مقتاداً إياها بصوته ويده ، لأنه لا يكاد يستعمل العنان ولا يستخدم

السوط إلا قليلا . وهكذا يحرق في كل يوم من ثلث فدان الى نصف . وإذا كان من الملاك ، وماشيته مطعمة جيداً ، فإنه يصل إلى أن يحرق في نفس الوقت حوالي ثلاثة أرباع فدان ، وزمن الحرق يستمر لكل حقل مدة تتراوح بين عشرة أيام وخمسة وعشرين يوماً في العام . وفيما عدا جهات الري بالحياض يستطيع أن يحرق في كل فصل من فصول السنة .

ولقد كتب المسيو ، أوديبو ، والمسيو ، موسيرى ، فى خاتمة دراستهما « على الحرق فى مصر » ^(١) ما يلى : إن المحراث المصرى هو الأداة بالمعنى الكامل فى هذه الجهة التى يكفى فيها خدش الأرض بقصد دفن البذور ، والسماح لها بالنبت قبل جفاف الطبقة السطحية ، وهذا المحراث هو مطلوب عندما يكون من الضرورى — على أثر الرى بماء محدود — منع تبخرات الماء السريعة من الأرض . . . ولا يوجد بين المحارث الأجنبية التى جربت إلى الآن أى محراث ظهر أنه أفضل عملياً من المحراث القومى من جميع الجهات الميكانيكية والزراعية والاقتصادية فى الوقت نفسه .

ولما كان المحراث المصرى محدوداً بطبيعة التربة وبمقدرة العامل المالية — إذ لا يكاد يساوى أكثر من مائة قرش — فإنه نتيجة لهذه الملاءمة المزدوجة . وإذا كان فى منتهى البساطة فإنه لا يلغى مجهود الحراث ولا يبعده عن الخط المشقوق ، وهو يحتفظ بمتانة التماس بين الإنسان والأرض .

ولكى يزيل الفلاح نواتى خطوط الحراث ويفتت المدر الذى تخلف عنه يستعمل الزحافة — وهى كتلة من الخشب أو جذع نخلة بسيط ، طوله من ثلاثة أمتار ونصف إلى أربعة — فيقف فوقها ويجرها زوج من الماشية ، وهكذا تلعب هذه الأداة المفرقة فى البداية دور الأدوات الأوروبية المستعملة لتسوية الأرض وتفتيت المدر ،

وتستعمل أحيانا أيضاً لتغطية البذور الملقاة نثراً ، وتجري هذه العملية بعد الحرث ، ويمكن أن تعد في اليوم أربعة أفدنة . ولتوحيد مستوى الأرض التي لسقيها بوساطة الري ، يجب أن تكون مسطحة بقدر الإمكان ، يحضر الفلاح القصايبية ، وهي كصندوق زنته من خمسين إلى ستين كيلو (وثمنها خمسة وسبعون قرشاً) مقفلة من عرضها ، مفتوحة من طولها ، ولها يدان يقبض عليهما الفلاح ويرفعهما ليزيل نواتي الأرض ويزيد رفعهما ، ليضع في الحفر الأتربة المجموعة فيها (١) .

لقد ذكرنا وسنذكر غالباً الجاموسة والحمار ، ذينك المساعدين المتينين للفلاح والمثمين مع حاجاته ومع مصر ، فينبغي أن نقدمها هنا :

إن الجاموسة « بقرة الفقير » لونها كرواسب النيل ، وإذا كان جنسها أكثر قوة وصلابة من البقر ، فهي تقاوم الأمراض وهي تأكل أكثر من جميع حيوانات العمل . وبسبب خدماتها المتضاعفة يعنى بها الفلاح أكثر من نفسه ، وإن كان ذلك ليس عظيم الشأن .

حينما تطعم الجاموسة على مقتضى الحكمة أى في الشتاء والربيع يرسيم ثمانية عشر قيراطاً ، وفي الصيف بعشر أقات الى اثنتى عشرة أقة من الكلال (اللبن المكون من قش القمح والفول وورق القطن . . .) وبدون انتقال مفاجئ من النظام الغذائي الرطب الحمل بـ ٨٧ ٪ من الماء إلى النظام الجاف الذى يستمر خمسة أشهر ، فإنها تعطي من اللبن أكثر من أية بقرة في مصر أى : ٤٠٨٠ رطلاً في السنة في مقابل ٢٣٤٠ رطلاً في السنة . ويلاحظ أن اللبن يباع بالوزن ، ونوع هذا اللبن هو أحسن

(١) في دائرة المعارف (الفرنسية ٧ ، ٣٤ - ٩) م شارل باران يتحدث عن اسطوانة مزودة بأستان من الحديد يدعوها بالقنفذ . ونحن لم نرها مستعملة ولا مذكورة لدى المؤلفين الذين يعالجون الزراعة في مصر

من لبن البقر ، إذ هو يحتوى على ٧٪ من المادة الدهنية في مقابل ٣ ، ٥ ٪ وأخيراً لحم الجاموس أجود من لحم البقر .

كل هذه الفوائد تصير من الهام تربية الحيوانات ، وصناعة الألبان في مصر ، ولكن الفلاح لا يقوم بهذه التربية ، فليس له مصلحة في تسمين جاموسه ، فهي مع ما تعطيه له تكفي لشغل الأرض والماء ، وهذا هو ما ينتظره منها قبل كل شيء . ويتراوح ثمن الجاموسة بين اثني عشر وخمسة وعشرين جنيهاً .

أما حمار مصر فلكونه أكثر متانة من الجواد كما أن الجاموسة أكثر متانة من البقرة ، هو أيضاً حيوان اقتصادي لا يتطلب شيئاً غير عادي ، ففي الدلتا الحمار « البلدي » (وارتفاعه متر ، وهو على العموم اسود) له الغلبة ، ويمكن ان يحمل مائتي رطل ، وثمنه من جنبيين إلى ثلاثة جنيهاً ، والحمار الأبيض أو الرمادي الموجود في مصر العليا والمسمي بـ « السورى » والذي يركبه السياح حول الاهرام هو أكثر رشاقة وارتفاعاً (١ م و ٢٠ سم) ويمكن أن يساوى اثني عشر جنيهاً .

والجل والبغل لكونهما لا يصلحان لعمل كل شيء ، هما قليلا الاستعمال عند الفلاح .

عمل الماء - بعد إعداد الأرض يجب على الفلاح أن يرويه وأن يغذيها ولا ينتظر ماء السماء عاطلاً قلقاً كما يفعل قرويو شرق الأردن ، فالماء هنا على مقربة منه في النهر ، أو في القناة ، ولكن ينبغي إحضاره وتسييره ، وما دام أن الفلاح لم يرو خطوطه فهو لا يهدأ .

هناك كأوردة جسم كبير وشرايينه توجد ١٩٠٠٠ كيلو متر من القنوات توزع النيل بطريقة صائبة على المزارع و ٧٧٠٠ كيلو متر من القنوات الأخرى تقود مياه (التصافي) بعد الفيضان وتصرفها في النيل وفي البحيرات .

وفي وقت الجفاف (١) في يناير يتعاون فريقان من العمال أحدهما على شاطئ القناة والآخر في مجراها فينتزع عمال الفريق الأدنى بأيديهم قطع الطين والأعشاب ثم يقدفون بها إلى عمال الفريق الأعلى فيتلقونها بأيديهم أيضاً ويلقون بها بعيداً.

ولكن لكي يؤتي هذا النظام ثماره ينبغي أن يستطيع الماء الوصول إلى الحقول. ولتحقيق هذا يجب على الفلاح أن ينشئ نظاماً من المجاري التي تقود الماء إلى النبات، وهو يعمل بدون فتور في تنظيف هذه المجاري والاحتفاظ بها.

وعندما يأتي دور ري حقل الفلاح - وهو خمسة أيام في كل خمسة عشر يوماً في وقت زيادة النيل، وستة أيام في كل ثمانية عشر يوماً في وقت نقصانه - يسهر ليلاً كاملة، لكي لا يفقد شيئاً من نصيبه.

وحينما يكون الماء عالياً يراقب سيره في المجاري ويفرغ جهده في إزالة العقبات من طريقه، ولكن الماء يكون منخفضاً في مدة تتراوح بين خمسين ومائتي يوم في العام حسب الجهات، وفي تلك الأحيان هو يشتغل بقوة ذراعيه ليرفعه. ولما لم يكن هناك أيضاً آلات، فهو يستعمل أدوات جد بسيطة، وهي صنو التارنج في القدم.

الماء مثلاً منخفض خمسين أو ستين سم، وينبغي رفعه إلى الحقل الظامي، فكيف ذلك؟ هناك طريقتان: أولاً صارت نادرة وهما:

(١) الجفاف هو عهد بيوسه صناعية تكون في العموم في شهر يناير وهي أربعون يوماً تقريباً لا تترك الحكومة أثناءه ماء في القنوات لكي يستطيع تنظيفها بعناية عمال متخصصين على نفقاتها. وفي نفس الوقت يستفاد من أن الزراعة في هذه المدة من السنة تكون غير محتاجة إلى كثير من الماء، لماء خزانات (أسوان وجبل الأولياء) وعلى العكس وقت التحاريق هو المدة التي ترى فيها مياه النيل بطبيعتها منخفضة المستوى بهيئة محسوسة ويلحق جريانها الحد الأدنى.

(١) يقف رجلان متواجهان في مكان منبسط منحوت من الشاطئ، على مستوى الماء، وكل واحد منهما يمسك بوساطة حبلين من القنب أو من ليف النخل إناء ذا فتحة واسعة بالقدر الكافي (قطره ٤٠ سم وعمقه ٢٥ سم تقريباً، وهو سلة خفيفة تختلف صفاقتها كثرة وقلة) وينبغي لهذه العملية حركتان .

الحركة الأولى هي أن يتجه العامل نحو القناة منحنيًا قليلاً ويقذف بالسلة في الماء فيملأها، والحركة الثانية هي أن ينتصب ويتحول قليلاً نحو الحقل ويرفع الإناء بمجهود ساعديه متعاونتين ويصبه في مجرى مدخل الحقل .

هذا العمل الذي يجري في جماعة ونظام ميكانيكيين يحرك الجذع والذراعين تحريكاً جوهرياً . إنه عمل شاق ، وأمتن الرجال لا يستطيعون أن يحتملوه أكثر من ثلاث ساعات متتالية ، وإذ ذاك يتبادلونه مع فريق آخر .

وبمقتضى الإحصاء الذي أجرى يكون مقدار ما يصنع على هذا النحو في يوم قدره اثنتا عشرة ساعة ستين متراً مكعباً تقريباً ويروى أقل من ٥٠٠٠ متر مربع قليلاً .

وهذه النتيجة كما يشاهد لا تكاد تكون متناسبة مع المجهود المبذول فيها ، ولكن لا توجد أية (ما كينة) أقل منها نفقة ، وهي ستبقى ما بقي الفقر ، وتدعي بالنظالة ، وكان فلاحو مصر القديمة يستعملونها ^(١) من قبل ، وقرويو اليابان في «سيكوكو» مثلاً يستخدمونها .

(٢) ينحني رجل أو رجلان على الشاطئ، ويديران يد اسطوانة تبتدىء على ارتفاع مجرى المدخل فيصعد الماء سالكا سبيله في اللولب الخشبي (وقطره ٤٠ سم تقريباً) ويدعى بـ (الطنبور) أو لولب أرشيميد ، وهو أنبوبة من الخشب تحيط بها دائرة

(١) هارتمان ، الزراعة في مصر القديمة ، صفحة ١١٩ .

من الحديد ، وطولها من متر وسبعين س م الى مترين ، أو من مترين وسبعين س م الى ثلاثة حسب ما تكون إدارتها بوساطة رجل أو رجلين ، وهذا اللولب مثبت بين الحاجز الداخلى والمحور الحديدى الذى ينتهى أحد طرفيه باليد بينما يستند الآخر على دعامة خشبية مثبتة فى الماء . ويروى (الطنبور) أكثر من النطالة مرتين أو ثلاثاً ، ولكنه أكثر نفقة وثقيل فى إدارته ، وفوق ذلك فإنه لما كان يشغل الساعد باستمرار ، فهو يتعب وينهك بسرعة ، ولكن استعماله لا يزال مطرداً كما لاحظنا ذلك

هاتان « الآلتان الرافعتان » ثلاثان حينما لا يكون الماء شديد الانخفاض ، ولكن فى الغالب ينبغى البحث عنه على عمق متر أو مترين إلى عشرة أمتار بالنسبة الى الحقل الذى يراد ريه .

وفى هذه الحالة لا يكون شئ أصح من تثبيت آلة ميكانيكية ، ويوجد ذلك فى الضياع الكبرى ، ولكنه لا يوجد فى المستغلات الصغيرة . ولما كان الفلاحون كثيرين وتقليديين ، ولما كانوا فقراء فى المال وأغنياء فى الزمن ، فإن هذه الصلاحية لا تفرض نفسها عليهم ألبتة . إنهم قد حلوا مشكلة الري منذ زمن بعيد بطريقة متناسبة مع مقدرتهم ، وهم لا يشعرون بأية ضرورة لقطع هذا التوازن الكافى من أجل توازن أعلى ، ولكنه مستقبل وغير محقق .

وهكذا الكى يرفع الفلاح الماء الذى هو أخفض من متر يستعمل طريقة بدائية بقدر ما هى بسيطة . هو يغرس فى الأرض على شاطئ النهر وتدين خشبيين ، ارتفاعهما متر وعشرون س م وتفصل بينهما مسافة مقدارها متر . وعندما يعوزه الخشب يبنى عمودين من حطب الذرة أو قصب السكر مغموساً فى الطين ، وقتها متصلتان بوساطة غصن أقمى على نحو ما يثبت للعبة « الفوت بول » . وفى وسط هذا الغصن المحترق تتحرك عتلة تختلف استقامتها كثرة وقلة ، وطولها ثلاثة أمتار تقريباً . وفى نهاية ذراعها

الصغرى حجر كبير ، أو قطعة من طين صلب ، وتنتهى ذراعها الكبرى بعود رأسى ،
طوله متران ونصف تقريباً ، وفى نهايته يعلق الإِناء وهو سلة من جلد ، أو (جردل)
أو (صفيحة) ، وهذه الأداة كلها يثبتها الفلاح على محور المجرى المراد ملؤه .

فإذا انتهى التثبيت يقف العامل فوق المكان المنبسط المعد على منتصف ارتفاع
حافة الماء ثم يخفض العتلة بجذبه العود إلى أن ينعكس الإِناء فى الماء ويمتلئ ثم يدفعه
إلى أعلى دفعة خفيفة تُبْرِزُ تَيجَها عودُةُ الثقل المضاد فتُرفع إذ ذاك الإِناء إلى
المجرى حيث يصبه العامل .

كل هذه الحركات تجرى فى بطاء مطبوعة بنغمة أغنية وحيدة ، ويبدو أن تنوعها
يقلل من المجهود ، ومع ذلك فهذا العمل يحمل الفلاح على الأثين أكثر من الأعمال
الأخرى . وقد يكون حزن أنشودته هو الذى ترك الناس يتكهنون بهذا ، ولكن الذين
كان لديهم الصبر على جمع كلمات هذه الأناشيد يؤكدون لنا ذلك (١)

وعند نهاية نهار ذى اثنى عشرة ساعة يكون الفلاحان اللذان يتنلوبان كل ثلاث
ساعات قد اغترفوا خمسمائة متر مكعب من الماء . وآلة « ميكانيكية » من هذا النوع
تُحقق رى فدان ، ومصدر الماء يمكن أن يكون بشراً كما يمكن أن يكون قناة ، وهذه
الطريقة هى التى يستعملها قرويو الشرق والشرق الأقصى وعلى الأخص العرب إذا
كانوا فقراء ، ولكن النهج هو مصرى محض ، ونحن نجده مصوراً فى أقدم النقوش
ولا يستخدم فى أى مكان آخر بهذا المقدار .

ذلك هو الشادوف ، ويمكن الاشتراك فيه ، فى جهة قنا أو دندره فى مصر العليا

(١) ج . ليجران . الأقصر تحت حكم الفراعنة ، الخرافات والأغاني الشعبية فى
مصر العليا ٢٢٤ صفحة و ١٠٠ صورة . فرومان ، بروكسپيل سنة ١٩١٤ ص ١٧١ .

لا نزال نرى مجموعات مؤلفة من اثنتين أو ثلاث أو أربع من هذه الأدوات مزدوجة أو مدرجة لرفع الماء ، ولكن لإصعاده إلى مثل هذا الارتفاع - وقد يصل إلى اثني عشر مترا - تستعمل الساقية بكثرة .

والساقية هي آلة ميكانيكية حقيقية وإن كانت بدائية وسيئة التكوين ، ولما كانت مصنوعة من خشب السنت أو الجيز ، فهي لا تدار بوساطة الانسان ، وإنما بالقوة الحيوانية . وعجلتها الأفقية المتحركة من اليمين إلى اليسار بوساطة الثور أو الحمار الذي يدور في ميدان تحرك بوساطة اشتبا كها الفظ عجلة رأسية تحمل سلسلة من القواديس وهذه القواديس المتقلبة والممتلئة تحت تصب ماءها فوق المجرى باطراد عند وصولها إلى مستوى الأرض (١) .

الساقية بسبب ثمتها (من عشرة جنبهات إلى عشرين جنبها حسب الارتفاع) تملكها غالباً عدة أسر ، وكل واحدة منها تأتي في دورها لتسقى بحيواتها دون أن ينقطع العمل أبداً . وهكذا يروى فدان في كل أربع وعشرين ساعة ، وتكفي ساقية لرى خمسة أفدنة وينحصر عمل الفلاح هنا في إثارة الحيوان ومراقبة حركات العجلة والماء وتجنب إسرافه عند الوصول أو في الطريق ، لأن الساقية يمكن أن تدور لحقل على بعد خمسمائة متر ، وفي العادة يخصص لتلك الرقابة شيخ أو طفل ، وفي أثناء الصرير الدائم لهذه الماكينة التي لا تشم هو يتغنى بسرور قلة المجهود .

تعد السواقي وأنواعها كالتابوت وما شا كله بالآلاف ، ونحن نجدتها تحت اسم « نوريا » مستعملة لدى زراع سوريا وإفريقيا الشمالية وإسبانيا وإيطاليا وإغريقيا . يشغل عمل الماء الفلاح كثيراً كما نلاحظ ذلك . إنه عمل صبر لا يكتفى فيه بالقدر الضروري ، بل هو يلام على أنه يسقى الأرض أكثر من اللازم .

(١) يرجع تاريخ استعمال الساقية ولواب أرشيميد إلى عصر البطالسة .

إنه لا يفهم أن الرى المتكرر الغزير يرفع الطبقة المائية التى هى تحت سطح الأرض وأن هذه الطبقة عند ما لا يكون بينها وبين ذلك السطح إلا متر وخمسة وعشرون سم تخنق الجذور وتصير النبات أصفر . هو لا يؤمن إلا بشر الجفاف ولذلك هو فى دوره يسمي الحقول بقدر ما يستطيع وبدون أن يفقد دققة ، لأن قلة الماء عنده هى الغلة الضائعة أو الناقصة . نحن لا نرتاب فى العذاب والإهانات الكثيرة التى يحتملها الفلاحون فى سبيل الحصول على الماء الضرورى لحقولهم الصغيرة ، فراقبو الرى فى الأقاليم والحراس المعينون عند فتحات السدود يسخرون غالباً من الأوامر والقواعد التى هى عادلة والحظوات المشتركة والأعساف والانتقامات الشخصية ليست فى هذا المجال استثنائية ولا معاقباً عليها .

الاسمدة - إن الرى لا يكفى فينبغى تقوية التربة المطعمة ، والفلاح يعرف جيداً أن سلطان أرضه المخصب فى حاجة إلى تجديد قواه ، فهو يتفنن مع زوجته وأولاده فى أن يعثر بدون إنفاق على أكثر ما يمكن من سماد طبيعى أو صناعى .

إن زبل الحمام - وليست الد من الانسانية ألبتة - وحما التطهير المستخرج من القنوات ، وعلى الاخص التراب المشرب بفضلات الحيوانات المأخوذة من الحظائر (السبخ البلدى) وهو السماد الأساسى ، وكذلك خرائب القرى و تراب القرون . كل هذا يقدم الأزوت الى حقل الفلاح . فى الواقع أن خرائب المدن الميتة (الكوم) قد صارت مقطع سماد يستمد منها الفلاحون ، وهو السبخ الكفرى ، ويوجد فى كل مكان منه الجيد والردى ، والآن يوجد الردى على الاخص .

وكذلك يوجد فى مصر العليا إلى جانب الصخور رمل (ماروج) وصلصال (طفل) يحتويان على سماد فقير ، وهو يحمل إلى الحقل بمشقة ، ولكن كل هذه الأسمدة غير كافية فى الكمية والكيفية ، فالأرض المتعبة فى حاجة إلى تنشيط صناعى

وعلى الرغم من جمود عقل الفلاح وبسبب صلاته بالتربة قد فهم حاجتها . ومنذ مبدأ هذا القرن - لان السبخ الكفرى الجيد قد نفذ تقريباً - قد شرع فى استعمال الاسمدة الكيماوية . وقبل الحرب كانت مصر تستورد اكثر من نصف مليون طن من نترات شيلي الطبيعية وهى أقدم الاسمدة المعروفة ، ومن نترات المانيا وانجلترا الصناعية وهذه النترات تستعمل لجميع الزراعة ما عدا البقول كالبرسيم والحلبة والبقول التى هى فى حاجة الى سوبير فوسفات .

يحقق توزيع الاسمدة بهيئة جد مرضية بنك التسليف الزراعى الذى يبيع بالكيس وبالأجل ، والجمعية الزراعية الملكية ، والشركات الكبرى المستوردة ، وهكذا يوجد ألفا مستودع موزعة فى جميع البلاد . والزبان هم بديا كبار الملاك ومديرو أملاك الحكومة الذين يقدمون إلى مستأجرهم وشركائهم السكية الضرورية لمستغلاتهم فى مقابل جزء من الغلة . ولقد كان الكيس قبل الحرب يباع بثمن يتراوح بين خمسة وستين قرشاً وسبعين قرشاً تسليم القرية .

يتطلب القمح أغلى الاسمدة ولكن أكثرها اقتصاداً يكفى للبرسيم .

الآن يتعلق الأمر بوضع «خبرة الأرض» : يحضر ابن الفلاح على الحمار وبطريق طويل فى أغلب الأحيان عشرين مرة فى اليوم - وليس هناك (عربة) نقل ولا (عربة) يد - فى قفة أو فى كيس الاسمدة الى الحقل ويعود به للتحميل بينما يضع الزارع بسخاء السماد الطبيعى أو الكيماوى ويسويه بيده حول النبات الذى يجب أن ينمو .

(٤) كيف يبنى ثمار الأرض - كل تلك العنايةات الممنوحة للأرض هى

للثمار التى يجب أن تؤتيها . وإذاً ، فعمل الفلاح يستمر من البذر الى الحصاد . وفى الواقع لم يعد موجوداً ذلك الوقت الذى لم يكن عليه فيه إلا أن يبذر وينصرف ، وبعد بضعة شهور يبنى . والجهاد فى سبيل الحياة قد صار جهاد جميع اللحظات .

والفلاح بسبب دخول القطن - وهو نبات عسير - واستقرار الري الدائم أو الزراعة في جميع الفصول لم يعد متعطلا .

ابتداء من القطن تتابع الغلات على النحو الآتى منظمة في سنتين أو ثلاث.

قطن	فبراير - أكتوبر
قمح أو برسيم أو شعير	نوفمبر - مايو
باثر بعضه	مايو - يونيو
ذرة أو أرز	يونيو - نوفمبر
برسيم	ديسمبر - فبراير
قطن	فبراير - أكتوبر
حبوب الشتاء أو برسيم	نوفمبر - مايو
باثر أو ذرة	مايو - نوفمبر
برسيم أو حبوب الشتاء	نوفمبر - مارس
باثر بعضه	مارس - يونيو
ذرة أو أرز	يونيو - أكتوبر
برسيم	نوفمبر - مارس

هذا الحساب الزراعى الذى نحن نترجمه إلى حساب غربى - لأن الفلاحين لديهم حساب عريق فى المصرية - يلاحظه كل حقل مع شيء من التباين يختلف كثرة وقله حسب حاجة وتجربة من يطبقه.

لا يزال الزراع إلى اليوم يتمسكون بالحساب القبطى ، لأن هذا الحساب الذى يعتمد إلى قدماء المصريين هو نبلى ، فهو يتبدى فى الواقع بشهر (توت) سبتمبر

الذى يلحق فيه النهر غوه الألى ثم يستمر اثنى عشر شهراً حسب نظام السنة الشمسية وهناك أمثلة شعبية معبر عنها بعبارات عربية ، ولكن أصلها يصعد إلى مصر القديمة ، تبين الاستعمال الزراعى لكل شهر . يتحدث فى هذه الأمثال غالباً عن القمح الذى كان إذ ذاك الزراعة الأساسية ، ولكن لا يتحدث عن القطن الدخيل حديثاً (١)

ينظم هذا الحساب أيضاً الحياة الدينية للأقباط ، إذ لم تغير المسيحية فى مصر ماكان يوجد قبلها ، ولكن نقطة البدء فى سنة ٢٨٤ وهى أولى سنى حكم الامبراطور « ديوكليسيان » التى لا تزال تدعى بعصر التعذيب . وفى الواقع أن الاضطهادات الشهيرة قد حدثت فى سنة ٣٠٤

والمسلمون يبدءون من الهجرة ويحسبون بالسنة القمرية .

ومنذ سنة ١٨٧٥ أضافت اليهما مصر الرسمية الحساب الغربى الذى يتغلغل فى الشعب ببطء ، ولم يحتفظ هذا الشعب بالأسماء القومية للشهور ولم يترجم كذلك أسماءها الرومانية ، وإنما لاءمها مع نطقه . وقد اعتمدت الحكومة هذا الاستعمال فقيل : يناير فبراير مارس ابريل مايو يونيو يولية اغسطس الخ ولا تراعى وزارة الزراعة إلا هذا الحساب الذى إن لم يكن مستعملا من جميع الفلاحين ، فهو مفهوم على الأقل من أكثرتهم العظمى .

من الملائم أن نصف هنا الزراعات الجوهرية لمصر العصرية التى تشغل أغلبية الفلاحين ، وهو القطن الذى يؤلف ثروة البلاد الاقتصادية ، والذرة والقمح اللذان

(١) م . تيسو . « دراسات على الحساب القبطى ونتائجه الزمنية » ، موديس ، الاسكندرية ١٨٦٧ . ي . أرتين باشا « الأمثلة التى ترافق أسماء الشهور القبطية فى اللغة الشعبية العربية فى مصر » ، فى نشرة معهد مصر ١٨٩١ ص ٢٥٠ - ٢٦٧ .

بحققان القوت اليومي ، والبرسيم الذي هو كلاً الماشية ، ولن تقول عن الزراعات الأخرى إلا كلمة للتسميم .

(١) زراعة القطن

لم يكن القطن مجهولاً لدى قدماء المصريين ، ويبدو أن بعض أقمشة العصر الفرعوني منسوجة من الخيوط القطنية ، و« بلين » يشير الى استعماله في مصر ، ولكن هذا النبات الصناعي لم يتخذ في مصر أهمية كبرى إلا منذ أواسط القرن التاسع عشر أى منذ تجارب « جوميل » .

إن الرى الدائم الذى تحقق حوالى ذلك الوقت نفسه ، ونمو الشعب المتواصل ، والبيوع المفيدة في الأسواق الانجليزية لم تلبث أن صنعت من القطن الغرس الأساسية في البلاد . ولقد استطاع الناس ان يتحدثوا عنه كزراعة وحيدة ، ولكن أزمة ٩٣٠ العالمية التى جلبت سوء بيع القطن اضطرت الحكومة المصرية إلى إتقاص الأراضى المنزرعة قطناً الى الربع .

غير أنه رغم هذا الاقتصاد المدبر قد بقى القطن الزراعة الأساسية في مصر العصرية ، وهو يزرع في جميع المديرىات من البحيرة الى اسوان .

بدياً ، لىكى تتجنب وزارة الزراعة اختلاط القطن المصرى وفقد سمعته ، وهو المبحوث عنه لطول تيلته ، فانها تحتفظ لنفسها بمراقبة البذور في وقت الحليج . والفلاح يشتريها مقدماً من وكلاء الجمعية الملكية الزراعية أو من متاجر الحبوب .

هو يحمل بذوره (التقاوى) إلى الأرض المعدة بحريتين أو ثلاث متقاطعة والمقسمة الى خطوط ، وهناك في كل عشرين س م على الحافة الجنوبية للخط يذفن قبضة من البذور من ست وحدات الى عشر حسب الاختلاف في حفرة يعدها بالمغرس الذى هو يستخدمه أيضاً كمسطرة .

وبعد ذلك بنحو خمسة عشر يوماً يزور المزرعة ، وبالقرب من الحفر التي لم تنبت يعيد غرس بذور أخرى يروىها باليد . وبعد ستة أسابيع حيث يكون الغراس قد نبت . بل نبت أكثر من اللازم ، يشرع الفلاح في « تطليق الباقات » كما يعبر الزراعيون أي أنه لا يدع في كل حفرة إلا نبتتين مقتلاً جميع الأخرى

وفي أثناء المدة يروى النبات في كل خمسة عشر يوماً إلى خمسة وعشرين إبان مايو ويونيو ، وفي كل اثني عشر يوماً إلى خمسة عشر في يولية . وإذا كان يسهر الفلاح على سیر الماء في جميع الخطوط ، وبعد مروره ينتزع الأعشاب الخبيثة ثم يقطع من كل نبتة البراعم الطرفية ، لتسهيل نمو القطن بوقف نمو الخشب .

تلك هي عناية البساتين في عدة آلاف من الكيلومترات

تتطلب زراعة القطن كزراعة البساتين يداً عاملة وافرة مستعدة . وإذا ، فهي تفرض أو تقنع زحام السكان على الأقل ما دامت الآلة الميكانيكية لم تحمل محل العدد كما في الولايات المتحدة ، وهذا العدد سهل المنال بقدر سهولة العمل في القطن والنساء والاطفال يعملون هنا كالرجال سواء بسواء ويضاعفون دخل الأسرة ، وليس هذا الاستعمال للجميع أجنباً عن نجاح القطن في مصر .

وبعد إزهار سريع يتبدى في يولية : يتفتح اللوز وينمو الثمر وينبغي جنيه . وفيما بين أواخر أغسطس وأوائل أكتوبر تهب القرية مرتين متتاليتين منقسمة إلى فرق تحت إدارة (الريس) المتعقبة وتنشط للجني .

ومع الرد على أدوار المغنية المعينة (وتلك إشارة من إشارات العمل) ينبغي تجريد كل شجيرة بسرعة من باقاتها البيضاء بدون نسيان أية واحدة منها ، ولكن أيضاً بدون أخذ ورق . وحيناً يمتلى الجيب المصنوع من (الجلدية) مرفوعة إلى الحزام يذهب العامل ليفرغه في العراء المعد في وسط الحقل ويعود إلى صفه .

ومن هذا العراء تحمل سلسلة غير منقطعة من الفلاحين القطن إلى مستودع (شونة) المالك أو مستودع المصرف ، ومن هناك بعد قليل من الوقت يذهب به على ظهر حمار أو جل إلى المخلج . فالمكبس^(١) حيث آلاف من الفلاحين - ولا سيما الاطفال^(٢) - من سبتمبر إلى ابريل ينظفونه ويزيلون بذوره ويفرزونه ويحملون الآلات الميكانيكية ويفرغونها في وسط غبار غير صالح للتنفس .

بعد الجنية الثالثة لا يبقى في الحقول إلا أدغال تنزع بالأيدي أو تقطع على مستوى الأرض وتجمع في حزم وتوضع فوق سقف المنازل لتستعمل وقوداً .

ب - قوت الفقراء

تشغل الذرة بعد القطن أكبر مساحة منزرعة فهي تبلغ تقريباً مليوناً ونصفاً من الأقدنة . ورغم أنها عمت قبل القطن فليست زراعتها ولا أهميتها ضاربتين في القدم . وفي عهد المماليك كانت تفرس كأنها في وطنها . ولقد كتب عنها « سيفيستردي سامي » في سنة ١٨١٠ ما يلي : « ان زراعة الذرة هي إحدى الزراعات الأكثر

(١) هناك نحو مائة من هذه المصانع التي تحضر للتصدير تعمل في مصر ويشغل فيها الفلاحون في حالات أسيفة : « قد زار حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول إبان رحلته الحديثة الى الغربية تفتيش سخا التابع لإدارة أملاك الحكومة ... فلاحظ جلالته في كبس بالات القطن أن عملية الكبس بالأيدي والأرجل تعيب الفلاحين تعيباً عظيماً وأنها ضارة بصحتهم ... » (صحيفة لا باترى ، القاهرة ١٠ نوفمبر ١٩٣٦ .)

(٢) حسب تحقيق ابنة الشماطيء المنشور في الاهرام في ١٧ و ١٨ و ١٩ فبراير سنة ١٩٣٧ كان ٢٥٠٠٠ طفل تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة مستخدمين في هذا العمل الغير الصحي أياماً تبدأ في الخامسة صباحاً ولا تنتهي إلا في التاسعة مساء بدون راحة متفق عليها .

ترجمنا هذا الهامش ، لانه ورد في النص الفرنسي وإن كنا نحن شخصياً نرى أنه نوع من الديماغوجية الصحفية التي لا تمت الى الحقيقة الواقعية بصلة . « المترجم ،

عادية في مصر السفلى كما في مصر العليا التي يعيش قسم كبير من الشعب فيها من خبز الذرة .

إن لفظة الذرة هي الاسم العربي لهذا النوع من الحبوب وتدعوه وزارة الزراعة بالذرة الشامية أى الآتية من سوريا لتمييزها عن الذرة الرفيعة أو العويجة التى هي الغراس القديم .

في افريقيا ، في البلاد التى تروى رياً كافياً والتى هى خصبة التربة تتراجع الانواع المختلفة من الذرة لتفسح مكاناً للذرة الشامية ، وهي حبوب أمر يكانية سهلة الزراعة ، سريعة في الإنتاج ، قيلة لزراعة ثانوية .

تنطبق هذه الملاحظة بنوع خاص على مصر : ففي الواقع أن الذرة الرفيعة التى تشغل ٣٠٠٠٠٠ فدان تقريباً والتي زراعتها قابضة في مصر العليا (حيث نظام الحياض) تقل بتقدم الرى الدائم .

احتلت الذرة الشامية وادى النيل لأنها تلتم مع الفلاح ومع التربة الى حد أن اشتهرت بأنها أفضل ذرة في العالم ، وذرة موزمبيق هي وحدها التى يمكن ان تشبه بها يذررها الفلاح في بولية نثراً ويخصص لها كثيراً من السماد ويسقيها سبع مرات وبعد ثلاثة عشر أو خمسة عشر أسبوعاً يقتلع باليد الأخطاب الطويلة المحملة بالسنايل الضخمة والتي هي أعلى منه .

ذلك هو الاجتناء : ففي أكداس النبات المتراكمة يقوم العمال والنساء والأطفال بالفرز الأول فيضعون في جانب رؤوس الذرة التى لا تزال مدثرة ، وفي الآخر الأخطاب مجردة .

يصل دخل الذرة بالتعبير الزراعى الى عشرة أرباب أو اثنى عشر اردباً للفدان ،
ولكن الدخل المتوسط في البلاد هو سبعة ونصف .

وعلى أثر ذلك يقيمون من هذه الأحطاب منصوبة ومحبوكة شبه سياج دائرى
حول تل الثمار . وداخل هذه الدائرة وفي وسط الحقل يقشرون السنابل ثم يضعون
الحبوب الصفراء التى هى أكبر من الفاصوليا فى قفف ، والأحطاب أيضاً يحملونها
على حميرهم القصيرة فيقوون بها سقف المنازل ويستعملونها كوقود ، ويجب ألا
يضيع شئ .

ج - القمح

إن القمح هو فى أقدم تقاليد مصر الزراعية ، وهو يستعيد اليوم قليلاً قليلاً
الأهمية التى أفقدها القطن إياها ، وهو يستفيد من سياسة تعدد الزراعات . فى سنة
١٩٣٤ كانت المساحة المنزرعة قمحاً ١٣٨٨٦٧٣ فداناً . وفى سنة ١٩٣٩ كانت
١٤٦٦٠٠٠ فدان ، وكان ذلك يمثل إنتاجاً مجموعته ٨٦٠٠٠٠٠ إردب أى أن متوسط
الفدان ٩٦ ، ٥ وكل هذا القمح تقريباً مستهلك فى البلاد بواسطة ذوى اليسار من
الوطنيين وشعب المدن ^(١) إذ الأوروبيون وأثرياء المصريين يفضلون الدقيق الأجنبى
الذى هو على الأخص مستورد من استراليا وكندا .

يبدأ الفلاح القمح فى نوفمبر ويسرع فى التسميد والرى قبل وقت الجفاف ثم هو
لا يرويه الا مرة أو مرتين قبل الحصاد .

هو يحصد فى أبريل بمنجل بدائى أو باليد ثم تحزم الحصيدة حزمًا تنقل على ظهر

(١) القمح المصرى قليل الصلاحية للتصدير بسبب ضعف احتوائه على المادة اللزجة
وتفوق نسبة الحصى فيه ، ومع ذلك فقد كانت ألمانيا فى سنة ١٩٣٧ تفاوض لتستورده منه .

حمار أو جمل الى البيدر العام (الجرن) حيث تحمل ، وكل أسرة تمد فيه غلتها عند ما يحى دورها ، وتأتى الجاموسة لتدوس السنابل الراقدة على الأرض ، والأكثر فقراً يدقون قمحهم بعصيهم (النبايت) ولكنهم فى أغلب الأحيان يملكون بالاشتراك (نورجاً) وهو عربة ثقيلة من الخشب تمسكها ٤ عجلات ٣ + ٤ متوازيات ، وهى اسطوانات لدرس القش مركبة فى أسفل العربة . يقطع (النورج) تجره الجاموسة سائرة فى حركة دائرية وتحت قيادة فلاح جالس فوق مقعد ، السنابل التى داسها الحيوان بينما يحدد عامل آخر الأعواد تحت الآلة .

تساوى هذه العربة الخاصة بمصر ثمانمائة قرش . وحينما تكون أكثر بساطة وبدون اسطوانات تساوى ثلثمائة تقريباً .

لكي يذرى الفلاحون - ككل زراع البحر الأبيض المتوسط - يقذفون إلى أعلى بالسنابل المداسة المتقطعة فى مهب الريح ، وهم يستخدمون لهذه العملية مذراة من خشب ذات إصبعين أو أربع ، وهى الجاروف . وبنورج واحد وبضعة جواريف يصلون إلى إعداد حصيدة خمسة وعشرين فداناً .

وأخيراً تفر بل النساء الحبوب فى غرابيل واسعة ، وعند ذلك توضع فى أكياس وزلع وقفف معدة للبيع .

د - البرسيم

إن القش المداس مخلوطاً بالفول ، والشعير يكونان الغذاء الصيفى للماشية ، ولكنها فى الشتاء تتغذى بالبرسيم . وقد ترجمت هذه الكلمة إلى الفرنسية بنفل الاسكندرية

يزرع البرسيم فى كل مكان بنسبة ٢٠ ٪ من مجموع المساحة ، لأنه يغذى لأرض كما يغذى الحيوانات ، ولما كان أحد البقول التى تحجز أزوت الهواء فى

التربة وكان كلاً جيداً ، فانه ينبت بسرعة وبمحالة اقتصادية .

لا يتطلب البرسيم عملاً كبيراً : فالفلاحون يبدرونه فيما بين سبتمبر ونوفمبر ، وفي الغالب بعد الذرة أو القطن أو الأرز ، وقبل رفع الأخطاب التي هي على هذا النحو تحمي البذور ، وبعد نحو خمسين يوماً تجري النجبة الأولى ثم تليها أربع جبات آخر في كل خمسة وثلاثين يوماً واحدة ، والحيوانات تطعمه في مكانه بقدر الحاجة ، وثلاثاً فدان يطعمان ثورين ، ونصف يطعم جاموسة طول الفصل ، وربيع يكفي لحمار .

هـ - المزروعات الغرائبية

لكن عمل الفلاح يجعل تربة مصر تنتج أطعمة أخرى ، فلندكر منها فقط للأهمية ما يأتي :

الأرز الذي أتى به من الهند في عهد الخلفاء والذي يزرع في الجهات الرطبة كدمياط وشمال الدلتا . هو يشغل تقريباً $\frac{6}{10}$ من المساحة المنزرعة ، ولكن مقدار مساحته يتعلق بفزارة الفيضان ، والحكومة تحدده ، وهكذا في سنة ١٩٣٥ كان ٤٧٠ ٣٧٥ فداناً . وفي سنة ١٩٣٧ كان ٢٤٠ ٤٦٩ فقط . وفي سنة ١٩٣٩ كان ٤٧٦ ٤٥٤ . إنه جيد النوع ، وهو لهذا يصدر إلى الخارج .

الفول هو طعام لماشية الحرث من يونيو إلى ديسمبر ، وحينما يكون جيداً هو - معداً بالزيت أو بالسمن - طعام لذيذ للشعب .

البصل وقصب السكر ، وهما من غراس مصر العليا ، والشعير والعدس والتمر ، وذلك فضلاً عن الخضر والفواكه التي تنمو حقول استغلالها في كل عام ولو أنها محدودة .

يستبقى الفلاح لاستهلاكه الخاص قطعة من الحقل الذي يستغله ، فيغرس فيها

بدون سماد خضر الفصل كالإميا في الشتاء ، والفول في الربيع ، والمخية في الصيف ...
وستحدث عن ذلك بمناسبة طعامه .

ولكن هذه المنتجات فوق أنها تشغل مساحة أقل كثيراً من المنتجات الأخرى ،
هى لا تتطلب طرائق كثيرة الاختلاف عن الطرائق التى رسمناها .

صارت مصر بلداً متعدد الزراعة ، ولكن هذا الاختلاف لم يخلق من الفلاح
متخصصاً ، ولا من عمله تخصصاً ، بل ظل عاملاً عاماً « الرجل الذى يعمل فى كل شىء »
وتحت ذلك الاختلاف الظاهرى فى الوسائل ظل عمله بسيطاً ومتشابهاً ، وبدون هذا
التباين الذى تخلقه المهن ، وكذلك بدون ذلك التخصص « التيلورى » الذى يحدد
النشاط بإشارة هى دائماً بعينها .

وهكذا يلتزم الفلاح مع كل زراعة جديدة . هو لا يتكر ، ولكنه يسلم نفسه
الى الزراعة التى أمر بها بامتنان يتضاعف بزيادة الثمار . ولقد لاحظنا ذلك لمناسبة
زراعة الكتان .

على أنه ليس كذلك بإزاء التجديدات الميكانيكية ، ولا بد أن يكون القارىء قد
لاحظ فى كل ما سلف أن الأمر لا يتعلق بالسيارة الحراثة ، ولا بالحصاد الرباطة ،
ولا بالجباة ، ولا بالدراسة ، ولا بسيارة النقل ، ذلك لأن الفلاح لا يكاد يستعمل
اليوم هذه الآلات الميكانيكية أكثر مما كان يستعملها بالأمس لأنه فقير ، ولكن
على الأخص لأنه ليس فى حاجة الى هذه الوسائط بينه وبين الأرض .

نحن نعلم أن أجهزة جد عصرية تعمل فى الممتلكات المستغلة فى الزراعة المباشرة ،
وأن هذه الآلات يديرها فلاحون ... ولكننا لا نتحدث عن الاستثناءات ،
فالفلاحون لا يستخدمون الماكينات .

أجود ؟ أجهل ؟ لكي نشرح ذلك نقول : إنه بالأحرى غريزة حفظ الذات ، وإذا كانت الآلات الميكانيكية لم تجلب إلى حقول مصر أكثر مما حدث ، فذلك لأن المستغلين بعد أن حسبوا حسابهم ألفوا اليد العاملة أكثر اقتصاداً ، فوجهتا النظر في الوقت الحاضر تلتقيان .

غير أن الأمر لن يكون دائماً على هذا النحو ، فغداً ستزيد الصعلة القروية في مطالبتها ، وإذا ذلك تلائم الآلة الميكانيكية المستغلين أكثر من غيرها .

يجب أن تكون الصدارة رغم هذا للعمل « اليدوى » لأن تصيير الزراعة في وادى النيل ميكانيكية سيكون ملاشاة للتعاادل الحيوى الذى استقر بين الزراع والزراعة ، وقطعاً للتوازن الذى تحتفظ به طريقة العمل ، وهى طريقة شعب كثير العدد .

٢- حالات العمل

هذه التربة التى يعجنها الفلاح بكل أعضائه يسلم إليها نفسه بدون احتياط وبهوى حينما تكون ملكه ، ولكنها لا تكاد تكون ملكه أبداً ، فهنا تملك الأرض الرجل وليس هو الذى يملكها ، وهذا فى الحق هو مفتاح سر كيبله ، ففى الواقع أنه لا توجد من بين الحالات التى يعمل فيها أية حالة تحرره ، ولنلاحظه فى كل واحدة من حالاته وهى جميعها توجد اليوم .

الفلاح قابض للتفسير

إن السخرة قد ألغيت فى سنة ١٨٩٣ ولكنها بقيت قانونياً وعملياً فى بعض حالات « المنفعة العامة » وحينئذ يُستولى على الفلاح إلزاماً فينتزع من حقله وقرية ويرسل إلى الموضع الذى تطلب فيه ذراعه من البلاد ، وذلك كالأحوال الآتية :

(١) عندما يكون فيضان النيل سيصير كارثة يعمل عدة مئات من آلاف الفلاحين نهراً وليلاً تحت عصي الموظفين والمراقبين لرفع الضفاف أو الجسور أو إعداد المصارف أو السهر على الخزانات .

إذا كان هناك مثلاً جسر سيغمره الماء يقدفون بأنفسهم جماعات كثيفة إلى نقطة الخطر مسلحين بالفؤوس والمقاطف فيرفعونه ويقومونه مستعينين بالتراب والقصب وجذوع النخل ، وعند الحاجة بحطب الذرة وقصب السكر .

وفي سنة ١٩٣٤ كانوا يشتغلون على هذا النحو في الماء لا تقاذ البلاد . وقد اعتمدت الحكومة مائة وخمسين ألف جنيه لمكافحة البلاء أى لشراء المواد اللازمة ودفع انتقالات الرؤساء ومنحهم مكافآت . أما الفلاحون فلم يتسلموا أى أجر على مشقتهم ولا أى تعويض لاغترابهم الجبرى .

كل مصرى بمقتضى القانون يمكن أن يؤخذ . ليساعد على دفع الخطر ، ولكن الواقع هو أن الفلاحين هم وحدهم الذين يساهمون في هذا العمل ، ومع ذلك « فنذ الآن لم يُستخدَم أحد في ضفاف النيل أو جسور الحياض أثناء الفيضان دون تسلم أجر (١) ملائم » .

(٢) ثروة البلاد قد هوجمت : القطن مريض ، فمن الساعة السادسة إلى الظهر ، ومن الثانية إلى السادسة ينحني على شجيرات القطن جحفل من الرجال والنساء والأطفال ينقبون ويفتشون صفاً وشفراً وشجيرة وشجيرة وورقة ورقة ، ليزيلوا الشر ، فالورقة المصابة تنتزع برقة وتوضع في الثوب ، ولكن إذا أفلتت ورقة معدية ، فإن المراقب الذى يتبع الفرقة يلاحظها ولا تلبث عصاه أن تهوى على ظهر العامل الجانى .

« لقد اقتربت من أحد هؤلاء التعساء الذين يشتغلون تحت حرارة الشمس والضربات وسألته : كم يتقاضى على تعبته في كل يوم ؟ فأجاب : - قرشين » . (١)

وهكذا في يونيو سنة ١٩٣٦ بمقتضى قانون سنة ١٩١٠ (٢) قد سخر مليون من شباب الفلاحين لإيقاد ٤٣٥٧٨٥ فدانا قد هاجمها الدود الأحمر (٣) الذي يأكل لوزة القطن ويتجدد خمس مرات في العام . ومع ذلك فالجمعية الملكية الزراعية قد وعدت من يكتشف الدواء ويقى مصر من هذه الكارثة بعشرين ألف جنيه ، وفي ذلك اليوم ستلغى إحدى السخر .

(٣) في كل خمس سنين تقريباً ، والمرة الأخيرة كانت في سنة ١٩٣١ (إذ قد أمكن أن يوقف في الصحراء غزو سنة ١٩٣٧) تغزو أرض مصر سحج هائلة من الجراد ، وكان من الممكن أن تلتف المزروعات لولا أن كثرة أخرى تعترضها ، إذ هناك قرى تنقل بأكملها إلى الجهات الأخرى كثر إصابة (أمر ١٦ يونيو سنة ١٩١١) لإجلاء الجراد نحو الصحراء أو نحو البحر .

في هذه الحالة ينحصر العمل في حفر خنادق ، وفي الاحتفاظ بخطوط للدخان ، وفي الصباح ، وفي الهياج وتحريك النبات لإقلاق راحة الجراد وتعجيل هجرته .

(١) المصور ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٥

(٢) المادة الثانية - يجوز للسلطة الادارية أن تكلف كل ذكر يزيد عمره عن تسع سنوات ولا يتجاوز خمسين سنة كاملة ويكون معتاداً على أشغال الزراعة بأن يساعد في الأعمال المذكورة بأجرة يقدرها المدير لكل مركز من مراكز المديرية حسب السعر الجارى في الجهة المصابة . (الوقائع المصرية في ٢٠ أبريل سنة ١٩١٠) .

(٣) *Gelechia Gossypiella* - ساندريس . دودة اللوز بالمعنى الدقيق هي : *La Prodenia L'éarias Insulana* ودودة الورق . وهي كذلك ضارة جداً ، هي : *Litura F.*

(٤) وأخيراً ، لنشر إلى السخر العادية والغير المشروعة والتي هي لصالح العمدة ، فلكي يحتفظ الفلاح بحظواته أو يتجنب إعناته يخصص له عدة أيام بدون مقابل .

الفروع مياوما - إن فلاح هذه الحالة إذ يستأجره (ريس) لحفر إحدى القنوات أو تحسين أحد الطرق أو للجنى ، وإذ يجند مع كثيرين آخرين ، يحمل فأسه وينفذ العمل الذى يؤمر به فى زمرة وتحت رقابة ضيقة على طريقة المساجين ، وفى الغالب يكون جد بعيد عن قريته (الترحيلة) (١) . ومن أجل يوم ذى اثنتى عشرة ساعة تقطعه فترة قصيرة فى الظهر يدفع إليه قرشان أو ثلاثة . ولقد قال لنا أحد كبار الملاك ما يلى : « عندنا يدفع الى الفلاح فى العموم ثلاثة قروش فى اليوم سواء أكان ذلك للحرث أم للقطن » .

توجد هذه الحالة على الأخص فى مصر العليا حيث زراعة القطن أقل انتشاراً ، واليد العاملة أكثر تهيؤاً ، والملكية الكبرى سائدة وكذلك فى ممتلكات الحكومة المستغلة فى الزراعة المباشرة .

وحينما لا يكون هؤلاء العمال مرتبطين بملكية ما . وفيما عدا الأشغال الكبرى التى تستأثر بهم يكونون معرضين للتعطل والبأساء . وهناك آخرون أكثر سعادة مرتبطون مساهمة وهم يشبهون « الأوبليجاتى » فى إيطاليا . وفى هذه الحالة يدفع غالباً جزء من أجر عملهم أعياناً طبيعية ، وجزء عملة . فمثلاً يؤجر المالك للعامل فداناً بالأجل ويسقط أجر الايام الممضاة فى خدمته من قيمة الإيجار ، وفى آخر العام يكون الفلاح مديناً أو دائناً حسب أجر الايام المقدمة منه ، أو أن الفلاح لا يتقاضى إلا قرشاً فى اليوم ، ولكن له فوق ذلك غلة فدان ذرة .

(١) الترحيلة هى استيراد رجال يستأجرهم (ريس) لحقل محتاج الى أذرة .

إن الفتنة الكبرى هنا هي أن يقوم الفلاح بأقل مجهود، ولكن ينبغي الاعتراف بأنه بسبب وفرة اليد العاملة قد ظل أجر المياومين منخفضاً إلى أدنى حد، وأن جميع التغيرات التي جلبتها الحرب لم تزده، وأن (الخمس قروش) تمثل حداً أعلى لا يلحق إلا نادراً.^(١) ولقد عرفنا مالكا كان الناس ينظرون إليه كمجنون لأنه كان يدفع إلى عماله على هذا الأساس.

لم يكن هذا الأجر ليكفي لمعيشة الفلاح وأسرته ولكن التكميلات التقليدية من الأعيان الطبيعية كجنات اللقطات، وكهبات الذرة وأحواض الخضر تعوضه في رخاء.

الفروع شريفة - إن حالة المياوم مرتبطة بالاستغلال الكبير، وحالة الشريك مرتبطة بالاستغلال الصغير. يشترك المالك مع الفلاح ليستغل بوساطته قطعة ذات خمسة أفدنة أو عشرة على الأكثر، وهو يدفع الضرائب وتكاليف الري ويقدم المواد الزراعية والماشية والبذور والأسمدة، والفلاح - وهو رب الأسرة - يقدم شغله أي اليد العاملة الضرورية لكل زراعات السنة من الحرث إلى الحصاد، والغاية خارجة، وهو لهذا يتسلم الخمس أو الربع من مجموعة إنتاج القطعة، أو هو يحتمل نصف جميع التكاليف، وإذا ذاك يأخذ نصف الغلة، والعقد - وهو دائماً شفهي - يحمل عدة تغيرات.

لا يشمل هذا النظام على مخاطرة، وهو يحقق للمالك أكبر قدر من العمل، وللـفلاح قوت يومه، ولكنه ضئيل الربح بالنسبة إلى هذا الأخير، لأنه مع مساعدة أسرته وإياه، ومع عناية جميع اللحظات ومعونة كل الأذرع المستعدة لا يستطيع أن يزرع إلا خمسة أفدنة على الأكثر. وفي نهاية العام لا يربح إلا إنتاج فدان أو فدان ورابع أي حوالي اثني عشر جنيهاً مقابل شغل الجميع طيلة اثني عشر شهراً... وهذا

(١) هذا هو الحد الأعلى أيضاً للعمال المستخدمين في النقل وفي الحرف الصغيرة.

إذا كان كل شيء على ما يرام ، لانه ليس من النادر أن ينقص هذا المبلغ ، فعند ما لا يكون لدى الفلاح مال قبل موسم الغلة يطلب مقدماً من المالك ، ليشتري لنفسه (جلبية) أو ليقوم بدفع تكاليف ختان أو جنازة الخ ، وهذه الاقتراضات التي تزيد الفوائد تفوق أحيانا حصته في الشركة ، واذ ذاك لا يتقاضى في وقت إجراء الحساب شيئاً من المال ، وليس هذا فحسب ، بل هو يصير أيضاً رهيناً الى السنة التالية (١).

الفلاح مستأجر

ان الفلاح هنا مقاول أكثر منه في الحالات الاخرى ، فهو يستأجر حقلاً بشرط كمال التصرف من ستة جنيهات إلى اثنين وعشرين حسب الجهات ، وهو يلتزم بكل النفقات ، ولكنه يحتفظ بكل الغلة ، والمالك ليس عليه إلا دفع الضرائب ، وعقد الايجار في هذه الحالة واسع المدى ، فهو في العادة يشمل عصر الترتيب الضروري للزراعة أى سنتين أو ثلاثاً .

ها هو ذا فلاح من ميت غمر ، وهى جهة غنية ، يستأجر فدانين بعشرين جنيهاً للسنة الزراعية ، ويزرع أحدهما قطناً فينتج أربعة قناطير (٢) وكل قنطار يساوى ثلاثة جنيهات ونصفاً تقريباً فيذهب القطن الى المالك أى ان أربعة عشر جنيهاً تسقط من قيمة الايجار ، والفدان الآخر يزرع الفلاح نصفه برسياً ، ونصفه قمحاً في زراعة الشتاء .

(١) في نشرة اتحاد الزراع المصريين بالقاهرة يثنى المسيو كازيفليس على نظام الايجارات الصغيرة كشيء أكثر فائدة للمالك والفلاح (مارس ١٩٣١ ص ١٧٩ - ١٨٥) ويثنى المسيو ابراهيم رطل على زراعة الشركة (مايو سنة ١٩٣٢ ص ٢٧٠ - ٢٧٤) . وكل شيء يتعلق بشروط المؤجر والمستأجر . هذان المقالان ذويا النعمة المضبوطة بينان ضرورة منح بعض الفوائد للفلاح لكي تغل الارض أحسن إغلال .

(٢) ينتج الفدان من أربعة قناطير الى خمسة حسب درجة البذور . وفي سنة ١٩٣٦ كان المتوسط ١٦ ، ٥ وهو إنتاج استثنائى .

فأما البرسيم فستهلكه الماشية ، وأما القمح فينتج إردبين ونصفا ، ثمنها ستة جنيهات تقريبا ، ولكن المؤجر يحتفظ منها باربعة للدفعة الثانية . وأخيراً يزرع المستأجر ذرة في الفدانين ، ولكنه قبل الغلة يجب أن ينتهى مما عليه للمالك وهو جنيهان ، وإذا ذلك يستطيع أن يتصرف في الذرة . وقصارى القول إن إنتاج هذه الغلة الأخيرة هو الذى يعود إلى الفلاح رب الأسرة وبذلك يحقق قوت داره ثم يبيع ما زاد . فإذا سار كل شيء حسنا استطاع أن يربح عند نهاية الحساب ستة جنيهات .

إذا سار كل شيء حسنا . . لأنه إذا كانت الغلة رديئة أو تلفت أو بيعت سيئا فإن المستأجر يجب أن يدفع رغم ذلك القيمة المحددة كما تنص على هذا المادة ٣٩٢ من القانون المدنى المصرى . وإذا ذلك يحدث الخراب . وأحيانا يكون عاما الى حد أنه لا يكون للحكومة بد من أن تصدر مراسيم بقوانين تعين تخفيض الایجارات بنسبة ٢٥٪ أو ٤٠٪ حسب تاريخ العقد (السنوات الزراعية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ و ١٩٣٠ - ١٩٣١ و ١٩٣١ - ١٩٣٢) ولكن الحكومة لا تستطيع التدخل دائما ، والأرض بسبب الطلب تؤجر بأثمان مرتفعة ، ونتيجة ذلك بالنسبة الى الفلاح هى فى الغالب الدمار .

شرح مستأجر تعس كان قد حجز على جاموسه حالته لأحد المحققين على النحو الآتى : « استأجرت فدانين كل منهما باثنى عشر جنيها وأنفقت على كل واحد خمسة جنيهات فى بذور وسماد وما شاكل ذلك ، ولا أقول شيئا عن شغلى وشغل أولادى ولا عن مساعدة حيواناتى طيلة السنة ، وهذه هى النتيجة :

أنتج فدان أربعة قناطير من القطن بيعت باثنى عشر جنيها ، والآخر خمسة أراذب من القمح وسبعة من الذرة بيعت بثلاثة عشر جنيها . وقد أنفقت من هذا الإنتاج الذى مجموعه خمسة وعشرون جنيها عشرة جنيهات فكيف أدفع الایجار وهو (١٢ × ٢) ؟ لم يكن بد من بيع الجاموسة .

- ولكن ما دمت خاسراً ، فلماذا تستمر على أخذ أراض بالايجار ؟

- لأن الزراعة هي المهنة التي ورثتها عن آبائي ، ولاني لا أعرف أن أعمل شيئاً آخر .

- ولكن لماذا تستأجر الأرض بهذه القيمة المرتفعة ؟

لأن ملاك الجهة قد اتفقوا معا على تثبيتها في هذا المستوى ، ولأن الفلاحين لا يعرفون كيف يخفضونها « (١) .

ولقد أضاف الى ذلك قوله : « مادام أنه قد أخذ منا كل شيء فسنسرق » (٢) .

الفصل مائط

لقد رأينا أكثر من مليونين من الفلاحين يملك كل واحد منهم قطعة من الارض وهي بالنسبة الى أربعة أخماسهم صغيرة جداً (من قيراطين الى فدان) الى حد أنها لا تكفي لشغل الأسرة ولا لقوتها ، ومع ذلك فالمالك الصغير بين الصعلكة القروية يمثل الطبقة الممتازة ، والمثل الاعلى لكل فلاح هو أن يصل الى هذا المستوى كما هو أن يتزوج وتكون له اولاد ويملك جاموسة .

ان مالك الحقل الصغير عليه نفس النفقات التي هي على المستأجرين من بذور وسماد وماشية ومواد زراعية (وغالباً هو في شركة) وليس عليه ايجار يدفعه ، ولكن عليه الضريبة ، وهي في أغلب الأحيان دينون ، لان الفلاح - وهو مالى رديء - وليس لديه في العادة ادخار - يستدين ليشتري بذوراً أو أسمدة ، أو ليستأجر الحقل المجاور الذي

(١) ينبغي أن نشير الى أن تراحم العمران يؤثر في قانون العرض والطلب .

(٢) الأهرام في ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ . نحن نترجم

يكبر حصته الغير الكافية^(١) بل - بدلا من أن يدفع ديونه القديمة - هو يشتره .

ولما كانت المصارف لا تقرض مبالغ صغيرة ، فهو يقترض من الافراد الذين هم - رغم قانون سنة ١٩١٢ الذى حدد النهاية العليا للفوائد بنسبة ٩ ٪ - يقرضونه بنسبة ٣٠ ٪ بل ٥٠ ٪ .

غير أنه يجب عليه أن يسدد فوائد هذا الدين إن لم يسدد الدين نفسه ، ولكنه عشا يشتغل شغلا قاسيا مع أسرته الكثيرة العدد ويبدل وسعه بلباقة فى أن ينتج الحقل أكبر قدر ممكن بأقل نفقات ممكنة - وتلك هى ميزة الملكية الصغيرة - فإنه فى أغلب الأحيان يوجد فى موقف سيء وقت الدفع . واذا ذاك يجب أن يسلم ثمار عرقه أو يبيع جزءا من أرضه .

هناك قانون (٣ ديسمبر سنة ١٩١٢) يعلن أن ثروة الأسرة (Homestead) أى خمسة أفدنة فادنى غير قابلة لتوقيع الحجز عليها ، ولكن هذا الاحتياط بانتزاعه من المصارف ضمان قروضها ، قد وقف القرض المشروع عن صغار الملاك وقذف بهم الى المرايين .

الفلاح فى حاجة الى القرض ، نعم انه بخطئه غالبا لا يعرف كيف يستثمر مالا ليس ملكا له ، ولكن الطريقة التى يقرضونه بها تعوض به ، وكل قرض جديد يعمل له محاولة الخروج يزيد من الغوص به : فالدين العقارى هو السرطان الذى يلتهم الملكيات الصغيرة^(٢) .

-
- (١) أو ليأخذه بالشركة . ولقد هيا لنا سكرتير الجمعية الزراعية الملكية أن نلاحظ أن الفلاحين فى هذه الحالة يحولون الاسمدة والماء والمجهود الى صالح ارضهم
- (٢) أن تدفع الحكومة دينه الى المرايين حالة محله ومستوفية تدريجا بمجموعة ديونها من دخله السنوى ، ذلك هو الحل الذى تعرضه .

ومع ذلك فلما كان هو مالك الحقل كان بعنوان ذلك مالك منتجاته ، مالك القطن الذى كان أفراد الطوائف الأخرى من العمال يرونه يؤخذ من أيديهم . تلك البضعة المملوكة له من قناطير تلك الغلة النفيسة يستطيع أن يبيعها لصالحه .

إن الفدان الذى أنفق عليه ثلاثين قرشاً للبذور ، ومائة قرش للسباد الكيمايى وسبعين قرشاً للضريبة والرى وشؤون مختلفة يمكن أن يأتى له بعشرة جنيهات ربحاً . وإذا كان الفلاح أكثر ذكاءً ، فانه يستطيع منذ سنة ١٩١٢ أن يحمل غلته الى سوق القطن (الحلقة) فى المدينة المجاورة ، وهناك الوزن والتمن ترقيهما الحكومة فلا يستطيع التجار أن يخذعوا . وعند ما لا تكون الحاجة الى المال طاغية ، فان المالك الصغير لا يبيع قطنه بعد الجنى مباشرة ، وإنما هو يودعه فى (شونة) أحد كبار الملاك ، أو أحد المصارف ، أو أحد المحالج فى مقابل عربون به يستطيع أن يدفع ديونه الأكثر إلحاحاً وعروض الشراء فى المستودع هى بالقرش والقنطار ، ولكن القطن يشتري أحياناً مقدماً ، أى أنه منذ البذر يتعهد المالك الصغير بأن يسلم الى فلان كمية كذا بدرجة كذا ، وفى هذا الوقت يحدد الثمن أو يحرر عقد أساسى لبيع جزء صغير ، والجزء الآخر يتبع سير (الكونترات) فى (بورصة) الاسكندرية فى اليوم الذى يلائم البائع ، على أن يكون ذلك فى المدة المعينة فى العقد .

غير أن جميع الاحتياطات التى تبغى حماية الزارع الصغير لا تمنعه من أن يظل مخدوعاً فى أغلب الأحيان بسبب جهله وانفراده ببيع قطنه ومنتجاته الأخرى أيضاً

يقرض (بنك) التسليف الزراعى مثلاً على القمح ، ولكن ذلك لصغار الزراع فقط الى أن يستطيعوا بيع غلتهم بثمن أعلى . هذا حسن جداً ، ولكن هناك تجاراً فى القرى يحصلون على شهادات من العمد - وهو أمر هين - تثبت أنهم أيضاً مزارعون وإذا ذاك يشترى من الفلاحين الحقيقيين بسعر مائة وعشرين قرشاً للإردب . ولما

كان هؤلاء يجب عليهم دفع الضريبة والالتزامات ولا يدرون إلى من يتجهون ، فانهم يبيعون لأولئك التجار « المحسنين » . وفي مبدأ موسم الغلة يمكن أن يبدو ذلك صفقة حسنة ، ولكن الإردب في القرية يوازي مائة وخمسة وسبعين كيلو ، على حين أن (بنك) التسليف الزراعي يأخذه على أساس مائة وخمسين كيلو كما في المدينة ويقرض عليه مائة وثلاثين قرشاً (١٩٣٧) . هاهم أولاء ، إذآ ، تجارنا المهرة يودعون في (شون البنك) قمحهم الذي يزعمون أنهم حصده . وعلى هذا النحو يربحون عشرة قروش مضافة إلى خمسة وعشرين كيلو في كل إردب . وهم ينتظرون بدون مخاطرة أنهم - عند البيع الموكول الى عناية (البنك) الزراعي - يتقاضون متما لربحهم

كما أنه لا يوجد بين حقول مصر حواجز ، وإنما توجد حواش وجداول ، كذلك لا توجد بين الصور المختلفة للعمل الذي حللناه أنفأ أسوار صفيقة ، فكل واحد من هذه الاصناف - لعدم كفايته - غير متنافر مع الآخر ، وقليلون من الفلاحين أولئك الذين لا يتجاوزون أحدها الى الآخر أو الذين لا ينتسبون في الوقت ذاته الى أحدها والى الآخر . وحالة الفلاحين نفسها تسبغ عليها جميعها شيئاً من التشابه

(١) بديا التشابه في الفقر : بسبب أن الفلاح لا يعرف التدبير ولا الادخار ، ولكن على الأخص بسبب أنه ضعيف ومنفرد وجاهل ، فإن الاكثر منه قوة وثروة يجني ثمار عمله ، إذ أن المصرف أو المرابي أو الحكومة أو العمدة أو المالك يجني أكبر جزء إن لم يكن كل ما أوصله إلى النضوج بعرق جبهته ، أما هو فإنه يظل فقيراً كـ « الأبرة التي تكسو الناس بينما هي تبقى عارية » (عبارة فلاحية) .

(٢) التشابه في التبعية : لا يستطيع الفلاح أن يغرس ما يريد ولا متى يريد ، فهو اذا كان مياوما يعمل مع زمرة في مهمة جد محدودة تحت أمر المراقبين الضيق . واذا كان شريكاً أو مستأجراً ، فان زراعاته ينظمها رسم المالك ، واذا كان هو نفسه

مالكا فإنه يتبع في التوار يخ وفي أنواع النباتات أوامر وزارة الزراعة وليس لديه أية حرية ولا أى ابتكار لا في الطريقة ولا في الزمن ولا في الاختيار.

(٣) التشابه في تحقق أقل قدر ممكن : مهما كان استغلال الفلاح سيئاً ، فإنه على الأقل متأكد من قوته ، إذ لا يموت أحد في القرى جوعاً ، وفي أسوأ حالات العمل تظل وسائل الأرض باقية .

(٤) التشابه في التعاون الأسرى : ينبغي أن يعتبر المرء دائماً كهماذ لعمل الفلاح عمل أسرته ، ففي الطبقة القروية المصرية تؤلف المرأة والأولاد والجاموسة والحمار رأس المال العادي للاستغلال ، والخلية الريفية المتوسطة الآتية :

الفلاح - وهو رب الأسرة - : يقدم أيام عمله .

زوجته - وهي اليد العاملة المساعدة للبذر والجنى - : تربى طيور المنزل وتصنع الزبد والجبن وتبيع هذه المنتجات .

أولاده : يشغلون بالماشية ويقادونها إلى الحقول وإلى موضع الاستحمام ويلتقطون الأرواث ويراقبون الساقية ويبحثون عن الأسمدة . وفوق ذلك فإنهم إبان خمسة أسابيع أو ستة يستخدمون في مقابل أجر للجنى أو مكافأة دودة القطن أو للحليج في المصانع .

جاموسته : تجر المحراث وعجلة الساقية وما شابه ذلك ، وتدوس القمح وتنتج اللبن والسماد (وهو بول و تراب) والوقود (وهو روث وقش) .

حماره : ينقل الأسمدة والغلة والفلاح ...

هذه الخلية الريفية يمكن أن تحقق عملياً القوت اليومي - وهو الأجر الطبيعي بالمعنى

الضيق - فان عمله في جميع السنة يظفر بنحو عشرة جنيهات على أكثر تقدير .
غير أن رأس مال الاستغلال يستهلك ، وهذا المال الذي كان يجب أن يكون
ربحه ينفق في الضرورات الآتية :

- زيت للطهي ، وخضر متممة ، ولحم أحياناً ، وسكر وشاي ٢٠٠ قرش
- زيت أو بيترول للمصباح وتجديد للمواد المنزلية (كالثقل والصحفة)
- أو الزراعية (كالمقطف) وكلاً الصيف للجاموسة والحمار » ١٠٠
- كساء جديد (جلبية أو فستان) لكل عضو من الأسرة في فرصة العيد ١٥٠ »
- نفقات المرض والخراقات والمتع والغرامات ٥٠ »
- نفقات فوق العادة ٥٠٠ »

وتحت هذا العنوان الأخير الذي هو الإمكان الوحيد للاقتصاد توجد دائماً إما
نفقات الختان ، أو نفقات الجساسة ، أو نفقات الزواج أو المهر ، أو نفقات الغدية
العسكرية ، وأحياناً تطبع الميزانية بطابع العجز .

بينما حددنا فيما يتعلق بالدخل النقدي عشرة جنيهات كحد أعلى ، فإن إنفاق
عشرة جنيهات هنا يمثل الحد الأدنى . وهذا هو السبب في أن توازن ميزانية الفلاح
يتصدع بسرعة الى هذا الحد ، وأن الديون والفوائد ترهقها في أغلب الأحيان .

وإذا لم يتحتم لحسن الحظ أى واحد من تلك الإنفاقات الغير العادية ، فإن
الفلاح بجمعه قرشاً قرشاً في قدر يدفنه في الأرض يستطيع في النهاية تحقيق حلمه وهو
شراء جاموسة أو بضعة قراريط من الأرض .

هذا الإمكان الأخاذ - لأنه دائماً قريب - يجعله يستأنف في كل عام بدون
كل نفس العمل . . . مثل الأرض ومعها .

الفصل الخامس

جسم الفلاح

شغل مادی ، وعمل جسم ، بل عمل كل الجسم . هكذا رأينا عمل الفلاح فلننعتبر الآن الأداة في ذاتها ولنلاحظ جسم الفلاح في أرومته ، وفي نموذجه ، وفي حياته ، وفي زينتته ، فانا سنجد فيها فعل الماء والأرض والشمس ، وهي عوامل مادية تشرح بنية الفلاح الجسمية وأحياناً تحددها .

ومع ذلك ففي وسط هذه التبعية المادية تبدو حرية الانسان في عدم تطابقها مع البيئة ، ولكنها إذ ذاك تخضع لقيد آخر ، وهو قيد التقاليد ، فنظل النتيجة كما هي ، وهي الثبات .

١ - الأرومة والنموذج

ألى أية أرومة ينتسب الفلاح العصري ؟ ما هو سلفه ؟ وأين موضع أصله ؟ نحن نضع هنا أسئلة لم يستطع أحد إلى الآن أن يجيب عليها أية إجابة نهائية ، ومع ذلك فانا لم نعدم الباحثين ولا النظريات الفرضية ، ولا الأخيلة في هذا الموضوع ، ولكي لا نصعد إلى ما وراء القرن الثامن عشر ، فإن « فولنيه » مثلاً يؤيد أن المصريين هم من أصل أسود ، و « فيغان دينون » يعزو اليهم أصلاً قوقازياً ، « وپوانسينيه دى سيفرى » يظن - تبعاً لـ « بلين الأصغر » - أنهم ينحدرون من السيلت . ويرى « وينكيلمان » أن هجرة صينية هي التي توضح المشكلة ، ويلجأ « مورودى جون » إلى البولينية ، ليجد مهد الأرومة المصرية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أخذ علماء الأرومات - بوسيلة أكثر علماً ورجحاناً - يبحثون في جوار مضر : في افريقيا أو في آسيا عن مفتاح المعضلة .

ولقد أيدت « هارتمان » ثم « ف. بيتري » و « ماسبيرو » الأصل الافريقى ،

وهذان الأخيران يربطان المصريين بالآيتوبيين .

أما « شانتير » فبعد إجراء مقاييس علمية على أجسام بشرية تبلغ عدة آلاف من العصرية والقدية قد استنتج أن المصريين - دون أن يكونوا من أرضهم نفسها بهيئة إطلاقية - هم أفريقيون جوهرًا (أى من أرومة ليبية) وأنه إذا كان هناك تسرب آسيوى ، فإنه لم يؤثر فى الأصل . (١)

ويظن « شوينفورت » معتمداً على علم النبات ان شبه جزيرة العرب الجنوبية هى نقطة ارتباط الأرومة المصرية . على حين يُعْتَمَدُ أن «أميلينو» و « دى روجيه » و « ج . دى مورجان » - وسلطانه العلمي أقوى من سالفه - معتمدين على الدراسة الموازنة للغات والفنون والأخلاق والخصائص البدنية يرون فى كلدان أرومة الأسرة المصرية ، (٢)

والنظرية السائدة فى الوقت الحاضر - لأنها أقل بساطة - هى التى قد تكون أكثر قرباً من الحقيقة ، ونحن نوجزها فيما يلى : قبل التاريخ لابد أن يكون آسيويون (سواء أكانوا عرباً أم بابليين) قد احتلوا وادى النيل فامتاعوا رغم سيادتهم فى السكان الذين كانوا مستقرين من قبل ، وهم خليط من بني البلاد ومن الآيتوبيين .

هذا رأى الجامع الذى أتى بعد القضية وضدها فيه ميزة الإلمام بالأسانيد المتناقضة التى عليها تتأسس الآراء المتعارضة ، وهو يسمح بإدخال المصريين فى مفهوم « إنسان البحر الأبيض المتوسط » السامى الخامى الذى يشغل إفريقيا الشمالية

(١) « إرنست شانتير » . . بحوث علمية حول مقاييس الجنس البشرى فى مصر ، وهو ٣١٨ صفحة ويشتمل على ١٥٩ رسماً ، ليون ، ريه ، سنة ١٩٠٤ .
(٢) « ج . دى مورجان » ، « بحوث حول أصل المصريين » ، باريس ، ليرو ، سنة ١٩٠٩

وجزءا عظيما من آسيا الدنيا وشواطئ البحر الأبيض والذي ينم أحيانا عن بعض مشابهات إيتيوية عند حدوده مع الأصول السوداء .

إن دراسة جوانب الأوجه المرسومة في الصور الخائطية والهياكل المكتشفة في الحفائر المختلفة تضطر المرء إلى الاعتراف حقاً بثلاث أرومات مبدئية : الساميون "dolichocéphales" دوليكوسيفال (أى الذين تفوق أطوال رؤوسهم أعراضها بنحو الربع) وهم ذوو قامات متوسطة ، وأبناء شواطئ البحر الأبيض المتوسط "brachycéphales" براكيسيفال ، (أى الذين تسكاد أعراض رؤوسهم توازى أطوالها) وهم ذوو أنوف مستقيمة قصيرة ، واللوبيون وهم براكيسيفال وأنوفهم مقوسة ، ولكن الحياة الزراعية والمناخ قد مزجا هذه العناصر الوطنية بالأجنبية لِيُسَكُونَا الجنس المصرى بالمعنى الكامل أى الفلاح ، وهو جنس واحد فى جوهره كوادى النيل .

ومهما يكن من الأمر ، وإذا كنا لا نعرف بالضبط من أين أتى المصريون القدماء فإننا نعرف بهيئة يقينية أن سكان البلاد الحاليين ، أو الفلاحين على الأقل ، وهم الذين يعنوننا قد انحدروا من الشعب القديم الفرعونى ، وهم يخلفون - دون انقطاع إبان خمسين قرنا ودون اختلاط تقريبا خلال الفتوحات - المصريين الأسريين الذين يعرفهم التاريخ

نحن نقول بدون اختلاط تقريبا ، فى الواقع أن العبودية والاحتقار اللذين كانا الشعب الأصلى يرسف فيها منذ بدء زوال عصر الفراعنة قد حفظا جنسه : فالفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيون والانجليز قد تبعوا فى هذا الشأن سياسة واحدة وهى سلب ثروات مصر والسيادة عليها بسبب ذلك ، ولكن دون أن يشاركوا الشعب المنتج أو يختلسوا مكانه . ولما كانت مصر مأهولة بقاطنيها فلم تكن قط مستعمرة معدة للتعمير ، ولم يكن المتسعمرون كثيرون العدد إلى حد يكفى لتغيير الجنس ، فبقى نوع حياتهم مختلفا وظل الاتصال مقصوراً على المعارضة .

ومع ذلك فقد وجب التغلغل بواسطة الجوار من الرُّحْل والسود . وثبَّت الغزو العربي الناشئ من الفتح الإسلامي (في القرن السابع) كثيراً من الرُّحْل في المدن ، ولكن أيضاً في القرى المصرية . وقد فرض العرب بقوتهم كفاتحين على سكان البلاد لغتهم ودينهم وطائفة من عاداتهم بإزاء النساء وصلابتهن ، غير أن الأهليين الأَكْثَر عدداً مائة مرة - ولا سيما في القرى - ونساءهم الأعظم خصوبة والأشد قوة ، ونوع حياتهم وثباتهم ، كل ذلك قد طبع العناصر العربية بطابع النموذج المصري . فعند ما استقر العرب على الأرض السوداء اعتنقوا تقاليد الحراثين القروية . ولا يزال المرء يلاحظ ذلك إلى اليوم في الدلتا العليا التي كانت الهجرة العربية فيها أكثر قوة (وهي أراضٍ أكثر غنى) وفي الدساكر الطارئة التأسيس على هامش الصحراء . وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال لم تعد الطعمة تمتاز عن الشجرة ، أو إذا كانت شديدة التباين معها ، فإنها لا تنال من مائها ، إذ الامتزاج بالنموذج في الواقع مرتبط بالامتزاج في نوع الحياة . فالعرب الذين ظلوا رُحْلاً والذين يكلفون بنقل القطن على الجمال والذين يقودون القطعان والذين ينهبون ويقتلون ، وهم الذين يدعون في مصر بالبدو ، هم يختلفون بوضوح عن الفلاحين بتقاسيم وجوهمهم الأكثر دقة وأمزجتهم الأشد عصبية .

هناك اختلاط آخر ينتج في الجنوب بين السود والفلاحين . ولما كانت العناصر هنا أعظم تبايناً ، فإن الاختلاط يبدو بهيئة فاتحة ، ولكن النموذج المصري هو الذي يسود ، وكذلك ابتلاعه العناصر المجاورة والتي هي بالتالي تشبهه قليلاً . هذا الانمياح في شعب مستقراً أكثر صلابة وأكثر عدداً ، هو ظاهرة منطقية ولو كان الغزاة أو المهاجرون ملايين أو كانوا قد أتوا من بلاد الجيرمان أو البلقان ، لكان من الممكن أن يفرضوا نموذجهم رغم تأثير المناخ ونوع الحياة . وفوق ذلك ، فإن الصحراويين : الشرقية والغربية وعمق الجنوب وبعد وادي النيل عن المركز الأفريقي قد حفظت

البلاد من كل هجرة شاملة بقدر ما حفظها ازدحام السكان الأصليين .

ساعدت هذه الأسباب الجيوغرافية والتاريخية على حفظ النموذج المصرى ،
فالأهلون القرويون على الأخص يحتفظون بسحنة تميزهم عن الاختلاطات التى
لا تخصى مع الشرق الأدنى .

قيل إن الأقباط يمثلون بهيئة أتم نقاء النموذج القديم ، وهذا حق فى المدن حيث
الأقباط هم الوطنيون على حين أن المسلمين فيها ينحدر أكثرهم من العرب أو الترك ،
وهم يرتبطون بنساء من جميع الأقطار . وفى هذه الحالة يكون الفرق العنصرى
والبدنى جلياً ، ولكنه فى القرى لا يتحقق ، فالفلاحون الذين ظلوا مسيحيين والذين
صاروا مسلمين (وهم ٨٨ ٪ من الأهلين) هم من أرومة واحدة . وإذا كان أولئك
لا يتزوجون إلا فيما بينهم لأسباب دينية ، وبهذا يحتفظون بالجنس ، فمؤلاً يسلكون
الخطئة نفسها بدافع التقاليد ، إذ النفور بين الفلاحين والبدوي يجعل الزواج بينهم نادراً
إلى أقصى حد ، ومصاهرة الأجنبي الذى تلجئه حادثة ما إلى الثواء فى القرية هي
أشر الفضائح . وهكذا كان النموذج العام متوحداً بهيئة تكفى لإمكان وصفنا إياه
دون هوى شخصى .

الفلاح ذو بنية سميكه ، ولكنها ليست بدنية ، وجمجمته ووجهه عريضان ،
وجبهته ضيقة ، وعيناه وشعره سود ، ووجنتاه بارزتان إلى حد ما ، وأنفه سميك ،
وشفتاه ضخمتان ، ولكنها ليستا مقلوبتين ، وفكه ثقيل ، وتقاسيمه غليظة فى
مجموعتها ، ولكنها ليست فظة ، وهى ليست كثيرة التحرك ولا عظيمة الدلالة ،
ومواضع الربط من جسمه قوية ، وهى تميزه من البدوى ، فعنقه ورسغاه وكعباه ربعة ،
وظهره مقوس ، وكتفاه ليستا منخفضتين ولكنها منحيتان على الصدر ، أما ردفاه
فمضغوطان ، وقدماه كبيرتان ومبسوطتان ، ومتوسط قامته متر وثمانية وستون سنتيمتراً

وعلى هذا النحو النساء مع الاحتفاظ بجميع النسب ، ومع ذلك فيبدو أنهن قد احتفظن بنقاء النموذج أكثر من الرجال (١)

هذه هي خصائص جنس ونموذج . نعم لم تنعدم المغايرات كما هو الشأن في كل كائن حي ، ولكنها لا تصل إلى حد التضاد ، بل تبقى في حدود الفوارق الدقيقة . وهكذا يستطيع المرء أن يلاحظ :

أولاً أن الجمجمة (٧٥ تقريباً) وهي أقوى من ذلك بوحدة في مصر السفلى

ثانياً أن هناك انعطافاً طبيعياً إلى السواد بقدر ما يتقدم المرء نحو النوبة . ولقد سجل ذلك المقريري وعبد اللطيف في القرن الرابع عشر . وكل الرحالة الذين يصعدون إلى أسوان يستطيعون أن يلموا بذلك .

ثالثاً أن الصعيد أكثر سمره بسبب الحرارة ، وأكثر صلابة ، وأقوى عضلاً (لجفاف المناخ) وهو أطول من فلاح الدلتا .

٢ - معاملة الجسم ولباسه

إن الجهاز الشعري قليل النمو ، والفلاح يحمل شعراً قصيراً إلا متى صدم الموت ذكراً من منزله ، ولكنه يحتفظ عن طيب خاطر بشاربه كإحدى علائم الرجولة ، فإذا صار شيخاً موقراً أرسل لحيته . وعندما كان طفلاً كان أهله يحلقون رأسه تماماً ولا يدعون منه إلا الخصلة الطقوسية .

أما شعر النساء فلعدم العناية به يظل ضئيلاً ، وهن يطلن بحبال صهباء أو سوداء

(١) الدكتور أباب باشا ، وثبات الجنس في المرأة المصرية ، نشرة الجمعية الجيوجرافية ، القاهرة مجلد ٦ من صفحة ٤٦١ إلى ٤٧٠ .

غداثرهن الهزيلة التي هي دائماً مخبوءة تحت النقاب أو محتواة في منديل ، وإزالة الشعر هي - منذ أقصى العصور الأثرية - عامة لدى الجنسين ، وهي تؤدَّى بالموسى ، أو بوضع ونزع (كرملة) من سكر وشبة (وهي الخلاوة) .

ككل الشعوب القديمة التي تحتفظ بنفسها يختص الفلاحون بشراتهم بتجميل وصحة وتقاليدهم يتلقونها ويتناقضونها منذ زمن لاتعيه الذاكرة : فالتشريحات واللقطات والطلاءات كلها ترمى دفعة واحدة إلى التجميل والوقاية والعلاج .

تثقب شحمتا أذنى الفتاة الصغيرة واثقب أحياناً أحد حواجز أنفها ، وإلى أن تنال هذه الثقوب أقراطها تحفظ بخيوط .

أما الغلمان جميعاً سواء أ كانوا مسلمين أم أقباطاً ، فإنهم - فيما بين السادسة والعاشرة - خاضعون للعملية ، للتقليد الاحتفالى ، تقليد الختان ويجريه حلاق القرية

وفي بعض الأحيان - وكان ذلك فيما مضى أكثر وقوعاً - تجرى عملية البتر للفتيات ^(١) . وعلى الضد من ذلك في بعض الحالات وفي بعض الجهات تثقب اذن الغلام اليمنى .

لا يشرط الفلاحون وجوههم كالنوبيين (البرابرة) ولسكنهم يلونونها . .

بديابالوشم الذى يؤلف العلامة المميزة للشعب : فالرجال والنساء موسومون بها منذ المراهقة . فى وسط الجبهة ، أو فى وسط الذقن ، أو على الصدغين ، أو على ظهر اليد ، وهى تقط أو صور هندسية ، وعلى الصدر ، وعلى الظهر أو على المعصم ، وهى

(١) يدهشنا أن يعلن المؤلف أن ختان الفتيات لايجرى إلا أحياناً ، وأنه كان فيما مضى أكثر وقوعاً ، لأن الذى نعرفه هو أنه يحدث دائماً وبدون استثناء . المترجم ،

رسوم ساذجة وغير ماهرة كسيف أو شجرة أو اسم أو تاريخ ، وعند الاقباط صليب مختلف تزيينه بالزهور كثيرة وقلة . لا يكاد وشم الفلاحين ينخفض عن الحاصرة ، وهو ليس ماجنا البتة . والذي يصنعه اختصاصي ، وهو في أغلب الاحيان بدوى : رجل للرجال ، وامرأة للنساء ، وهو يقوم به في الهواء الطلق في احدى زوايا الطريق وفي يوم السوق . وطريقة عمله بدائية ، وهي تحدث تورما مؤلما . في المكان المعين وحسب النموذج المختار يرسم الفنان بقوة ، الخط فوق الجلد بألة مديبة مؤلفة من خمس أو سبع إبرجد مبحوكة ، أو بنوع من الأختام معد لطبع الوشم ثم يلون الرسم الدامي بسواد الدخان ممزوجا بالزيت أو بالكحول فيحصل بهذا على لون أخضر ثابت .

أما صبغة الحناء للشعر والأيدى والأقدام أو للاظافر فقط ، فهي تجمل مصرى عريق ، إذ هي تصعد إلى الأسرة العشرين . وقد قوى العرب (١) استعمالها . استعمال الحناء شيء دقيق ، فمن مسحوق ورقها الناعم تصنع لزقة ويجب أن توضع حارة ويحتفظ بها حسب - درجات الجودة - من ثلاث ساعات الى أربع وعشرين ساعة . واذ ذاك يحدث منها لون أحمر برتقالي أو أسمر يبقى نحو خمسة عشر يوما .

تصبغ الأيادي شعورهن بالحناء لاستعادة الشباب وللشباب والشابات لتنظيف رؤوسهن ولقتل القمل ومنع سقوط الشعر وللتجمل . وكذلك تصبغ بالحناء جماجم الأطفال المخلوقة للصحة ، ولكن أيدي النساء وأقدامهن وأظافرهن لا تلون على هذا النحو إلا في الحفلات الكبرى مرة أو مرتين في العام .

(١) « فوند يرهيدين » « الحناء عند مسلمي افريقيا الشمالية » في مجلة الإفريقيين ،

أما الكحل^(١) فيبرز بالسواد الأهداب والحواجب ويوسع العيون التي هو يستعمل في تجميلها كما يستعمل في وقايتها . وليس هناك امرأة لاتستعمل هذه الزينة الاقتصادية لها ولبناتها . ففي يوم العيد أو التعب تضعه في مهارة بالمرود المغموس في المسكحلة .

الختان هو فن من فنون العلاج ، والوشم هو طائفة من التشريطات الطبية ، والحناء لزقة صحية ، والكحل من أدوية العيون (قطرة) لأن هذه التجهيزات الصناعية التي نصفها تمثل في الوقت ذاته بالنسبة إلى الفلاحين علاجاً للوقاية أو للشفاء ، وأيضاً هي كفعل سحري فالختان يكرس ، والوشم يرمز والحناء تعيد الذكرى ، والكحل يقصى العين الحاسدة ، وليس هناك ترف بدون مغزى أو منفعة .

لايستحم الفلاحون للتلذذ أو للنظافة ، فحسبهم انغماسهم في الماء لعملهم أولديهم (التطهرات الاسلامية) .

في كل مساء الوضوء التعبدى الذى يشمل الأيدى والأرجل والوجوه والأعضاء التناسلية يحقق للرجال على الأقل الحد الأدنى للاستعمال الصحى للماء . أما الأطفال فهم يعيشون في الماء عندما يستطيعون ذلك أو حينما ينبغي إحماء الحيوانات ، وأما النساء فينغمسن فيه جماعات وهن في لبسات المتفضل ليغسلن الملابس ويقستلن في الوقت ذاته . بالطمي أو بقطعة من الحشب أو الصابون وهناك قرى عديدة لايقستل فيها النساء حقاً إلا في فرصة زواجهن ثم مرة في كل عام يوم العيد الأكبر .^(٢)

(١) تراكيبه متعددة ولكن الغالبة فيها أساسها من الأثمد مع خليط من نباتات محترقة ومن سواد الدخان ورماد السكندر وهكذا .

(٢) يدهشنا هذا التعميم حتى في بعض القرى لأنه لا بد للمرأة المسلمة من تطهرات شرعية ضرورية تسكرر كثيراً وترغمها على الاغتسال . (المترجم)

كيف يلبس الفلاحون ؟ - هنا نعثر على غرابة مصر ، فإذا كان كثير من أفعال وعادات الحياة اليومية عاما لدى جميع قروى العالم أو على الأقل لدى جميع القرويين الفقراء أو القرويين المسلمين فإن الفلاح - في طريقة لبسه - يمتاز بوضوح ويعرف في الحال . فكلما يوجد في الأرض والنموذج كثير من الوحدة كذلك لا يوجد هنا أيضا أى شيء من التنوع الذى يميز الحداثة ولا من التعقد والتوشية اللذين يجعلان الملابس القروية في سوريا وفلسطين ولكن الأولى بنا أن نذكر شيئا من التفصيل :

غطاء الرأس عند الرجل يتحدد إلى أبسط مظاهره ، فهو يغطي قمة الرأس ، ولكنه لا يحميه من الشمس ، وهذا الغطاء المصنوع من الصوف الكستائي اللون (لبدة) يميز الفلاح المسكين إلى حد تعين نمودجه ، إذ هو في الواقع يدعى بـ « أبو لبدة » وهو البطل الشعبى لقصص عدة ، وهذا الغطاء يصنع أحيانا - وللاطفال دائما تقريبا - من البيكّة البيضاء (طاقية) . وعندما يكون الفلاح أكثر سعة أو أكثر تدينا ففي الظروف الكبرى - وذلك في الجنوب على الأخص - هو يحيط غطاءه بقماس أبيض (أثر عربى) وهو يستعمله أيضا لتغطية العنق . واللبدة الجيدة هي العميقة التى يجب أن تصل إلى الأذنين تقريبا . وفي هذه الحالة تكلف ثلاثة قروش ونصف قرش . أما (الجلبيه) فهي الجزء الأسابى من ملابسه ، وهى ثوب أزرق قائم أو مائل إلى البياض مصنوع من القطن . هو نوع من الأقصة بدون رقبة وبدون حزام ، مقفل إلى أسفل الصدر ، وطويل إلى السكبين ، (وكماء) طويلان وهو أميل إلى الاتساع . ولما كانت مفتوحة قبالة الصدر ، فهي تسمح برؤية أزرار الصديرى وخطوطه . يلزم ثوب الشاب خمسة أمتار من النسيج المتوسط الذى يساوى من ثلاثة قروش إلى ستة ، والخياط يتقاضى ثلاثة قروش على خياطته .

وعند الشغل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه إلى ركبتيه ويرفعه إلى حزامه على صورة

قميص قصير ، أو ينزعه ويطويه ويضعه في مأمن إلى أن يستعمله كوسادة في ساعة الراحة . وإذا ذاك يبدو في لباس أبيض وسروال واسع يغطي ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحبل صغير ، وصدره فوق القميص الذي يهفف طرفاه على منتصف الفخذين فوق السروال ، ولكن عندما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته ، بل قميصه ويشغل عارى النصف الأعلى .

وقدماه أيضاً فستان دائماً ، ومع ذلك فهو يملك بوجه عام نعلين سميكين ضخمين من جلد أصفر ، هما تحميان القدمين إلى الكعبين ولكنهما تدعان العقبين مكشوفتين . وهو يلبسهما في الأعياد أو بعد الوضوء ، وهذه الأحذية هي صناعة محلية وتدعى : بلغة (١)

أما الأطفال فهم عراة تحت جلابيبهم التي هي أقصر وأميل إلى البياض من جلابيب الرجال .

وملابس البنات أكثر تعقداً إذ تبقى فيها الخاصرة متميزة . هن يلبسن ألواناً صارخة وأنسجة قطنية ذات نقوش متعددة الألوان ، وشعورهن دائماً محجوزة في مندبل من شاش موصلي معقود من زواياه ، وأحياناً يضعن كأزر فوطاً جميلة يشترينها من السوق . أما النساء فحين يخرجن يغطين رؤوسهن ، وعندما يلتقين برجل يحجبهن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود (٢) لماع أو منطفيء يمتد إلى القدمين ويصيرُ أشباحهن مرنة .

أما ثيابهن فهي في الغالب أقل قتوماً منذ أن بدأت الأسواق تعرض منسوجات

(١) ليس انتعال البلغة عاماً في قرى مصر كلها ، وإنما هو شائع في مصر السفلى ، أما مصر العليا فالشائع فيها انتعال (المركوب) وهو نعل فظ أحمر . (المترجم)
(٢) هذه (الملايا) هي ذات لون كستنائي قائم في جهة قننا .

أجنبية ، وهى مقفلة عند العنق والرسغ ولا تضيق عند الخاصرة ، وهى فى أغلب الأحيان تنتهى بوشى يلامس الأرض . وتتألف الملابس الداخلية من قميص طويل أحمر أو وردي أو منقوش بعدة ألوان ، وسروال واسع ملون كذلك ، والفلاحة هى الخائطة لكل هذا بلامهارة ، ولكنها ليست هى الناصجة

فى الواقع - ماعدا بعض المستثنيات التى ستقل ندرتها شيئا فشيئا بانشار مصانع النسيج المصرية أن المنسوجات القطنية والأقمشة الأخرى التى تستعمل ملابس للفلاحين ترد على الأخص من اليابان وإيطاليا والهند . وصبغتها الزرقاء أو السوداء تصنع فى البلاد وكذلك عمل الملابس : فأما (الجليلة) والفستان فيصنعان بالقياس ، وأما القميص والصدرة والسروال و (اللبدة) وماشا كلها فتصنع جملة وهناك وسطاء من اليهود يأخذون على عوانتهم تموين القرى الكبيرة بالأنواع والكميات الضرورية ويجرى البيع قرب الأعياد الكبرى . وأما النساجون والشيخوخ الذين يغزلون الصوف فهم يقدمون إنتاجا ضئيلا .

وعلى الملابس النسائية حلى صارخة تبدى عبوسها ، وعلى العنق عقد من أحجار صفراء أو زرقاء ، وحول المعصمين ، حسب الثروة ، عدة أساور من الزجاج أو الفضة أو من الذهب ، وحول الساقين الخللخال وهو حلقة صفيقة من النحاس أو من الفضة ، وهو يحل محل خاتم الزواج ويجب على المرأة أن تحمله دائما ، وهى تستطيع أن تبيع كل شئ ماعدا خلخالها . وللحداد العائلى هى تنزع قرطها وعقودها وأساورها ولكنها لا تنزع الخللخال إلا عند موت مولاه أو سيدها . وقد ماها لاثملاان جور بين طويلين أو قصيرين ولكنها فى بعض الأحيان تثملاان نعلين كنعلى الرجال

هذه المجموعة من البساطة الظاهرية تشف عن شعب متمدين منذ زمن طويل كما تم أيضا عن مطابقة مرنة للمناخ والحاجات . ولما كانت ملابس الفلاح رخوة

وواسعة وبسيطة فهي تحقق لجسمه التنفس ، ولأعضائه الحرية وهي تحفظ للشبح ذلك الخط الانساني الذي ينسجم مع المنظر الطبيعي ، ولكنها على العكس لما كانت قائمة وجالبة للحرارة - وعلى الأقل بالنسبة إلى النساء واغطية رؤوس الرجال - فهي تجتذب حدة الشمس بدلا من ان تسكرها . ولا فراط طولها هي تثقل المشية وتجمع التراب ومع ذلك ففوائدها تفوق اضرارها والعادات التي تحتفظ بالملابس الريفية كما هي نُسِبَتُ حكمة

٣ - الصحة والمرض

ليست ملابس الفلاح أكثر عزلاً له عن العناصر الطبيعية من عمله ، فهي لا تفصله عن الهواء ولا عن الشمس ولا عن الأرض ولا عن الماء ، وبالاندراج في هذا الوسط هو يتلقى قوة الحياة الطبيعية كاملة ، فجلته المتينة الصلبة المقاومة هي على وفاق مع الطبيعة ، ونومه ليس في حاجة إلى حشية ولا إلى رفينة أخرى ، والجروح الغضبية في جسمه لا تجعله يصرخ ، وأنواع الزكام والصداع والروائح المقيئة لا تضايقه ، ورغبته في الأكل (شهيته) لا تعرف التقزز ، وعلى العكس من ذلك سمعه الدقيق يسمع أقل ضجيج .

غير أن هذه الطبيعة الصديقة ، في أغلب الأحيان مع الأسف ، تنقلب ضد جسمه الغير الحذر وتقل إليه أمراضاً عفنة تشوهه وتضنيه . نحن نقصد التحدث عن الأمراض المحلية المتوطنة في الطبقة الريفية . لن نقول شيئاً عن السل والجذام الوراثيين اللذين يعيشان في رفقة طيبة مع الفلاح ، فالبلهارسيا والانكلستوما والمالاريا تحدث اتفاقاً وتصيب في بعض المديرية أكثر من ٨٠ ٪ من الأهالي ، وهي كلها تأتي من عدم النظافة ومن الاتصال القوي بين الرجل والأرض ، ولكن أول ما يلفت أنظارنا هو أمراض العيون . فإذا كان لون الحقول الأخضر يريح الأعين ، فإن حدة

الشمس و سطوع الضوء ، وأ كثر من ذلك أيضاً الغبار السميك الذى ليس هناك أى مطر يصصره ، والرياح الرملية الهابة من الصحراء القريبة ، والوحل والذباب ، كل ذلك يتضافر على إلهاب الأعين منذ الطفولة و يقيحها إن لم يطفئها . لا يجتاز المرء أية قرية دون أن يسترعى انتباهه عدد العميان والعور الذين يسرون فيها ، وهم ٦ ٪ من الوطنيين ، ففي سنة ١٩٣٧ مثلاً أثبت الإحصاء الرسمي وجود ٢٦٦٥٥٠ شخصاً سلب كل منهم إحدى عينيهِ و ١٠٠٠١٠ مصابين بالعمى الكامل . وفى سنة ١٩٣٧ بلغ عدد العور والعمى فى مديرتى المنيا وأسيوط ٥٠٠٠٠ والعدد الواقعى هو أ كثر من ذلك ، لأن الأعين الرمداء والدامية والحجبة بخضرة البياض وبالحبوب غير قابلة للحصر .

إن الضوء التعبدى الذى يؤدى بأى ماء كان ^(١) ، وفى الغالب فى جماعة ، وحفاة الأقدام فوق الارض المبللة أو فى أحوال القنوات يدخلان بواسطة الجلد إلى أجسام ٩٠ ٪ من الفلاحين طفيلات البلهارسيا ، ^(٢) لأن ديدانها المحلية الأصلية تنمو فى الرطوبة وفى مياه القرى الراكدة . ومنذ مشروع الرى هي تنمو فى مستنقعات المياه الناشئة من المصارف والقنوات السيئة التكوين والتجفيف .

ليس البول الدموى خطراً فى ذاته ، ولكنه فى الغالب يتعقد بسبب عدم العلاج ويحلب الحصى فى المثانة والقروح والنواسير فى القضيب ويمكن ان يصعد التقيح الى السكلى والسكبد ، بل الى العين ، وعلى الأخص هو يبقئ سنين طويلة : ثمانى عشرة أو عشرين سنة . . . ويتعود الفلاح على ان يتبول دمماً كرفاقه وان يعانى حياة ضعيفة .

(١) بقصد المؤلف الماء الذى تتوفر فيه الشروط الصحية الكاملة وأن كان مشتملاً على شروط الطهارة الشرعية .

(٢) الدكتور « تيودور بيلهارس » المتوفى فى سنة ١٨٦٢ ألمانى الجنس ، وكان أستاذاً فى مدرسة الطب بالقاهرة اكتشف فى سنة ١٨٥٨ الطفيلي الذى كان الى ذلك الحين سراً والذى يسبب ذلك المرض المتوطن فسهل محاربته .

تنتقل البلهارسيا بواسطة البول ، والانكاستوما بواسطة البراز والارض ، وهي كالبلهارسيا من امراض المجتمع ، وباء دائم ، وهي مثلها تدخل بواسطة دودة من مسام الجلد ، وهي اقل عموماً من البلهارسيا ، ولكنها اشد منها خطراً ، لأنها تستهلك الكرات الحمراء (١)

ولما كان الفلاحون لا يستعملون الدمن الانسانية للتسميد ، ولا يستخدمون الكنف لجلبهم هذا العمل ، أو لعدم استطاعتهم التعود عليه . فإنهم يضعون أبرزتهم في كل مكان . فاذا كانوا مصابين بالطفيليات . فستوجد بعدد تلك الابرزة مراكز تهدد الرفاق الذين يسرون حفاة أو يتمددون بدون احتياط على الارض . لان الديدان تنتقل عدة أمتار في الظلام وتقيم في بقعة مرطوبة . ومنها تسلك سبيلها تحت الجلد إلى الامعاء .

لقد رأينا من هؤلاء الفلاحين وتلك القلاحيات أفراداً ممتعين متفخين ضعفاء بسبب ذلك المرض الفظيع الذى لم تستطع جلبتهم المتينة ولا سنهم - وهي من ٢٥ إلى ٤٠ سنة - ولا العلاج الذى منحوه أن يقاومه .

أما الملاريا المنتشرة بواسطة حقول الأرز (البرك) فهي تهاجم ٦٥٪ من الفلاحين وفى بعض قرى الشرق يصل هذا العدد إلى ٩٠٪ والذى يصير هذه الأمراض الثلاثة مرعبة أكثر من خطورتها هو انتشارها ونموها ، وذلك التآمر الاشعورى ذو النتائج الذى يساهم فيه الفلاحون أنفسهم بعملهم وحياتهم لإدامة الأمراض .

(١) مصلحة الصحة العمومية : تقارير وملاحظات . الانكاستوما والبلهارسيا فى مصر ، مطبعة الحكومة القاهرة فى سنة ١٩٢٤ ، ١٩٦٠ صفحة مصورة ، وهذا السفر يحتوى على مراجع كاملة عن هذين المرضين ، وهو يبين أضرارهما فى قرى مختلفة من مصر والمجهود الذى تحاوله الحكومة لتقليلهما .

وينبغي من ناحية أخرى أن ننوه بذلك القدر اليسير من نتائج الاحتياطات التي تتخذها الحكومة لمحاربتها .

لقد أسست في كل بندر (عواصم المديرية والمراكز) ضد هذه الأمراض المتوطنة الثلاثة مستشفيات خاصة ولكنها لا تفيد إلا مرضى القرى المجاورة مباشرة ، فالآخرون لا يغادرون قراهم إلا بصعوبة ، وليس في القرى مؤسسات صحية أفيدهبون إلى المركز ؟ وإذا ذهبوا إليه ، فإن طبيب الحكومة وصيديته الرسمية لن يكفيا . وفي المحادثة الآتية صورة صادقة لهذه الحالة : « قلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرنا والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيهم السكوت والمستشفيات تملأ المدن وتقدم إليك العلاج مجانا وترد إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فاجاب وهو يتسم ابتسامته الحزينة : لا طبيب في القرية ؛ وحتى لو وجد فلا طاقة لي بأجره وثن ما يصف لي من دواء ، أما المستشفيات فلن أستطيع أن أترك أطفالي وزوجتي ، وأين أعيش في بنها ؟ وأنى لي ثمن طعامي وأجر مسكني ؟ إنى أفوض أمري إلى الله (١) » ولقد قال لنا عمدة من أصدقائنا : « إنه فيما مضى كان حتما على الفلاح لذهابه إلى المستشفى أن يقطع ثلاث ساعات على الحمار رغم حالته . والآن نحن أنشأنا صيدلية مجانية في القرية نفسها ، والطبيب يأتي إليها أربع مرات في الأسبوع ، وفي أثناء غيابه يستطيع المريض أن يدعو بالتليفون . وهكذا صار علاجه أسهل من ذي قبل »

إذا كان الفلاحون يستغيثون بالخلق إلى أن يموتوا من معالجته ، فذلك لأنه هو الطبيب الوحيد الميسور الوصول إليه كما قلنا ذلك عن المرابى بالنسبة إلى المصارف ومن آيات هذا أنه حين تصل المؤسسات الطبية المتنقلة إلى قرية ما ، يسرع كل الفلاحين ليعالجوا ، وهم يذعنون في ثقة وبدون تأفف لسكل معالجة . وهناك مثلا مستشفى طحطا المتنقل : استأجرت وزارة الصحة العمومية قطعة أرض لمدة ستة أشهر ثم أقامت

عليها خيام قسم الأوبئة، وهو في مجموعته نظيف، وقبل افتتاحه أعدت له دعاية واسعة في القرى المجاورة وكان الافتتاح رسمياً، وظل طبيب وكيميائي وستة معرضين في خدمة المرضى الذين يعالجون مجاناً، فجعل ثمانون شخصاً يرهون إليه في كل يوم منهم خمسة يشربون مضابون بالانكلستوما، وثلاثة فقط بالبهارسيا، ولسكننا في مصر العليا.

ومع ذلك فهذا المجهود القيم من وزارة الصحة يتلاشى في ضخامة الحاجة، وذلك فضلاً عن أن عادة الفلاح تقف مفعوله في أغلب الأحيان. لهذا السبب لا تغلت الأمراض القرويين. ولو أنهم - إلى أن تتحسن الحال - كانوا يلاحظون النصائح والوصفات التي تقدم إليهم بإسراف! ونحن نحبب بأنهم: لو أرادوا ذلك لما استطاعوه، لأن حالة حياتهم الوقتية تعارضه بكل الوسائل. وهنا توجد كل المشكلة.

٤ - ما يشربون وما يأكلون

إن مشكلة الماء هي في الحل الأول، ولكن لا تحت مظهر رى الأرض، فقد درس ذلك بطرق عدة، وإنما تحت مظهر غذاء الإنسان الذي هو أكثر حيوية. مصر بلد حار، وعمل الفلاح يجعله يتصبب عرقاً، فيكون في حاجة أكثر من غيره إلى أن يروى غلته.

أى ماء يشربه الفلاحون؟ أماء البشر (الارتوازي)؟ حتماً يثبت مالك العزبة مضخة (طلبة) أم ماء النيل الحى. وإن كان جارياً؟ وذلك في القرى التي يمر بها النهر. ولكنهم في أغلب الأحيان يشربون ماء قناة الرى المتعطن الراكد هناك حيث تستحم وتبول الماشية والأناسى وحيث تغسل الخضير والأواني والملابس، وهناك حيث تلقى جثث الحيوانات تذهب النساء ليغترفن الماء «الصالح» فيحضرنه في جرارهن وصفائحهن في الساعة

المعينة ليملائن (الزير) وهو جرة كبيرة مسندة إلى حائط المنزل ، في كل مساء تحضر الفلاحة حوالى ثلاثين لتراً لاستهلاك اليوم التالى وتضيف هذا الماء إلى ما يبقى دون أن ينفذ أو ينظف القاع ، ويسكن الماء طول الليل فيصفو قليلا بوساطة الرسوب ويبرد ايضا بوساطة التهوية من خلال مسام الفخار ، أما القطرات التى تنفذ بوساطة الترشيع والتى يمكن أن تملأ (القلة) بماء جد نقى لشرب الصباح ، فهى تضيع على هيئة بركة أو تستعمل لشرب الدجاج .

ومع ذلك فالحكومة تدرس فى نشاط مسألة تعميم الماء الصالح فى القرى ، والمشروعات تتكدر ! .

قد أضاف الإنسان لذته فى كل زمان إلى الماء بعض المشروبات ولم يشذ الفلاح عن هذه القاعدة . هو لا يشرب النبيذ ، لأن دينه يحرمه عليه ، وثروته لا تسمح له به ، ورأسه لا يكاد يحتمله .

لا يستهلك الفلاح مقداراً كبيراً من البن الذى جلبه إلى مصر صوفية اليمن فى نهاية القرن الخامس عشر ، هو يستعمله أقل من سكان القاهرة كثيراً ، ومع ذلك فحين يذهب إلى السوق يتذوق ممتناً فنجالا صغيراً أثناء لعبه الترد مع رفاقه (١)

إن الاستعمال المفرط للشاى منذ الحرب العظمى - وتلك بدعة سرت من طرابلس - قد حل محل استعمال القهوة ، وهو ليس منتشرأ فى اجتماعات الرجال فحسب ، بل فى صميم الأسر القروية

إنها قد تعودت على أن تشربه عدة مرات فى اليوم وبكمية كبيرة : أطفال ومراهقون ، رجال ونساء ، كلهم يلزم له الشاى . وبعض الفلاحين يحملون معهم

(١) فى سنة ١٩٣٥ استوردت مصر ٧٨٨٨ طننا من البن الأخضر من جاوا ، وسانتوس واليمن .

(بكارهم) إلى الحقول . وأشدّهم فقرًا ينفق على الأقل ثلاثين قرشًا في الشهر ثمنًا للشاي والسكر الضروري له . وحينما لا يكون لديهم نقود لشراؤه يتمددون على الأرض ولا يستطيعون عمل شيء . « لقد سألت في إحدى القرى : لماذا لا يرى المرء المواشي وهي ثروة القرويين ؟ فأجابني المسئولون بأنها لم تعد موجودة ، إذ أنها قد بيعت واشترى بثمنها شاي ، فالشاي قد صار ضروريًا كالخبز » . هذا هو تصرّيح لمولاي خزام أسقف طيبا .

يغلى الشاي حتى يسود لونه فيحصل منه على مغلى قوى سميك غنى بـ (التانين) وبالقلويات يحدث مع طول الزمن اضطرابًا في المعدة وفي الجهاز العصبي ويضعف التكوّن العام ، ويترك في الخلق أثرًا سيئًا ، ولكن هذا قليل الأهمية مادام أنه يسلى وينسى . إن الشاي الأسود قد أضحى مذهل الفلاح ، وفي بضع سنين صارت الواردات منه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ^(١) وكذلك صيرت الحكومة رسوم الدخول ثلاثة أضعافها حيث رفعتها من قرشين ونصف القرش إلى سبعة قروش ثم إلى ثمانية قروش ونصف عن كل كيلو ، لكي تصير الشاي متعذرًا من الناحية المالية ، ولكن الشر لم يقل ، لأن من تعود عليه يستغني عن الآخر كل ويلجئ أسرته إلى الجوع بدلًا من أن يتخلى عنه . وعلى الضد من ذلك لم يزد رفع الجمر على أنه صير خطي خراب الفلاح وتدهور صحته أسرع من ذي قبل .

من نشارة الخشب وقشر الفول وأوراق (الملخية) وأشجار الحور اليابسة ، ومن الشاي المستعمل الذي يجمع من الفنادق والمقاهي والبواخر ، من كل ذلك ملونا ومحصا يصنع التجار شايًا مزيّفًا يبيعونه للفلاح التعس حينما لا يستطيعون جلبه بوساطة التهريب

(١) ٧٨٨٣ طنًا من الشاي قيمتها ٨٣١٢٣٤ جنيهًا استوردت من الهند وسيلان في

نحن نعتقد - مهما بيد ذلك ناييا عن المنطق - أنه يوجد اتصال بين نمو هذه الرغبة الحادة في التسمم وانتشار مشروع الري ، ففي الواقع أنه ثبت أن هذا الاختراع الذي ضاعف ثروة مصر قد هيا الجو للبلهارسيا والإنكاستوما وغامها . ولما أضعف هذان المرضان الفلاح وقللا من كفايته للعمل ، فقد لجأ إلى المنبه الذي تحت يده . وبما أن الرجال هم أكثر إصابة من النساء بسبب حياتهم في الحما والماء ، فهم كذلك أكثر استهلاكا للشاي « الأسود » (١)

أما التبغ الذي عود على الجو المصرى في مبدأ القرن السابع عشر فلم تعد زراعته مستطاعة منذ الأمر الصادر في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٠ وهو يستورد من إفريقيا وتركيا واليابان ويحضر هنا (٢) . وهو يكلف الفلاح ثمنا باهظا ، وهو كالتقهوة استعماله أكثر لافعة بين شعب المدن .

بوجه عام يأكل الفلاحون ثلاث مرات في اليوم : عند شروق الشمس قبل الذهاب إلى العمل (فطور) . وعند الساعة العاشرة (٣) في الحقل (غداء) ، وعند الشفق في منازلهم (عشاء) . هم يأكلون جاثين (والفلاح دائما يجلس على الأرض) وبأيديهم . ويتناول العمال في العموم غذاءهم في الهواء الطلق ومع الجماعة ، فيجلس كل واحد منهم أمام صحيفة من الصاج أو من الفخار أحضرتها له زوجته ، و (قلة) الماء تمر من فم إلى فم .

(١) أنظر التقرير السنوى عن سنة ١٩٣٨ للمكتب المركزى للدخدرات ومع ذلك ففي دراسة فنية ظهرت في مجلة المسائل الاجتماعية (يولية سنة ١٩٤٠ من صفحة ٩٤ إلى صفحة ١٠٦) تحت عنوان « هل الشاي الأسود مضر بالصحة والاقتصاد الريفيين ؟ » ، يعتقد الكاتب المجهول أنه يستطيع الإجابة بالسلب .

(٢) لأن اللغافات المصرية الشهيرة مصنوعة من تبغ مستورد إذ قد أريد تجنب خطر الحشيش مع ارضاء تركيا .

(٣) إن الذى نعرفه هو أن الفلاحين يتناولون طعام الغداء بعد الساعة الثانية عشرة لافى الساعة العاشرة . المترجم ،

والوجبة الأساسية هي وجبة المساء حيث تطبخ الاطعمة وتؤكل حارة مع لاسرة ، والطعام يطهى بالزيت ^(١) على (وابور) أو في فرن المنزل بوقود من أرواث البقر المختلطة بالقش (الجلة) .

ولما كان الفلاحون لا يربون الحيوانات ، وكان اللحم غالباً نوعاً ، فإنهم قليلاً أكل اللحوم بحكم الضرورة . هم يأكلون الضأن والبقر على الأكثر مرة في الأسبوع وعلى الأقل في العيدين : الأصغر والأكبر أو حين يذبح حيوان بحادثة . وإذ ذاك تكون وليمة يزدد فيها كل واحد قطعاً ضخمة . وأشدهم فقراً - لكى يشبعوا على هذا اللحم مجاناً - يترقبون أن يذبح ثرى بسبب نذر أو حداد ثوراً أو جاموسة و يوزع لحمها .

وإذا كانوا من أهل شواطئ النيل أو القنوات الكبرى أو البحيرات ، فإنهم يصطادون بالجاية أسماكاً صغيرة يعدونها بالزيت ، ولكن مجموعة طعامهم عادة خالية من اللحوم ، وهى : بصل ولفث وفلفل وخيار ، ويؤكل نيئاً . والخضر المطبوخة هى الباميا والملخية ^(٢) والفلاحون فيها جدش رهين ، والفول وهو طعام وطنى ، والدباء ، وأخيراً العدس والأرز اللذان يخلطان بنسبة الثلث والثلثين (كشرى) وهو أكثر تحضيرهم تعقداً .

(١) الطهى بالزيت مألوف لدى الاسر القبطية ، أما المسلمون فلا يستعملون الزيت إلا لقليل السمك وماشأ كله « المترجم » .

(٢) هما مادتان لزجتان ، فالباميا التى تدعى فى فرنسية مصر بـ « القرن الاغريقى » تحمل الاسم العلمى : « hibis cus esculentus » والاسم الاسبانى « gombo » والاسم الانجليزى « Okra » . وقد وصف ابو العباس الشافعى الذى زار مصر فى سنة ١٢١٦ بوضوح الباميا التى تؤكل مطبوخة فى الماء المالح (راجع و. بوا) ، والنبات الغذائى لدى جميع الشعوب ومن خلال العصور ، وهو ٥٩٣ صفحة لوشفالييه ، باريس سنة ١٩٢٧) كان المصريون القدماء يأكلون من هذا الخضار وكذلك الملخية : « torchorus olitorius » . راجع « هارتمان » « الزراعة فى مصر القديمة » ص ٦٣

وفي موضع الحلوى ، أى حينما تتاح لهم الفرصة يأكلون قمرًا أو يقضمون بكل أسنانهم قطعة من البطيخ ، أو يمضون عودًا من القصب ، أو يقرضون (كوزًا) من الذرة الشامية .

تحدث الأمكنة والفصول بعض التغيرات . . . متتابعة لاجتماعها . فالطعام العادى هولون واحد يضاف اليه غالباً قطعة من المش ، وهوجين حامض مصنوع من لبن الجاموس أو المعز ، ومحفوظ فى الماء المالح ، ويستهلك فى مصر من أقصاها إلى أدناها .

وأدم الفلاحين هو ملح دمياط الخام ، والعسل الأسود المصنوع من طبخ عصير القصب ، لأن الفلاح يستعمل فى الطعام العادى قليلا من الملح والسكر المكررين وفى يوم العرس أو الختان أو المولد يشترى أنواعاً من الحلوى الحشنة وتلك الملبسات الصغيرة (الأرواح) الحمراء والخضراء التى يحبونهاهم وأطفالهم إلى الجنون ، ولكن أساس طعام الفلاح ينحصر فى خبز الذرة (البتاو) الذى هو فيما يتعلق بالحرارة يمثل ٨٠ ٪ مما تقدمه مجموعة أغذيته ، ونصف « البروتئين » الموجود فى طعامه ، والشاب يأكل منه كيلو ونصف فى اليوم . ألفى الاختصاصيون بالإحصاء أن هذا « الخبز الكامل » يحتوى من (المغيزيا) على ستة أضعاف ما يحتوى عليه خبز حوانيتنا

(MgO 1,988 , Ca O 0,284 , K2 O 2,886 .)

لاتدق حبوب الذرة فى الهاون كما يدق الدخن فى أفريقيا السوداء ، ولكنها تطحن على نحو ما يحدث فى كل الشرق الأدنى بين حجرين (١) ، وتلك هى الرحا البدائية التى توجد أيضاً فى المغرب ، وهى مكونة من أسطوانتين فى عرض ٥٠ سم ، وسمك ٥ سم ، والتى تلامس الأرض منهما ثابتة فى حين أن العليا تدور حول محور ، وفى وسطها ثقب يوضع منه الحب المراد طحنه . وهناك يد من الخشب مثبتة رأسياً عند

(١) كان الطاحن على الرحا شائعاً فيما مضى . اما الآن فقدحات محلها المطاحن البخارية المنتشرة حتى فى أفاصى القرى ولا توجد الرحا القديمة الا عند الرجل من البدو . المترجم ،

حافة الطاحون المتحركة ، وهى تستخدم لإدارتها . وهذه العملية كجميع عمليات الخبز تقوم بها النساء . يعجن الدقيق المضاف إليه قليل من الحلبة والدخن والقمح ، أو الفول ، ويوضع فوق قطعة من الخشب على صورة قرص مستدير رقيق ، قطره ٣٠ سم تقريباً وهذا العجين المنضج فى فرن المنزل ينتج منه خبز أسمر ذو طبقتين بدون لباب ، وله طعم شهى . لا يوجد خبازون عموميون ، ولكن كل أسرة تعد خبزها مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع . وفى مصر العليا خبز الفلاح أصغر (١٢ سم تقريباً) وهو أسمر . وقد قال لنا أحد العمال من جهة أرمنت : انه يأكل منه حوالى عشرة أرغفة فى اليوم .

إن الخبز الذى يصنعه الفلاح من الذرة التى زرعها ، والخضر التى استبتتها فى أطراف حقله أو التى اشترتها زوجته من السوق ، وهى أقل جودة ، والجبن أحياناً عندما يكون لبن الجاموسة قد بيع كله ، وبالأجمال إن المنتجات الأقل اقتصاداً فى الجهة التى يوجد فيها هى التى تؤلف الغذاء العادى له ، وهذا كله يجعل طعامه غير متغير وغير مستفيض ، ولكن هل هو من أجل هذا يأكل أقل مما ينبغى . يقال ذلك ويعاد . ويرى المسيو « شرومف - بيرون » على العكس أن فى المنتجات التى تؤلف غذاء الفلاح ، بل فى الماء الذى يشربه الرقمة العادى للمعدنيات .^(١) ويبدو أن عمل الفلاح وصحته ومقاومته البدنية تؤكد هذا رأى . على حين أن انتشار « البلاجر » والنسبة العالية جداً فى رفض الشباب لعدم صلاحيتهم للجندية (وقد قيل : إنها ٨٠ ٪) يبدو أنهما يثبتان عدم كفاية التغذية . وهكذا اذا كانت الأرض السوداء التى تحتضن الفلاح مثل لسان « ايزوب » - أى أحسن الأشياء وأسوأها - تعطيه القوة والمرضى : فما تحتويه الأرض من المعادن والنباتات الغذائية التى تنبت

(١) الأستاذ « شرومف - بيرون » ، محتويات غذاء الفلاح من المعادن ، مجلة معهد مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٢ صفحة ١٥٣ - ١٧٥ .

فيها تقوى الأناس الذين يستهلكونها ، والعفونات الجرثومية الموجودة في الأرض
المبتلة وفي الطفيليات التي تتناسل بكثرة تضعف الأناس الذين يعيشون فوق هذه
الأرض ويستعملون ذلك الماء .

وهكذا يتكون في الجسم بهذه الحركة الطبيعية المزدوجة توازن عملي يخلق من
الارومة القروية جنساً متيناً كما يلاحظ ذلك رغم كل شيء . ولهذا نحن نرى أن عدم
التدبير الصحي والمرض ونسبة الوفاة ، وبالاختصار هذه البأساء الجسمية التي وصفناها
والتي منراها أكثر من ذلك أيضاً في سكنى الفلاح ليست هي أكبر تعاساته .

الفصل السادس

القرية والجماعة الريفية

من المستحسن أن يذكر المرء دائماً الفلاح بصيغة الجمع ، لأنه يعيش عادة في جماعة بل في جمهور ، ففي الحقل إذا كان شريكاً أو مستأجراً أو مالكا هو يعمل مع زوجته وأولاده ، وإذا كان أجيراً فإنه يشتغل في شراكة من رفاقه غارزين بغؤوسهم أو بأذرين بأشاراتهم متصاحبة .

وفي داخل هذا العالم المغلق الضيق الذي تمثله له قريته هو يعمل في الهواء الطلق وأمام العموم أكثر مما يعمل سرّاً في منزله . فالنساء يذهبن جماعات لاغتراف الماء والأطفال يتلهون متزاحمين . والوجود اليومي هو جماعي واشتراكي ، ولكن لفهم الجماعة القروية جيداً ينبغي أن نعرف القرية .

إذا رأى المرء القرية من الخارج في وسط الحقول أو إلى جانب الصخور الصخرافية البيضاء الفاها كومة طينية جاثية على الأرض ، كثيفة مشوشة متوجة بحزم . وهناك بضعة مبان أكثر أهمية مبيضة بالحصص (أبراج الحمام ومنازل الأعيان) تفصل من هذه الكثرة من الخطوط المنكسرة . وهناك أيضاً نخل أو سنط أو جيز أو لبخ يشرف على تلك المجموعة ويربطها ويخفي دماستها . وهذه الباقات من الأشجار المجتمعة أو المنتشرة والتي هي في أطراف القرى أو في أوساطها تحدث تحت نور مصر تأثيرات فخمة . وقد خصص المسيو « برون » صفحة من « جيوغرافيته الإنسانية » (ص ١٥٠) لرسم هذه اللوحة . ونحن لا تتبعه . إذ نريد - خلال هذه الشاشة السحرية التي يتوقف عندها المرء غالباً - أن نلم بالحياة الواقعية .

ولما كانت القرية سابقة على تنظيم النهر، فهي لا تسير شاطئه بالضبط، وإنما هي تحتوى منه على بعد يتراوح بين مائة مترو كيلومتر، وهي تمتد على حافة الوادى عند حدود الصحراء (وذلك فى مصر العليا) أو تنكمش فوق كوم^(١)، أو تل وهو خرائب قرية قديمة، أو تل صناعى أو مرتفع من الجسر، وفى الجهات التى لم يعد الفيضان يخشى فيها تؤسس القرية فى الزراعة وعلى مستواها. ولهذا تكون قليلة الظهور، ولكنها دائماً مضغوطة.

القرية قائمة فى أى موضع كان، وقد سلب قرب الماء ووحدة مستوى الأرض وتشابه طبيعتها الجيوغرافى كل إيضاح من شأنه تحديدها. وقد يكون لدى التاريخ فى هذا كلمته الحاسمة، ولكن منذ الذى سيعرف يوماً ماضى هذه الأربعة آلاف قرية المنتثرة طولاً وعرضاً فى وادى النيل.

ومع ذلك فمن الممكن شرح انضغاطها بأنه قد اريد الا يضحي إيهام من الأرض وبالأولى إذا كانت أكثر خصوبة وأسهل ربا. وإذا، فلكى يتزعزع أقل قدر ممكن من سطوح الأراضي المنتجة فإنه يضيق إلى أقصى حد موضع السكنى الذى لا ينتج شيئاً.

كانت الأرض والقرويون إلى القرن التاسع عشر كما رأينا ملكاً للحكومة ولبعض كبار الملاك ولم يكن للفلاحين أية فائدة فى أن يعيشوا فى دساكر منعزلة، وفوق هذا فى ذلك العصر المضطرب كان العرب الناهبون وقطاع الطرق الكبرى يسلبونهم فى سرعة مالههم.

ومن ناحية أخرى، فلما كانت القرية - فيما يتعلق بالضرائب والتجنيد

(١) فى مصر مائة وعشرون قرية تحمل كل منها اسماً مسبقاً بكلمة (كوم)

والتحقيقات وسجل الأملاك - هي ممثلة الوحدة المسؤولة في نظر السلطة ، فقد كان يجب على القرويين أن يقيموا فيها . ولهذه الأسباب لم تكن الحكومة تسمح لهم بالتواء خارج البلد ولا يزال ذلك معمولاً به إلى اليوم .

إلى تلك الأسباب القديمة المدعمة بالعادات ينبغي أن يضاف نمو عدد الأهالي وارتفاع ثمن الأرض ، وتقص الأمكنة إذ أن سجل سنة ١٩٠٧ قد حدد نهائياً موضع كل قرية .

تلك القرى ذوات البضع المئات أو البضعة الآلاف - وذوات الخمسة عشر ألفاً ليست نادرة - تلوح عليها جميعها ملامح أسرة واحدة ، أسرة كبيرة العدد ، ففي الواقع لا شيء يشبه القرية المصرية أكثر من قرية مصرية أخرى . وهنا أيضاً نجد الوحدة وتماثل الأنساق التي لوحظت عدة مرات .

يستطيع المرء أن يميز قرى مصر العليا عن قرى مصر السفلى كما يميز فلاح هذه الجهة أو تلك ، ولكن التشابه هنا أكثر لفتاً للنظر . خذ صوراً لقرى مختلفة واسأل شيخاً مصرية : هل هي من الصعيد أو من الدلتا . فإنه سينخدع في أغلب الأحيان ذلك لأن نفس النوع من السكان ونفس اللون من الحياة هما اللذان يؤلفان عين القرى ، وهما اللذان يمنحان ذات المظهر للمواضع التي يشغلانها من أطراف عاصمة المديرية كالمنايا مثلاً .

يمكن تمييز البلاد بدرجات الأهمية ، فعوالم المراكز ومقار الأسواق ، ومحطات الأولياء هي بلاد ضخمة ، بل مدن صغيرة بها أكثر من غيرها تجارة وحركة ومؤسسات ، (مصارف ومحكمة وقسم بوليس ومحطة) ولكن أحياء الفلاح منها لا تتم عن حضارة ولا عن رفنية أكثر من القرى الصغيرة ، والدساكر وهي أجزاء منفصلة ، ولكنها تابعة كمزب كبار الملاك ، وكلنجوع القائمة على هوامش الزراعة

والتي هي تعين ثواء البدو ، تشف عن نموذج أكثر تواضعاً .

وهنا أو هناك لا يكاد مستوى الحياة يتغير ، ودراسة قرية متوسطة تقتاد الى معرفة جميع القرى الأخرى .

لأخذ بلدآ ما ، وليكن س مثلاً ، وهى قرية كاملة ولننظر قبل أن نتغلغل فيها ما يوضح من الخارج حياتها العامة ، ولنقترب من « ضواحيها »

لقد قيل إن الكنيسة هي التي تخلع على القرية الفرنسية منظرها . وكذلك في مصر يعتبر المسجد أو الكنيسة القبطية هما المؤسساتان الأحسن بناءً والأعظم رحوبةً ، ولكن هندستهما لا تدلان على شيء جدير بالملاحظة وهما حتى مع المئذنة والناقوس لا يميزان القرية لأنهما لا يخرججان من الفاقة ولا من العامية المحذقتين بهما .

يسيطر دين الاسلام على خمسة وتسعين في المائة من الفلاحين ، والأقباط حوالى مليون تقريباً ، منهم أربعون ألفاً كاثوليك وهم يعيشون مختلطين بالمسلمين في نفس القرى ، كل يعمل بعمليته .

يلاحظ الفلاحون المسلمون بقدر المستطاع - وهنا لا تعتبر النساء ولا الأطفال - أركان الاسلام الخمسة التي هي :-

(١) الاعتقاد بالله وحده .

(٢) الصلاة .

(٣) الصوم .

(٤) الزكاة .

(٥) الحج .

هم مع جهلهم يعرفون ذلك على الأقل

وسنحدث فيما بعد عن اعتقادهم بالله .

أما الصلاة فهم يقومون بطقوسها بعد الوضوء مساء^(١) ، و يوم الجمعة مرات عديدة وإذا ذلك يدعون الحقول للنساء والأطفال ويلبسون دعوة المؤذن فيتجهون إلى المسجد أو إلى الموضع الذى يحل محله ، وهو مربع من أرض مستوية محوطة بجائط ارتفاعه حوالى ثلاثين سنتيمترا على شاطئ الماء . وهناك يصلون جماعة أو على الأقل يصورون هيكل حركات الصلاة . هم يستمعون جاثين على الأرض أو على الحصير إلى المأذون^(٢) الذى يقرأ لهم سورة من القرآن .

وأما الأقباط ، فهم يحضرون يوم الأحد القداس القبطى الطويل ، ولكن الجماعة هنا أكثر أسرية فالنساء والأطفال يشهدون الصلاة والناشيد .

لا يفهم المسلمون^(٣) عربية القرآن الأدبية ، ولم يعد الأقباط يفهمون اللغة القبطية ، ولغة الجميع فى مصر من أقصاها إلى أدناها هى العربية المدعوة بالعامية ، وهى لهجة مختلفة عن لهجتى سوريا والمغرب بقسط عظيم من مفرداتها . ليس فى مصر نفسها لهجات محلية خاصة لهذا الاقليم أو لذلك ، ولكن هناك عدداً ضخماً من التعبيرات والكلمات المختلفة ، وفى الجنوب نطق حلقى يبنى بالصعيدية ، والثقافات تنطق جيبات .

(١) ليست صلاة المسلمين فى المساء فقط وانما هى خمس صلوات فى اليوم فى أوقات معينة ولا يمتاز يوم الجمعة عن غيره من الايام الا بصلاة ظهره الخاصة مع الجماعة .
« المترجم »

(٢) المأذون هو الذى يقوم باجراء عقود الزواج بين المسلمين ولسكنه فى كثير من القرى يؤدى وظيفة الامام فى الصلوات .
« المترجم »

(٣) لا ريب فى ان المؤلف يقصد عوام المسلمين .
« المترجم »

الصوم : يؤدي الفلاحون المسلمون صيام رمضان بلا هواة كما يؤدي الأقباط الصيام الكبير . فعند أولئك هو شهر حرمان كامل منذ الفجر إلى غروب الشمس ، وعند هؤلاء أكثر من مائتي يوم في السنة حرمان من كل طعام من منتصف الليل إلى الظهر .

والزكاة : أيضاً لا ينفلت منها الفلاحون ، فهم يقومون بها في حدود ثرواتهم بدون شح . هم لا يتصدقون بمال ، ولكن بأعيان طبيعية : هبات للعيان وخدمة العبادات ، ومن هم أشد منهم فقراً ، وهذا فضلاً عن الهدايا الفريضة أو الاضطرارية . أما الذهاب إلى مكة ، فلا يزاوله إلا النادر من الفلاحين ، وذلك في حفلات بطولية ^(١) . وعند عودة الحاج السعيد بعد غياب ستة أشهر أو ثمانية ^(٢) يحتفل به كأنه بعث بعد موت ، وهو يحمل إلى قريته بركة الأئمة كن المقدسة . ومفخرته التقية تميزه من بين الجميع ، وأبناءؤه يستفيدون من مجده ، ولا يعود الناس يدعونه من الآن فصاعداً إلا بالحاج فلان ويسجل حجه على منزله ، إذ هو يبيض واجهته بالجلس ويرسم عليها صوراً ساذجة لرجال أو عربات أو بواخر مصحوبة باسمه وبتاريخ حجه . وعلى هذا النحو نفسه يصنع الفلاح القبطي عند عودته من أورشليم ، وإذ ذاك يدعى بالمقدس .

والموضع الآخر أكثر زيارة شعبية من المسجد ، لأنه لا تميز فيه السن ولا الجنس هو : ضريح « القديس » حامى القرية الذى يدعونه بالولى أو الشيخ أوسيدى فلان .

(١) يريد الإشارة إلى حفلات الابتهاج التى تسبق رحيل الحاج إلى الاراضى المقدسة « المترجم »

(٢) كانت مدة الحج تستغرق عدة شهور قبل إعداد المواصلات الحديثة أما الآن فهى لا تكاد تستغرق شهراً بل أياماً إذا اراد الحاج ذلك « المترجم »

يقام الضريح خارج القرية في ظل أشجار هي مبجلة ، وأحياناً بالقرب من بئر أو قناة ، وهو على صورة مكعب ذي خمسة أمتار في خمسة مستطوف بقبة ، والكل مبيض بالجير .

ليس جسم الولي دائماً في داخل الضريح ، وإنما يوجد فيه فقط قبر خال للذكرى ، وخوص ، وشموع ، وقطع من قماش ، وخصل شعر ، وكمية من طلائع الثمار كندور . والرجل الذي يعنى بالضريح تكفله الجماعة أو يعيش من دخل مؤسسة (وقف) وأحياناً تكون وظيفته وراثية .

إن يوم المولد السنوى للولي هو عيد كبير للقرية يذهب فيه جميع السكان الى المكان المقدس ويقومون فيه بالطقوس التقليدية من : رقص ودوران حول الضريح وتعاويد وهم جرا .

هناك وعلى بعد كاف من مدينة الاحياء توجد مدينة الاموات . تقوم المقبرة في أرض قاحلة أى على خرائب (تل أو كوم) لقرى مهجورة أو فوق حافة الصحراء الى جانب الصخور في وسط الرمال .

للوصل الى المقبرة ينبغي أحياناً اجتياز النيل كما في المنيا ، وتألف قرية الموتى من قبور فردية مضغوطة بعضها الى جانب بعض ، وهي مستطيلات مبنية ومحفوجة بـ (الاسمنت) ، وفوقها عمودان ، أحدهما عند الرأس واثانيهما عند القدم أو كلمة بسيطة مميزة بمحجرين أو بغصنين من سعف النخل يغرمان مستقيمين ويجددان في كل عام أو طبقة من الاحجار البيضاء مشورة فوق التراب الذي ردمت به الحفرة ، وليست هناك نقوش ولا زهور ، ولكن كل أسرة تعرف مكان موتاهم وتأتى اليه في اليوم الاول من العيد الاكبر ^(١) حيث ينتقل كل القرويين الى المقبرة ، لكي يعظموا فيها

(١) ليست زيارة القبور قاصرة على العيد الاكبر بل هي مألوفة كذلك في العيد الاصغر . « المترجم »

موتاهم ويأكلوا ويستمتعون فوق قبورهم . وفي ذلك اليوم تبدو القرية كأنها مهجورة على نحو ما يحدث في أكتوبر عندما يرحل الجميع لجني القطن ، ولكن لتتوقف أيضاً عن الدخول .

في اللوحات الفنية المرسومة للقرى المصرية تشاهد باقة الاشجار وحمة المنازل الرمادية وهي تتراءى في مرآة أحد الغدران ، ولكن هذا الغدير في الواقع هو مستنقع أخضر اللون خارج عن المألوف بقدر ما هو ضار . وكل القرى تقريباً مبهورة بثله ، ويمكن أن يقال : ان الضرورة هي التي دعت اليه . فلبناء المنازل ، ولصنع الطوب ، ولتحويل أحد تيارات المياه ، أو لتقوية أحد جسور السكة الحديدية ، أو احد حواجز الماء تؤخذ المواد من مواضعها أى من أقرب أرض ، وهكذا تخلق وتخفر وتتموثم تملأ ماء تلك المستنقعات الواسعة (البرك) التي تستخدم مساقى للحيوانات وحمامات للاطفال ، وأحياناً آباراً للمنازل يغترف منها النساء

ردمت الحكومة نحو خمسين من هذه المساوى للأمراض ، ولكن لا بدون أن تلقي أية مقاومة من جانب الفلاحين^(١) الذين تلقى بهذا العمل عاداتهم . ولقد تطلب ردم ثمانية عشر من هذه المستنقعات اكثر من عشرة آلاف متر مكعب من الارض

على مقربة من المستنقع وخارج القرية دائماً يمتد البيدر الذي تجفف فيه الحبوب وتدرس (الجرن) وهو موضع مغطى بأرواث البقر والتراب على مستوى واحد ومقسم الى مربعات متراصة ، ومساحته تلتئم مع عدد الأسر التي تستعمله ، و (الجرن) هو من المنافع العامة فلا يستطيع أحد أن يدعى ملكيته ، على أنه متسع بالقدر الكافي لأن يذرى كل فريق مؤلف من عشر شراذم حبوبه في دوره وهو يستعمل أيضاً

(١) يسرنا أن نشاهد ان مقاومة مثل هذه الاصلاحات قد بدأت تقل بفضل

كميدان عام وموضع للاجتماع ، ولكن في أغلب الأحيان تضم إليه لهذه الغاية أرض خالية ، وعلى مد البصر بعد ذلك يلمح المرء كومة مكونة من القمامة وجثث الحيوانات . ولقد كان من الممكن أن تفوق تلك السكوة المنازل في الارتفاع لولا أن الكلاب والحدأ تأتي بنظام لا تقاصها ، وأن الفلاح يأتي إليها لينقب فيها عن السماد ، وكانت تصير أكثر خطراً على الصحة العامة من المستنقعات لولا أن الشمس تطهرها .

في خارج القرية أيضاً - ولا سيما في الفيوم وفي مصر الوسطى - تنتصب الى ارتفاع عشرة أمتار أبراج مربعة وبها خطوط بيضاء وسوداء ، وأسسها القوية (٧ م x ٧ م) تخلع عليها مظاهر الحصون ، ولكنها ليست سوى أبراج للحمام (١) ويلمح المرء ذلك عند غروب الشمس حينما يكون كل واحد منها محاطاً بسحابة مكونة من خمسة عشر أو عشرين ألف حمامة آوية إلى مسكنها بعد أن طعمت ناقرة في الزراعة .

ولما كان بناء هذه «المنازل» يتطلب ثروة كبيرة إلى حد ما (من مائتين إلى ثلثمائة جنيه) ويدأ عاملة متخصصة ، فإنه يتجاوز وسائل فلاحينا ، ولا يمكن أن يقوم به إلا العمدة أو بعض كبار الملاك . وفي الجنوب بينى البرج على زاوية من المنزل ، وهذا يجعل شبح القرية أكثر ارتفاعاً ، ولكن تلك المنازل ذوات الأبراج المتصلة أو المستقلة في العموم لا تختلط بالقرية ، وإنما هي تقوم على مسافة منها وتمتاز بطوايقها العليا وبواجهاتها الشائخة وحدائقها ، وهي في الضيعة (العزبة) منزل المالك ، وفي البلد المأهول منزل أحد الأعيان أو أحد التجار الاثرياء .

(١) الميسو جان برون في جيوغرافيته الانسانية ، وهو أول من أشار إلى خصائص المساكن القروية في مصر (مجلد (١) ص ١٢٧ - ١٣٤ و ص ١٤٥ - ١٥١) قد اهتم بهذه الأبراج وقدم لها عدة صور . وبعده درس الميسو هوج المباني المبكرة في (الأبراج كأحد متمات القرية) . (ص ١٥١ - ١٥٥ المساكن القروية) .

وعلى مقربة من ذلك ، وفي موضع سهل الوصول في واجهة الحقل توجد (الشونة) وهي المستودع أو مخزن الحبوب ، والمكتب ومساكن العمال والمدرسة الإلزامية .

لندخل القرية ، في زاوية نظيفة ميسورة الوصول معنى بها أكثر من جميع المنازل تقوم أحياناً المضيضة ، وهي حجرتان أو ثلاث حجر يعنى بها العمدة ، وتستعمل فندقاً للمسافرين والموظفين والعابرين . وتلك هذه البناية مصلحة الرى أو وزارة الداخلية . وتوجد مضيضة رسمية في كل أربعائة قرية تقريباً .

لم يعد باقياً أمامنا إلا أن نتغلغل في قلب البلد نفسه ، فأرأناه إلى هنا لا يحمل على السكن به . إنه مقر سيادة الهمجية والتراب . لا يوجد فيه أى منهج ولا أى خط مستقيم ولا أية مدنية ، والصلة الوحيدة العامة بينه وبين المدن المزدهجة هي الانضغاط الناشئ من الاقتصاد في الأرض ، فالدروب المنتشرة فيها الأبرزة والأرواث وقطع القش ضيقة إلى حد أن ثلاثة رجال لايمرون فيها مجتمعين ، إذ لا يبلغ اتساعها مترين ولا يمكن السير فيها بسيارة ، بل ولا بحمار ، ومع ذلك ففي بعض الأماكن التي فيها الحركة أكثر نشاطاً ، والاختناق أقل ، أى على مقربة من بيت العمدة مثلاً أو من المدرسة أو من الحى التجارى تتكسد بالضرورة حوانيت : الخياط والبقال وصانع الفخار والنساج والمقهى . . . حينما تكون القرية مهمة : نحن نعرف قرى لا يوجد فيها حوانيت ، وبالتالي يكون من غير الممكن فيها شراء أى شئ . إلى أن يمر التاجر المتقل ، وقرى لايزال نظام التبادل مستعملاً فيها : حبوب في مقابل ملح مثلاً .

لايشق القرية طريق كبير كما في فرنسا ، وإنما هي تنكمش في نفسها مبتعدة عن الطريق أو عن القناة أو عن النيل ، ولا يتغلغل المرء فيها بركة ، وهذا هو السبب في أن الأجانب ، فيما عدا المرسلين ، والأثرياء الوطنيين ، فيما خلا العمدة والصراف لا يعرفون حياتها الداخلية . ولكن فهمها ينبغي أن تقدم بدياً أولئك الذين يقومون فيها بدور أساسى .

نحن نعرف من قبل العمدة والصراف اللذين يربطان الفلاح بالحكومة ، والناظر الذى يربطه بالمالك . وهناك شخص آخر يصله قليلا بالعالم المتمدين ، وهو البقال الذى هو غالباً إغريقى والذى يشغل الوظائف النافعة ، إذ يقوم بمهمات : البقال والصيدلى والقهاء والطاعم والمقرض وأمين الودائع . إنه أكثر الأوروبيين تمصراً ، إذ هو لا يجد غضاضة فى أن يعيش فى وسط القرية وبين الفلاحين إن لم يعيش مثلهم ، وبفضلهم إن لم يكن لأجلهم . انه قد جلب إلى هذا العالم الثقيل : الفونوغراف وألعاب الغرب . هو يسرق الفلاحين ويعلمهم استعمال المخرات ، ولكن بكرم خلق وحسن صنيع ، بمعنى أنه - ولو يقرض رباً فإحش - يفعل ذلك حالا وبدون أن يطلب كثيراً من الشكليات . هو يبيع مؤجلاً ، وعندما يشتري يدفع الثمن فوراً ، فيقدر الفلاح هذا الرجل الذى يعرف كيف يتخلص من الورطات .

هناك أشخاص آخرون أقل اهمية وأكثر شعبية يتميزون فوق لوحة الحياة القروية وهم يتقلدون منذ القدم وظائف اجتماعية ثابتة.

بدباً (المزين) وهو حلاق وصيدلى ، هو رجل كثير المشاغل ، فهو يحلق رؤوس ولحي الفلاحين العديدين الذين فى دائرته جاثياً أمام زبونه الذى هو جاث كذلك ، وبين ساقيه اناء مملوء بالماء ، وبين أصابعه آلة قديمة كباييه وجده . هو يبيل بمهارة وسرعة الرأس والوجه .

أسن تؤلم ؟ هو يخلمها . أحد محتاج الى كؤوس هواء أو الى فصد أو الى مسهل ؟ كل هذا هو عمله ، وهو يمثل الصحة العامة . وبهذا العنوان هو مكلف بالحقن وبإنباء العمدة بالوفيات . وفوق انه موظف الاحوال المدنية ، هو أيضاً مدير الختان . فى عشية ذلك اليوم أو عشية الزواج ينم حلق الشعر عن مظهر احتفال رسمى . هو يحوطه بأبهة ويجعل له قيمة باعلائه من شأن فنه . ولهذه الخدمات الكثيرة تدفع له اعيان طبيعية أو مليات .

وسواء أكان الساحر الرقاء عابر سبيل أم مقيماً بالقرية ، فإنه كان بطلاسه وتعاويذه وخرائطه وأدويته سينافس (المزين) لو لم يكن زبائنه على الاخص من النساء . اليه تتجه الفلاحات لنيل معاونة الجن ، أو لإلقاء السحر ، أو لإبطال نتيجة تأثير العين الشريرة ، أو لتحويل القلب ، أو لتصيير الجسم مخصباً . ولا يمكن حملهن على التصديق بأن هذا « القديس » ليس الا منافقاً أو محتالاً ، وبقدر ما تكون طقوسه أكثر غرابة تكون ثقتهم في الاذعان لها أشد ، ولكن هناك حالات عدة لا تزال باقية بحيث لا يستطيع الغش ان يشرح النتائج الناجمة عنها . وينبغي كتابة مؤلف كامل عن السحر في القرية وعن قرابته - من خلال الاسلام والمسيحية - مع سحر مصر القديمة (١)

يؤكد الفلاحون هذه القرابة بتصديقهم لكل ما يقدم اليهم كعتيق ، فهم لا يجدون لكثير من خرافاتهم أسباباً أخرى . لماذا كان الراهب القبطي مفضلاً كساحر ؟ ولماذا يصير تماس التمثال الاثرى المرأة مخصبة ؟ ولماذا كان هذا الحجر أو ذلك المخطوط الغامض الذي يعطيها إياه الساحر يجعل رغبته منتجة . ذلك لانه قديم ، لان فيه قوة العصر الغابر .

وظيفة الباكيات هي كذلك تقليد قديم

لا يكاد أحد الفلاحين يتوفي حتى يعلن صياح النساء ذلك النبأ الى كل أهل الحي ، ثم يبحث عن النعش العام الذي يوجد على مقربة من (الجرن) خارج القرية وفي داخل المنزل يغسل النساء (٢) الجسم بالماء الحار . بينما ترتفع في الخارج أناشيد

(١) في الآثار المصرية الحية (ص ٢٧٩ - ٢٨٧ مجلة الجمعية الجيوغرافية ، القاهرة

في ابريل ١٩٣٧

(٢) لا تغسل النساء الا جثمان المرأة ، اما جثمان الرجل فيغسله رجل ، وهو عند المسلمين يجب ان يكون له دراية بشروط الطهارة ، وقد جرت العادة ان يتخصص في القرية رجل أو رجلان لتأدية هذه المهمة ، المترجم ،

البالكيات اللواتى في مراثيهن الجنائزية يطربن جمال المتوفى ومحامده ، ويؤنين الاله على دعوته إياه ويسالئن الميت وزوجته واولاده ، بل والموت نفسه .. ويبدو أن هذه الأناشيد مرتجلة ، ولكنها ليست أكثر ارتجالاً من دموع أولئك المحترقات المتدفقات بـ (ملايات) طويلة مخصصة لمثل هذا الاحتفال ، ووجوههن مصبوعة بالسواد أو بالزرقاء إشارة الى الحداد ، ورؤوسهن مغطاة بالوحل . هن يدرن الرقص الجنائزى ، فينهضن ويضربن بأيديهن ويتمايلن ثم يهوين منهكات ، فيتمهلن ثم يستأنفن صياحهن بين النساء ، اذ النساء يقمن بالدور الاول ، أما الرجال في الجنائز أو فى العزاء فيأتون جماعات - لان الموت جزء من الحياة العامة - ولكن مساهمتهم تظهر فى اجتماعهم فحسب لانهم لا يقولون شيئاً . هم يتبعون النعش فى صمت ويصافحون أقرب الناس الى المتوفى ويظلمون جالسين وقتاً طويلاً أمام دار الميت ثم ينصرفون (١)

هناك فرص اخرى أكثر مرحاً ان لم تكن أكثر وقوعاً تجمع الفلاحين وهى : الموسيقى والقصص . والرجل الذى يجلب اليهم هذه الساعات اللذيذة هو الشاعر ، وهو تال وقصاص ومغن فى الوقت عينه ، وهو واحد منهم .

ذلك الرجل المحوط بالاعجاب والذى قدر له صوته أن يقوم بدور شاعر القرية الجائل مصطحباً الربابة ، وهى آلة ذات وتر واحد ونغمة حادة يمدح محمداً أو المسيح ويصف وجه النبى بطريقة ساذجة ، وان كانت ذات لون خاص ، ولكنه فى أغلب الاحايين يروى مغايراً لى زيد الهلالي ورفاقه وجمال زوجته عالية ، أو شهامة عنتره ، أو الرغبات البدنية . يستند كثير من هذه القصص الغير المعقولة الى أساس جد قديم ، ويعيد ذكريات القصص التى كان القرويون الفرعونيون (٢) يستمعونها .

(١) أنظر الملحق فى آخر هذا الكتاب تحت عنوان ملاحظة على الحداد

(٢) محمد غلاب ، الآثار الحية لمصر الغابرة فى الشعبيات المصرية الحديثة ، بوسك

يستمع الحاضرون الذين ينتقلون الى عالم عجيب وقد تملكهم السرور، وكلما وصلوا الى نهاية مرحلة من القصة توجهوا بقولهم : الله الله ، أوصحبوا الاغنى بتصفيق منتظم وعندما يبلغ التحمس أقصى حدوده ، ينتزعون لبدنهم ويقذفون بها في الهواء ، وإذا ذاك ينبغي الاستئناف .

وفي بعض الظروف الفخمة كالزواج ، أو استقبال أحد الأشخاص ، أو ليلة المولد تزدان الحفلة بالموسيقى التي تقدم بنغمة بسيطة حادة خنا متماثلا إن لم يكن خالياً من الانسجام ، فالفنانون الاميون يخترعون ألحانا مختلفة على موضوع ، أو يوقعون من ذاكرتهم نغمت معروفة ، أما آلاتهم ، فيمكن حصرها في يسروهي المزمار ، وهو آلة هوائية ذات قصبة وقربة ، والزمارة ، وهي قصبة بسيطة أومزدوجة ، والارغول والسامية اللذان يداعبان بالاصابع ، وتؤدي الموسيقى بدقات الطبل ، وهو آلة مستديرة ضئيلة العمق ، والنقرة (الدربكة) وهي جلد حمار مركب على قمع من فخار (٣٥ س م) وكل هذه الآلات هي صناعة محلية ، ولا توجد حفلة قروية خالية من ضجيجها .

يكون الجمهور اكثر ازدحاما حينما تضاف ملاء أخرى غير عادية الى برنامج الحفلة كخيل المشعوذين وعارضي القردة ، والحواة ، وكلعب الخطب أى المبارزة بـ (النبوت) بين فلاحين يديران عصويهما حول رأسيهما على شكل دائرة للدفاع أو للاماسة ، وكرقصة البطن ، أو لعبة الاشارات الواقعية وما شا كل ذلك .

تقام هذه الاجتماعات في (الجرن) أو على الارض المجاورة له ، أو على مقربة من ضريح الشيخ يوم مولده ، وهي تصل من الاهمية الى درجة غير عادية في تلك الزيارات الاقليمية التي تجذب نحوها مرة في العام عشرات الآلاف من الفلاحين (١) يأتون ليحيوا ذكرى الولي المحسن ان لم يتوسلوا اليه في الموضع المعتقد انه موضع

(١) «إبلى سيداوى» المعارض أو موالد الاسلام، في مجلة العالم المصرى سنة ١٩٢١

حياته أو موته ، وذلك مثل السيد البدوى في طنطا ، والشيخ يوسف أبى الحجاج في
الاقصر ، والامام الشافعى في القاهرة ، والشيخ مبارك في اسيوط . وللاقباط (سنى)
دميانة ، ودير القديس باكوم ، وابو سيفين ، واقلاديوس الاعزب ، ومارى
جرجس وغيرهم .

وفى عدا ذلك - كما في عيد شم النسيم ^(١) - يمتزج أشياخ الديانتين غالباً في
نفس الزيارات أو في نفس المتع .

تدوم تلك الحفلات عدة أيام ، وتتعاقب فيها المواكب الفوضوية ملوحة بأعلامها
في الهواء ، ويأتى البدو ، ليظهروا مفاخرهم فوق الجياد ، وتنصب للأطفال أراجيح
وخيل خشبية ، وعجلات رأسية ضخمة قد علقت فيها قواسق تصعد وتهبط كقواديس
الساقية . وتقام في الهواء الطلق عدة حوانيت يشتري منها حلويات تذكارية ،
والحلاوة السمسمية ، والحمص والفول السوداني وأشباهاها .

يضحك الجمهور ويغنى ويلهو ، وينفق في يوم واحد ما ادخره في العام ، إذ هو
قد ألقى بنفسه بين أحضان الحياة المحمومة في اللحظة الحاضرة .

يوجد الجمهور كذلك في السوق وهذا السوق هو قطعة أرض خالية يحيط بها
أحياناً حاجز ، وهو يوجد خارج البلاد ^(٢) المهمة ويظل كل أسبوع من الفجر الى
الظهر ، ويتجه إليه الباعة والبائعات في صفوف طويلة منذ تنفس الصباح يحملون

(١) هو عيد الربيع ، ويقع هذا العيد المصرى القديم يوم الاثنين الموافق عيد
الفصح القبطى .

(٢) أسست شركة الاسواق المصرية (١٣٣) سوقاً قروياً ، وهى تعرف بحواجزها
الحديدية ، وأهم ما فى مصر السفلى منها أسواق : الملاحة ، وشبين الكوم ، وعلى الاخص
سوق امبابه الذى يمتكث ثلاثة أيام ، وفى الصعيد سوقا طما وطحطا اللذان يحدثان
انتقالات عديدة . وفى جميع هذه الاسواق يفرض قرش أو قرشان على كل بائع .

منتجاتهم التي يمدونها ويطلون جاثين في الزوايا التي اختاروها في انتظار الزبائن ، فلا يلبث أن يرد المشترون من كل القرى المحيطة ، وإذا ذاك يتكون خليط متباين العناصر ذو ضجيج مؤلف من أناس وحيوانات وأشياء . فأما القماش والسلع الحديدية ، فيقوم بعرضها تجار محترفون أتوا من عاصمة الإقليم أو من جاراتهم في القرى . وهؤلاء التجار يستوردون من تجار المدينة . وأما الخضراوات والطيور والزبد والبيض ، فيقوم بعرضها الفلاح المنتج ، أو بالأحرى زوجته التي تجيد المساومة أكثر منه . وعند ما يكون مضطراً يأتي لبيع جاموسه أو ماعزته ، ويقوم فلاحون آخرون بطلب كل ما لا يستطيعون إنتاجه من المصنوعات والمأكولات . فبقرشين يستبدل (البلاص) المسكور والقفة المحروقة ، وبثمانية قروش يشتري سروال كبير ، وبخمس قروش قميص ، وبعشرين قرشاً يمكن الحصول على (جليسة) ، وبثلاثين على (ملية) . وهناك أغلى من هذا للعمدة أو للقروي الثرى ، فخلية أو (ملية) بمائة قرش هي التي ترفع قدر الفلاح أو قدر زوجته .

كذلك ينبغي شراء القوت ، ويجرى هذا تبعاً للفرص والحاجات والاستطاعات ، وإليك بعض الأثمان مثلاً :

٨	الحم . الاقة من البقر :	٨
١٢	» من الضأن :	١٢
١١ - ١٠	البيترول ل (الوابور) والمصباح ، الصفيحة ٨ لترات	١١ - ١٠
٧	القليتر	٧
٧ - ٦	الزيت الحار للطهي الاقة	٧ - ٦
٢٥ أو أكثر	الشاي وهو غال بسبب الجرك ، الاقة	٢٥ أو أكثر
٥	القهوة للضيوف ، الرطل :	٥

مليم

٥ ٣

السكر المكرر ، الاقة :

٣ - ٢

لغائف التبغ ، العلبة ٢٠ لفاقة :

اما منتجات الدسكرة فتشتريها الطبقة الثرية المحلية

او عملاء يصدرونها . هم يشترون من سوق القرية :

١٥ - ٨

زوج الدجاج :

٥ ٣ - ١

(دسطة البيض) :

١٢ - ١٤ (١٦ في الصيف)

أقة المسلى :

٣ - ٢

أقة الارز :

٣ - ٢

أقة العدس

اما الحبوب والقطن فيشتريهما تجار أو مندوبون عن كبار تجار القاهرة أو الاسكندرية .

وهنا الأثمان جد مختلفة ، فالقنطار من القطن يمكن أن يباع بمبلغ يتراوح بين ٣٠٠ قرش و ٥٠٠ قرش حسب جودة التيلة أو سير البورسة أو حاجة الفلاح ، وصغار التجار يشترون من الجنائين الرطل ب ٧ مليم ويبيعون القنطار ب ٢٥٢ قرشاً . وإردب القمح (١٥٠ كيلو تقريباً) يباع بمبلغ يتراوح بين ١١٠ قروش و ١٤٠ قرشاً حسب تأثيرات السكيف والسكم .

أما البضائع الأخرى ، فنسبة التباعد بين أثمانها أقل ، والأثمان فيها تسير من أعلى إلى أدنى تبعاً لقرب السوق أو بعده من النيل وحسب ما يكون الوقت شتاءً أو صيفاً ، وحسب قوة الطلب أو قوة العرض وهلم جراً . وهناك بعض المنتجات لم تتغير أثمانها تقريباً منذ ثلاثين سنة .

ولا يزال التبادل في القرى يحدث مقايضة في ربع ما تجرى فيه العمليات على الأقل ولكن استعمال النقود يسود باطراد .

وأخيراً ، وعلى أثر الانتهاء من الأعمال بعد مناقشات كثيرة يعود الواحد منهم إلى منزله قبل غروب الشمس بالشئ أو بالمال الذي يجب أن يجلب تحسناً عملياً إلى المنزل أو على الأقل هو يعود بسرور يوم مليء بالمناظر والصباح .

تحدث الأسواق وزيارات الأضرحة مروراً ضخماً على الطرق الزراعية ، وهنا أيضاً نشاهد ميل الفلاحين إلى الاجتماع وإلى الانتقال جماعات وفي تكديس ، سواء أكان الأمر يتعلق باحتياز النيل أم باحتياز القناة للذهاب إلى القرية المقابلة . يصعد الفلاحون إلى القارب أو إلى السفينة (المعدية) متكاثرين إلى حد وقوع الحوادث . وعند ما يرتحلون مشاة أو على حميرهم مغمورين بحزمهم كأنهم في حالة خروج لعودة بعده . وعند ما يركبون - إلى مسافات أبعد - «الطرومبيل» أو «الحلزونة» وهي سيارة فورد من الطراز القديم تحولت إلى «أوتوبوس» يتكدس فيها أربعون على حين أنها ليس فيها أمكنة إلا لعشرين ، وهم يجدون أن من السئ جداً أن يود أحد حملهم على احترام قواعد الشرطة . أو لم يكن بعض الأسباب التي نفرت الشعب من أحد الوزراء في الأرياف هو إلحاحه على تطبيق قواعد النظام؟ وعند ما يجب أن يسافروا في القطار يصلون قبل مواعده بعدة ساعات ويجمعون في إحدى زوايا الرصيف ويتكدسون في عربة واحدة على حين أنه توجد أمكنة في غيرها .

وقصارى القول : ان الفلاحين يحبون أن يعيشوا معاً في الخارج وعلى صورة جمهور . أنهم محبوبون للاجتماع ، فهل هم لهذا اجتماعيون ومتساكون ؟ وهل توجد في الجماعات الريفية صلات عضوية بين بعضهم والبعض الآخر ؟

لنعتبر بدياً القرية ككتلة واحدة : هي تكون بأراضيها كلا معيناً يظل

الباقون ، حتى الجيران ، خارجه أجنب وغير معروفين . وهى تحيا حياة مقفلة خاصة بها ، حياة تحكمها فى داخلها التقاليد والعادات والحرمان الموروثة وهى القوانين التى لا تصعد الذاكرة إلى مبدئها والتى تحدد إشارات كل فرد ورغباته .

بقدر ما يلتقى الفلاح من مشقة فى ان يعد فكره خلال الزمان ، وفى ان يتنبأ بالمستقبل يحس بنفس هذه المشقة فى ان ينطلق فى المكان ، فقرته هى كل شيء لأنها قريبة وحاضرة ، وهى تمثل وطنه ووطنيته فحينما يسأل فلاح ما عن وطنه يجيب بقوله أنا من « منفلوط » أو « ابوقرقاص » وأحياناً يجيب بصورة أوسع : « أنا من مديرية المنوفية » أو « مديرية اسيوط » ولكنه لا يقول ألبتة : « أنا مصرى » هو - ولو انه أشد مصرية من كثيرين من الساسة - لا يدرك انه ينتسب الى وطن وهذا يجعل المرء يفهم لماذا انه فى الحركات الوطنية التى أثارت مصر منذ الحرب الى ان نالت الاستقلال لم يتحرك عالم الفلاحين ^(١) فالوطن والحرية والسياسة هى كلمات وأشياء لا يفهمها .

وحينما جند الانجليز ابان الحرب العظمى جيشاً وطنياً ليدافع عن البلد المهدد عند قناة السويس فان « المتطوعين » قد أخذوا بالقوة وبصعوبة أشد منها فى عهد السخرة وضعف الوطنية هذا نفسه هو الذى يوضح نفور الفلاحين من الخدمة العسكرية ، والاربعة والعشرون ألف جندي الذين يؤلفون الجيش المصرى هم جميعاً تقريباً مجندون من بين الفلاحين لان قانون سنة ١٩٠٢ فى الواقع لا ينطبق بكل شدته الا عليهم ، اذ ان الموظف وابناه والابن الوحيد واكبر اولاد الوالد المتوفى ، أو المقعد ، أو الذى بلغ الستين ، والطالب وحافظ القرآن وذا العاهة لهم الحق فى الإعفاء ، والذى يليق للخدمة

(١) لعل عالم الفلاحين قد اشترك فى الحركات الوطنية وان كانت الاعتبارات التى

يظل تحت مراقبة القرعة فيما بين التاسعة عشرة والسابعة والعشرين وإذا اختير فانه يلتزم الخدمة مدى خمسة أعوام ولكنه لكي يستحق الرخص وفقاً احدى عينيه أو او يقطع اصبعين من اصابعه^(١) وهو يستدين ليدفع البدل العسكري او يقيد نفسه كطالب او يخفى بقدر ما يستطيع أو يفر . وفضيحة العصيان تلحق خمسة وثلاثين في المائة من المجندين .

وعندما تكون الكارثة غير ممكنة التجنب ولا يكون له بد من السفر على اى حال فان اسرته تتقبل العزاء وتلقى بنفسها في ولولة تشبه الولولة على المائت .

مغادرة القرية هي التغرب ، والارتحال هو الموت ، والتقييد في الجيش هو كجواز للهجرة الى المدينة ، والمحراث والساقية والجاموس والثيران كل ذلك يثن ويحتج (جندى)

على أثر ذلك يعوز الارض هذا المجند بشكل مرعب ، ومن هنا يفهم ان موقف الفلاحين الذين يفضلون دفع عشرين جنيا ، بل مائة لينقذوا انفسهم ولو اثقلهم هذا الدين وقا طويلا .

ليس معنى هذا ان الفلاحين يؤلفون جنودا اردياء فجيوش محمد على وابراهيم باشا الظافرة كانت مؤلفة من الفلاحين ، وهؤلاء الرجال يعرفون استخدام البنادق باطمئنان . حقا ان ذلك الوقت الجميل قد مضى ، ولكنه يدل على الكفاءة ، وهنا ايضا تبسط مسألة من مسائل التربية

اليوم يجب ان يقل النفور من الجندية اذ الرجال يعاملون افضل من ذى قبل .
 فهم يشذبون أثناء الخدمة ويتعلمون ابا ن التمرينات ويلبسون ملابس نظيفة ، وعند ما

(١) كان الفلاحون في الزمن السالف يفقنون أعينهم ويقطعون أصابعهم فرارا من الجندية لفسوة انظمتها اذ ذاك أما الآن فان أسرهم تكسفى بالعويل والولولة ابا ن رحيلهم الى العاصمة ، المترجم ،

يفادرون الجيش بعد خمسة أعوام يصيرون سادة (افندية) وحينما يكون احد الفلاحين في الثكنة أو حين يرتبط بعمل في المدينة يربح منه بضعة دراهم فانه يحمل قريته في قلبه . ويرسم مرض الوطن على وجهه الخالى من الشواهد والتعبيرات ، وهو يحاول على الاقل ان يحتفظ بعاداتها وبالاتصال بها . الم تكتب عدة مرات خطابات باملاء هؤلاء الفلاحين الأميين الحساسين المتزعجين من بلادهم ؟ لقد كان ذلك متشابهاً دائماً : « نبشئ بأخبار الزراعة وسلموا على فلان وفلان وفلان » . وعندنا تكون ثروة القرية الحبوية في خطر مباشر يحس كل واحد منهم إحساساً عنيقاً بانسابه إلى الجماعة ويجتمع الرجال والنساء والأطفال قوة واحدة . ونحن لا نزال نذكر فاجعة أبى شادى سنة ١٩٣٦ ، وذلك أن مصلحة الرى - لى تحقق توزيع السقى بهيئة أفضل - قد صممت على قطع قناة كان البلد كله يروى منها منذ ثلاثين سنة فثار الأهليون بالعمال وبرجال الشرطة والجيش ، لينموا هذا التحويل ، وقد حاولوا بين كل هذه القوى وبين النجاح مدى عدة أيام . كانت النساء فى الصف الأول يثرن الرجال ، والصبية يجمعون الذخائر ويقدمونها ، فكان ذلك فناً عسكرياً حقيقياً مرتجلاً .

وعند ما يغالى مراب أو مالك أو ناظر فى عسفه ويقتل للانتقام العام ، فإن أدق رجال المباحث لا يستطيع اكتشاف المنفذ ، إذ يكون الإجماع على الصمت تاماً . وحينما تهين قرية مجاورة أو بعض أفراد منها فقط قرية أخرى أو تسبب لها خسارة ، فإن جميع أهل هذه الأخيرة يؤلفون جبهة ويشترون فى الانتقام من المهيمنين بضربة حجر أو (بنبوت) أو ببندقية ، لأن كثيرين من الفلاحين يملكون ذلك السلاح المحظور ويعرفون استخدامه . ومع ذلك فقد أخذت تلك الحروب - بفضل تدخل

الشرطة - تقل باطراد ، فيما بقيت المنازعات الخاصة متعددة وعنفية وغير متوقعة كما كانت سابقاً . (١)

وهنا نلمس أحد تناقضات بيئات الفلاحين : الجميع في القرية متعارفون ولا يترك ألبنة أحد يموت جوعاً ، والمعاونة التطوعية بين الرجال في أعمال الحقول و بين النساء في الحاجات المنزلية ، تلك المعاونة التي تحدث بدون روية بقدر ماتكون الفاقة أعظم هي تهذبنا . والتماسك الذي يديه الفلاحون في تنفيذ مصلحة عامة حينما لا يكونون مأمورين يظهرنا على ما يستطيعون ، ولكن في مسائل الأرض والمرأة والعمدية تتألف أحزاب وتظل في حالة معارضة تنتقل من جيل إلى جيل وتسود جميع الأسر . وينبغي أن يكون المرء مشايعاً في القرية . إذ أن المحايدين محقرين وهذه الخصومة المتعادلة عادة تستيقظ فجأة بسبب حادثة تافهة . كحد ثقل من موضعه أو سداد سرق ، أو جاموسة وجدت دخيلة ، وإذ ذاك تصبح الحياة البشرية ولا حساب لها : يحدث القتل ، وفي سهولة أكثر ، في القرى التي يمتزج فيها الدم العربي بالدم الفلاحي .

وهكذا يعيش المرء في حالة لا أمن فيها . ولفهم هذا الذعر السائد ينبغي إضاءة الليل في القرية فعلى أثر انقضاء النهار تسترعي انتباهك الاحتياطات المتخذة ضد العدو الممكن فالحيوانات - وبينها الجمال إذا كانت موجودة - تحبس في المنزل ، وكذلك الأسر تتجمع في صمت خلف الباب الضخم المغلق . والرجل غالباً في الخارج ساهر على حقله

(١) حسب احصاء سنة ١٩٣١ ظل ستون في المائة من جنایات القتل بدون عقاب لعدم استطاعة اكتشاف الجناة ، راجع الجنایات في الارياض ، لمحمد مصطفى القللى في مجلة المسائل الاجتماعية بوليه سنة ١٩٤٠ ص ٢٠ - ٢٩

أو على مائه ، لأن العدو يرود دائماً... وبقدر تكاثف الظلام ، يتتابع نباح الكلاب وطلقات البنادق

ليست بندقية الحفير الساهر الذى يطمئن ويطمئن هي التى تسمع ، وإنما بندقية الفلاح المسلح رغم القانون . وفى موسم الاستغلال يصير أكثر حذراً أيضاً . ولقد رأينا بعض الفلاحين يتقلدون بنادقهم أثناء جنهم ، وهم يخوضون فى الماء ، آخر لوزة من القطن .

بسبب انتخاب عمدة اتسمت قرية قلندول إلى معسكرين : أشياع محمود بكير فى جانب ، وأنصار على عباس فى جانب آخر ، وقد طعن الأول على الثانى بكلام جارح ، وبناء على ذلك وجد ابنه الشاب فى صباح أحد الأيام مقتولا فى الحقول ، وبعد بضعة أيام طغنت شقيقة على عباس بمخنجر للانتقام ، ومنذ ذلك العهد أخذ كل من الحزبين يلاحظ الآخر ويتربصه مدة سنة ، وظل العمل والانتقال يجريان فى جماعة . وفى أحد أيام السوق بينما كان عدة فلاحين آتين من القرى ، شتم أحد خصوم محمود بكير شاباً من أشياعه فصفعه هذا الأخير ، وعلى أثر ذلك اقتض أنصار على عباس على هذا الشاب وطعنوه بمخارجهم عدة طعنات ، وفى الحال نى نأ الجريمة إلى رجال بكير فوصلوا على الفور إلى مكانها مسلحين بالبنادق والبنائيت مكررين : « الله . الله » وقد أجاب أتباع على عباس بتلك الصيحات نفسها ثم خرجت الطلقات ، وبعد ساعة أحصى ثلاثة قتلى وعدة جرحى . وعند نهاية النهار صمم كل من المعسكرين على إبادة الآخر فتحصنا فى الجبل ، وكانت مهمة الشرطة فى إعادة النظام شاقة (مايو سنة ١٩٣٦) .

ان نفور الجنسين : الفلاح والعربى ، والديانتين : القبطية والاسلامية ولو أن

الحياة العامة قد انامت لم ينطفئ قط انطفاء تاماً ، وهو الذى يوضح كثيراً من الفواجع هناك اذا ، ثقة وحذر فى الوقت ذاته ، والذى هو فوق كل شئ ، وهو خط الانقسام بين تينك العاطفتين ، هو الارض أو هوى الارض ، اذ هي التي تجمع حيناً تكون مهددة وتفرق عندما تمتلك أو تشتبهى فحسب ، وبسببها الجماعة الريفية المتينة بالنسبة الى الغير تتمزق في الداخل . اما الافكار القومية والوطنية فلا توقف في نفسها أية عاطفة وليس حظ افكار الجمعيات او المصلحة العامة أو الحياة القروية المشتركة بأكثر من حظ سالقاتها . ليست القرية المصرية وحدة عامة بالمعنى الوطني لهذه الكلمة ، وليست جسماً منظماً ولكنها كتلة .

وليس اتحاد نوع الحياة ولا الاجتماع بقادرين على ان يخلقوا بالضرورة بين الناس صلات عميقة اذ ينبغي فوق ذلك نوع من الحياة الروحية او وجود بعض الشخصيات التي تصير اربابها اكفاءاً للتبادل وللإجتماعية ، والفلاح يبدو لنا انه قليل الشخصية بقدر ما هو فردى . هو يحيا مملوكاً للأرض ، مضطهداً من الناس حياة عامة ولكنها ليست اجتماعية ، وهو فى الجماعة يظل فى العمق منفرداً .

لقد احتفظ هذا العوز فى التنسيق بين العناصر المتماثلة بإبقاء القرية المصرية والجماعة الريفية التي تمثلها ، فى الحالة البدائية لمجتمع بدون هندسة مادية او عقلية ، وهو المجتمع الذى كان منذ خمسين قرناً . وقد تمسكت الحكومات بهذا الجمود الذى نفي سلطتها بهيئة غريبة .

وهكذا يتماثل الفلاحون والاربعة عشر ألف بلد التي يقطنونها (١)

(١) قائمة البلاد الرسمية (مطبعة الحكومة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٢) تحتوى على ١٤ ألفاً و ١١٦ بلداً بالضبط ، منها ٧٨٠٠ تحمل كل واحدة منها اسم عزبة و ١٥٠ تصدر بـ (ميت) و ١٨٠ بـ (نزلة) و ٩٣٣ مسبوقة بكلمة : كفر ، و ١٤٣٦ بكلمة : نجع . وهذه الاسماء تذكر بالأصل ، ولكن لا يكاد يوجد أكثر من ٤٠٠٠ وحدة (ناحية) .

الفصل السابع

منزل الفلاح وأسرته

« لقد رأيت أشد قرى المانش الاسباني فاقة ، ومنازل أهل الرأس الاخضر الرديئة ، وأخصاص اللانداس الذين هم متوحشوا أعماق الانجولا ، ولكنني لم أشعر بالأساء قط كما شعرت بها في مصر » .

هكذا كتب « كريستيان دي كاتير » عند عودته من الشرق بمناسبة منزل الفلاح . (١)

وعلى العكس من ذلك يمجّد المسيو (لوزاك) أنه ليس متأخرا كثيرا عن المنازل الحقيرة الحجرية أو الطينية المغطاة بالقش التي لا تزال توجد بكثرة في أوروبا المركزية أو الغربية . وعلى كل حال هو أرق كثيرا من تلك الأكواخ التعسة التي يعيش فيها كثير من قروي تونس والجزائر . (٢)

من نصدق ؟ ان كل شيء يتعلق بوجهة النظر التي يضع المرء فيها نفسه وبمئانة مواطن الاعتماد ، ومع ذلك فيبدو لنا أن التشبيه - والأشياء ليست متساوية - يحتوى هنا على مبدأ الخطأ . ونحن بدل أن نسجل إحساسا شخصيا أو حكما ناشئا عن رأى نصف مسكن القروي العصري كما هو ، والحياة التي يؤويها . وسيشتمل هذا في الوقت نفسه على مشاهدة التثام المسكن مع الارض والرجل .

لقد كنا قبل ذلك في المواضع العامة من القرية ، فلننظر الآن الى المساكن

(١) تحقيق عن مصر ، ايكودي باري ، ١٦ يونية سنة ١٩٣٢ .

(٢) دلتا النيل ، دراسة الجيوغرافيا الانسانية ، القاهرة سنة ١٩٢٥

الخاصة للفلاحين ، لتتخط مسكن المالك الفخم ومقر العمدة ، ولتشر فقط الى ما يأتى
لانه استثنائى .

المنازل الحجرية فى القرى الملاصقة لحدود الصحراء فى (مصر العليا) اذ يسمح
الاقتراب من الصخور للفلاح هنا بأن ينقل فى قفته الاحجار ليبنى بها ، وبعض هذه
المنازل لها سقوف مقوسة ، واحيانا على صورة قبة .

والمنازل ذوات الآجر بدون تجصيص التى هى كثيرة فى مصر السفلى والتى
تقتضى بعض التراء .

والمنازل المنظمة فى العزب النموذجية كمنازل الممتلكات الملكية ، وممتلكات
الجمعية الزراعية ، وبعض الملاك .

والمنازل الخفيفة التى لاصورها (العشش) وهى للآتين حديثا وأنصاف الرّحل
ومصنوعة من الخرق والصفيح والسعف والطين .

وأكواخ الزراعة (الزرابى) وهى مأوى من القصب أو من حواجز فقط من
حطب الذرة قائمة فى وسط الحقول وهى تبقى بقاء أعمال الشتاء الكبرى

لتنظر الى المنزل العادى للفلاح المتوسط ، وهو الذى يوجد بنسبه ٩٢ ٪ أى
المنزل الطينى ، وهو منزل بدون طراز وبدون عصر ، وهو أيضا يمثل وحدة الريفية
المصرية وثباتها .

لنرجع الى احد تلك الدروب التى توجد فى القرية ، فعلى جانبيها تتزاحم واجهات
ضيقة رمادية مقفلة يتراوح عرض كل منها بين خمسة أمتار وعشرة ، وارتفاعها
من مترين ونصف الى خمسة أمتار على الاكثر عندما يكون فيها طابق علوى .

الحى قديم ، والقرية أقدم ، ولكن المنزل لا يرجع تاريخه الى عشرين سنة ،
ذلك لان مواد البناء وطريقته تفرضان على البناء حياة قصيرة ، والفيضان والمطر فى

مصر السفلى ، والحرائق قد جرّت اصلاحات متتالية سوف لاتدع عما قريب شيئا قديما .

يتعلق مسكن الفلاح كعمله بالأرض وبنوع الحياة وبالنظام الاجتماعى ، فالأرض التى تطعمه هي نفسها التى تؤويه ، هو أرضى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، والمادة هنا هي التى تعطي الصورة .

من الصلصال ، وقش الشعير أو الفول أو الكتان وأرواث البقر وماء النيل يتكون الملاط المستعمل فى كل مكان والذى يبسط من الجانبين على حاجز من حطب الذرة أو من السعف أو من القصب ، أو يصب فى قالب من خشب لصنع اللّسين (الطوب النىء) الذى يجفف فى الشمس ، وعندئذ يبنى به الحائط ، و (اسمنت) اللّحمة هو مصنوع من نفس هذا المزيج الطبيعى ، ومنه أيضا الطلاء الذى يغطى داخل الحوائط ويحميها .

لكى يكون فى الحائط المبنى على هذا النحو مقاومة كافية يجب أن يكون سمكه من ٣٠ إلى ٤٠ سم .

وعندما يكون الفلاح اكثر سعة يبنيه على أساس من آجر يدعى بـ (الطوب الاحمر) أو على قواعد من حجر الجص ، وهكذا لاتأكل الرطوبة التى تصعد من الأرض بالترشح أساس المنزل .

لكى لاتعرض متانة الحوائط للخطر ، ولكى تؤدى على أفضل وجه مهمتها كواقية ضد إفراط النور والحرارة أثناء النهار ، وضد برد الليل وخطره ، هي تحتوى على فتحات جد قليلة : باب ارتفاعه ١ م و ٧٥ سم وعرضه متر تقريبا . وهو منفصل عن الدرب بعتبة ارتفاعها ١٠ سم وفوق مستوى الاعين كوى صغيرة (٣٠ × ٢٠ سم) وهي تسد فى الشتاء ، ومنها ومن الباب تتكون الاتصالات الوحيدة بالخارج

هذا التقدير في الانارة يبرر فوق ذلك بنقص الخشب وغلاته ، فمصر الواقعة في المنطقة الكبرى التي لاتصلح للخشب والتي تستطيل في الخط المنحني من السودان الى الهند أو المنطقة الدائرية الصحراوية ليست بلدا ذا غابات ، والنخل والحمير والسنط التي تظلل القرى هي انفس من أن تستخدم كأخشاب للبناء ، على أنها لاتكفي لجميع الابواب والنوافذ التي يتمناها الصحيون . هم يستعملون جذوع النخل ولكن في اقتصاد شديد ، لأن النخلة الواحدة تدر على مالها مائة قرش في العام (تمر وليف وسعف) والخشب الوارد من فنلندا والسويد ورومانيا وروسيا ، والذي هو مألوف الاستعمال في المدن يتجاوز ثمنه ثروة الفلاح العادية ، وهكذا يظل الباب غالبا بدون خشب والنوافذ دائما تقريبا بدون زجاج ولا اطارات .

ومادام ان المرء يستطيع الاستغناء عن الخشب فهو يستغنى عنه ، ولكن الاتفاق على السقوف ضرورى . في مصر العليا التي لا مطر فيها ألبتة ، يظل بعض المنازل بدون سقف ، ولكن هذا ليس الا استثناء ، وفي العادة تغطي الحوائط الاربعة على الاقل بأوراق ، فعلى عروق رديئة التشذيب موضوعة على أبعاد ٦٠ سم يمد حطب الذرة أو حطب القطن أو القصب أو الجريد ؛ ولكي لاتعطن هذا السقف يغطي بحصر غليظة ، وفوقها تعد طبقة قوية من الملاط المختلط بالرماد ، وبهذا يصنع السطح صفيحا بهيئة كافية لمقاومة المطر العابر ، وميتنا الى درجة تجعله يجتمل كوخ الصيف ونوم جميع أهل المنزل . ويتوصل الى هذا السطح بسلم من خشب أو من لبن ، والحاجة ماسة اليه في كل لحظة ، لأن فوقه توجد الآلات وصناديق الجيوب والوقود ، وأحيانا الطيور

ان الضرورة وعادة وضع الاخشاب اليابسة والقش فوق السطح تحدثان غالبا الحرائق التي هي بسبب اقتراب المنازل تمتد الى الحى ثم الى القرية . وشرارة تنبعث من التنور أو من (الوابور) مع حرارة الصيف القصوى تكفي لوقوع الكارثة . . ان اهمية حرائق القرى وكثرتها هما احدى بلايا مصر ، فبين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٠

دمرت على هذا النحو ستة وستون بلداً ، وفي كل عام ، ولا سيما بين ابريل وسبتمبر تسجل ادارة الامن العام خسائر مرعبة . ولكي نمطى القارىء فكرة عنها نورد أربع حوادث جديدة

١٤ يناير سنة ١٩٣٦ في قرية (ميت يعيش) التابعة لمركز ميت غمر « انتشر الحريق بسرعة صاعقة فدمر ٩٤ منزلاً وأصبح عدة مئات من القرويين بلا مأوى » .

٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ في العويسجة التابعة لمركز هيا « اتصل الحريق بـ ٤٣ منزلاً تحولت الى رماد بكل ما تحويه من حيوانات وطيور وأقوات ، والخسائر قدرت الى الآن بـ (٣٠٠ جنيه) وقد أثبت التحقيق أن الحريق قد أحدثته قروية تدعي نفيسة حسن كانت تطهى في بيتها فاتصل بعض الشرر بالحزم الموضوعة فوق السطح وقد هبت الريح فلم تلبث النار ان اشتعلت .

٥ مايو سنة ١٩٣٧ « شب حريق فظيع في بكنوش مركز دسوق مديرية الغربية دمر فيه ٤٠٠ منزل تمام التدمير . وقد أتى اللهب على ١٤ شخصاً وأتخذ ١٣ آخرون حروقهم خطرة » .

١٤ يناير سنة ١٩٤١ شب حريق في قرية الدير مركز طوخ فدمر ٢١٧ منزلاً وسبب وفاة ٢٠ وأحرق غلات ومواشى وقذف بـ ٤٠٠ أسرة الى التعاسة . وقد سببته امرأة كانت تطهى فوق سطح منزلها .

نعم يوجد قانون يحظر « تكديس الأخشاب اليابسة فوق سطوح المنازل » وتوجد « لجنة لمقاومة الحرائق في الأرياف » ولكن لا القانون ولا اللجنة يمنعان الفلاح من وضع الوقود فوق الأسطح ، لأنهما لا يقدمان إليه وسائل أخرى .

ينصحون له أيضاً ألا ينام مع مواشيه ، ولكنه لو تركها في الخارج لسرقت منه ،

وفي الداخل ، المكان ضيق الى حد بعيد ، فكيف يتصرف فيها .

لندخل أحد المنازل : لا نكاد نفعل حتى يستولى علينا نصف الظلام ، والرائحة ان لم تكن البراغيث أيضاً .

ينحصر المسكن في حجرة وحيدة من ٥ الى ٦ أمتار في عرض ٣ م و ٥٠ سم « في زيارتي لأهل خور يأتى ألحظ عدداً قليلاً جداً من الأبواب للمنازل التي هي أحجار مربعة ليس لكل منها الا فرجة واحدة ، وكل ما فيها من أثاث هو تنور للخبز ، وجرة وحلة و (قلة) وصحفة ، وفي بعض المنازل يوجد حبل مربوط في زاوية من حائط الى آخر ، وهو دولاب الملابس الذي يعلق عليه ثوب « التبديل » (هذا هو تصريح مولاى خزام أسقف طيبا) . أما السقف فهو منخفض الى حد يشعر بالضيق .

ولكن من حسن ألحظ أن المنازل ذوات الحجرتين أو الثلاث هي أكثرية . وهي -- مع فروق ضعيفة في الرسم والمساحات والارتفاع -- تتكون من :

أولاً : قاعة (مندرة) والى جانب حائطها الأيمن قد بنى نوع من السرير يصلح للاستعمال ككنبة (مصطبة) وهذه القاعة هي أكثر أجزاء البيت نوراً بسبب الباب ، وهي تستعمل للاستقبال ولنوم الضيف .

ثانياً : حجرة النوم والطهي ، وهي تطل على القاعة ، وفي إحدى زواياها التنور المبني بالآجر والملتصق بالحائط ، وسقفه المبسوط يكون شبه سرير ينسام فوقه شخصان في الشتاء ، ولما لم يكن عندهم مداخن فان الدخان يمر من الكوة .

ثالثاً : وفي الداخل بعد هذا - وبدون أى مدخل آخر غير الباب العادى - توجد ردهة صغيرة (زربية) نصف مغطاة بحطب الذرة تحبس فيها الجاموسة والحمار ، ولكن التفريق ليس واضحاً الى حد أن القاعة لاتستعمل أيضاً حظيرة أو حجرة نوم ، وأن

الخطيرة لاتستعمل مرقدًا في الصيف وهكذا .

الدجاج يقطن في كل موضع ، والحمام يسكن في ثقب محفورة في الحوائط الخارجية أو في صفائح مصفوفة ، وفي القرى ذوات الاقليات القوية أو الاكثريات من الاقباط ينبغي أن يعمل حساب الخنازير التي يربئها الفلاحون المسيحيون لا لأنفسهم ولكن لقصابي الخنازير الاوروبيين ، وكذلك ينبغي أن يعد صديق الفلاح وحارس ثروته وهو الكلب المهوش الشعر الذي ينبج في الليل .

أما أرضية المنزل فهي من تراب مضغوط . وفي الزوايا وبدون نظام يندأو يكدس الاثاث : أى فيما يتعلق بالمائدة يوجد (وابور البيترول) وحلة أو حلتان من نحاس ، ومائدة مستديرة منخفضة من الخشب الابيض (قطرها متر وارتفاعها ٤٠ س . م) وللنوم حصر وأغطية من قطن أو كيس من خيش فقط ، وأحياناً أسرة من جريد كأقفاص الدجاج ، بل حشية ، وللحاجة المنزلية وللنظافة وعاء مبسوط ، وهو الطست الذى يستخدم في غسل الملابس والاستحمام ، وقطعة من مرآة ، والصندوق الخشبي الذى يكدس فيه كل شئ .

هو هدية الزواج ، والالوان الصارخة التى هو مصبوغ بها تذكريوم مرح . . « رأيت في صندوق بالقرب من التنور تحمل ربة المنزل مفتاحه في عنقها ، خليطاً من : بيض وفلفل وجبن وخط وابر وخرق وبضعة عقود وكيس وكحل » هكذا كتب الينا دهشا أحد المرسلين الفرنسيين .

كما نلاحظ في القطر وفي القرية نحن نلاحظ أيضاً في منزل الفلاح ذلك الاقتراب الموجود بين الارض والحيوانات والناس والذى يعبر عن الحالة الاجتماعية وعن نوع الحياة : كما تكون السكنى يكون الساكنون .

على هذا النحو يظهر كيف أن الفلاح يتعلق بالارض وبالشمس وبالماء ، وهي

علاقة جيوغرافية بهذه الأشياء الثلاثة في منزله نفسه .

عن طريق مواد البناء والأرضية وقلة الارتفاع والسقف ، يتصل المنزل بالأرض كما يتغمس فيها الفلاح بعمله وطعامه وأمراضه وموته .

عوز في أسباب الراحة وكفايات الحياة في المنزل ، اذ لما كان الفلاح يعيش في الخارج ، فلم يكن المنزل بالنسبة اليه الا مرقدا بدون أثاث ، أو مستودعا أو (عنبرا) من ذلك المعسكر المزدهم الذي هو القرية .

تشابه في المساكن ، اذ لما كان الفلاح تنقصه الشخصية ، فهو ليس الا فردا أو رقما في المجموعة ، وأسرته خلية في السكواة الزراعية .

قلة أو عدم الحجر اللازمة للاستعمال الزراعي ، اذ لما كان الفلاح أجيرا يعمل لحساب غيره ، فانه لا يدخر ولا يخترن خيرات الارض .

ولكن هذا المسكن المحروم من كثير من العناصر التي يخيّل لنا أنها أساسية يحده الساكن موافق له ولعاداته الى حد أنه يحول أو يشوه على صورته المسكن الذي هو أكمل وأكثر ملاءمة للعقل والذي يبنى له في العزب النموذجية .

في العزبة يملك المنزل المالك ، وفي القرية يملكه الفلاح ، وهو مع الأرض التي يشغلها يساوي ٢٥ جنيها على الأكثر ، وليس فيه ايجار ولا عليه ضريبة ، ففي الأولى هو يدخل في شروط الشركة أو ايجار الأرض ، وفي الثانية يملكه رب الاسرة .

يقضى الفلاح في هذا المسكن المقيس عليه حياته الخاصة ، وفيه لا يكون كما هو في غيره أقل الناس .

يؤوى كل منزل أسرة عديدة تتألف غالباً - عدا الاب والام واربعة اولاد أو

خمسة - من الجد أو الجدة اللذين لهما سلطة عظيمة ، ومن ابن متزوج وابن عم ذى ثواء طويل .

عندما يريد الفلاح ان يتزوج ، اذا كان كبيراً ، فهو يعالج المسألة مباشرة مع والد المختارة ويدفع له المهر . وإذا كان صغيراً ، والرشد فى الثامنة عشرة ، فان والدته تشرع فى التنقيب - بين ذوى القربى والجيران ويندر أن يكون ذلك فى بلد آخر - لتعثر له على الزوجة المثالية ، وهى فتاة فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة لا تجهل شيئاً من الاشياء الجنسية . وقانون سنة ١٩٢٣ يحدد سن الزواج بالسادسة عشرة (١)

يحتفل بالخطبة عن طريق الوكالة ، وهى عقد الزواج . والمهر الذى يجب ان يقدمه طالب الزواج يتراوح بين ٥ و ١٠ جنيهات يدفع فى الحال ثلثه ويتعهد بدفع الباقى فى العقد الذى يحرره المأذون أو العمدة .

يذهب أهل الخطيبة بهذا المبلغ الى المدينة ليعدوا الجهاز ، وهو فستان الزفاف الاحمر وقيصان وسواران من ذهب (يتراوحان بين ١٠٠ و ٢٠٠ قرش) والاثاث وهو : ابريق وحلتان من النحاس وطست والمائدة المستديرة (الطبلية) والصندوق المكسو بالزنج والمشمتملى على عدة ألوان ، وهذه العادة نفسها متبعة فى « القبيل » .
وحينما يكون المهر كافياً يشترى حشوة بالقطن أو بالقش ، ووسادة أو وسادتين ولحافا .

وفى يوم الزفاف أى حينما تترك العروس منزل والدها الى منزل زوجها ، فان

(١) كان من بين ال ٣٠٧٨٤ مسألة اللواتى تزوجن فى سنة ١٩٣٤-١٥٢٤٨ عذراء و ١٣٨٣٧ مطلقة و ١٧٠٩ أيم ، وكان من بين الجميع ١٢٦٨٨ دون العشرين . وفى سنة ١٩٤١ كان لمديرية المنيا شرف الفوز بأشد نسب الطلاق انخفاضاً وهى ٩ ، ٣ فى الالف بينما كانت هذه النسبة فى القاهرة وفى السويس : ١٢ ، ٨ فى الالف

كل هذه الثروة تحمل على حمل مؤجر هذه الفرصة وتمر خلال القرية ، والفتيات يتقدمن الجمل ويتبعنه مغنيات ومصفقات ، وأهل القرية البسطاء يعجبون بهذا الثراء الذي يمر أمامهم . وذلك يحدث بعد الظهر ثم يجي دور رحيل العروس فتزدهم جماهير النساء والاطفال الى غرفتها لرؤية حلاها وحللها . وفي عشية الزواج يكون النساء قد أحمنها وخضبن يديها ورجليها بالحناء . ولكي تنال صديقاتها اللواتي بلغن سن الزواج مثل حظها يقرصنها في فخذهما .

يتألف الموكب فتركب العروس على ظهر جمل أو في سيارة قديمة محتبئة تحت قماش احمر أو أبيض ، ومعها اثنتان أو ثلاث من قريباتها تحت المظلة . والرجال يطلقون البنادق في الهواء (هو تأثير عربي) بينما تتعاقب زغاريد النساء وجوقاتهن ويكون الزوج هو الآخر من جانبه قد استعد فاستحم في منزل أفضل اصدقائه . وقد نقلت اليه ملابس الحفلة وأتى (المزين) ليجمله وليضع له الحناء ، واجتمع الناس في الخارج لينظروا خروجه ، وأخيراً وبعد أن يستعد يحيطه رفاقه بشموع ويتألف منهم صف يحمل النور ، وهو يمسك منديلاً أبيض يضعه على وجهه كما لو كان يتحجب ، وهم يترغون بأغاني الحب واللذة (المواويل) ثم تدوى أصوات الطلقات النارية وتلقى النساء على الرجال قبضات من الملح ، وأخيراً يصل الموكب الى منزل والد الزوج فينتزعه اصدقاؤه من الجمهور ويجذبونه الى الداخل حيث تكون العروس موجودة بالفعل بين النساء اللواتي تحققن من بكارتها .

واذ ذاك يتم الاتصال بدون كثير من التستر (١)

وفي الخارج وبين صياح الجماهير يدوم الغناء والرقص طول الليل ويستمر الى اليوم التالي وتوزع حلويات ملونة وفطائر بالزيت ، وفي هذا اليوم لا يوجد أثر للاقتصاد

والشباب بعد زواجه يظل من اسبوع الى خمسة عشر يوما بدون عمل يدوى ، وفي هذا الوقت يدعونه بالامير .

يتأسس البيت الجديد ويظل متعلقا بالا بوبين عدة سنين ، ولكن هل سيقى
بزوجة واحدة ؟ نعم اذا كانت الزوجة ماهرة ومطبعة لخدمتها ، واذا أنجبت عدة
غلمان ، ونعم ايضا اذا كان الفلاح فقيرا لا يستطيع أن يدفع نفقات زواج آخر . وعند
المسلمين الاستحواز على أربع زوجات والتطليق شرعيان تماما . فهل يستفيد
الفلاح من هذه الرخوة القرآنية ؟ قليلا ، اذ أنه يلاحظ في الاعوام العشرة الاخيرة
انخفاض محسوس في تعدد الزوجات وفي الطلاق « والسبب في ذلك ناشئ من
ازدياد بأساء الفلاح أكثر من نشوئه من انتشار المدنية » . هكذا قال لنا أحد
موظفي الاقاليم ، ولهذا لما كانت مصر السفلى أكثر ثراء فانه يشاهد فيها التعدد
أكثر منه في الصعيد . وللتطليق يكفي أن يعيد الزوج ثلاث^(١) مرات عبارة التسريح :
الطلاق ، ولا شيء أسهل من هذا ، ولكن لما كان ينبغي أن يضمن الزوج نفقة
الزوجة المسرححة وأن يدفع مهر بديلها ، فان الفلاح يظل في أغلب الاحايين بزوجة واحدة
ينبغي الانتباه ايضا الى اعتبارات أخرى ، فالاحصاء يثبت بالنسبة الى الاهلين
القرويين رجالا بمقدار النساء تقريبا . ففي سنة ١٩٣٧ كان في مصر كلها ٧٩٤٧١٩٣
رجلا مقابل ٧٩٥٧٣٣٢ امرأة . وبما أن الكل يتزوج ..

وفوق ذلك فنحن نعتقد أن القانون الطبيعي والتأثير المسيحي الذي تمثله الاسرة
القبطية يقاومان التقاليد الاسلامية .

(١) ليست اعادة لفظة الطلاق ثلاث مرات ضرورية لتحقيق التسريح . وانما
يكفى النطق بها مرة واحدة ؛ أما هذا التثليث فهو يحول دون عودة المرأة الى عصمة
زوجها حتى تزوج بغيره . المترجم .

وأخيرا ان سني العمل والبأساء (١) الممضاة مشتركة ، والاطفال وإدارة الزوجة الجيدة تخلق ارتباطا هو من الوجهة العملية غير قابل للانحلال .

هل يمكن التحدث عن الحب ؟ ان الجاذبية الجنسية والرغبة في الإنسال تبدوان في المحل الاول .

ان مزاج الفلاح - وعند المرأة أشد منه عند الرجل - هو حاد وشهوانى بشكل خاص ، والفلاحة المستمتعة عادة بصحة أحسن من صحة الفلاح الذى تضعفه البلهارسيا هي أصغر منه سنا ، وهي - منذ العصور الاثرية ورغم الاسلام - (٢) حرة في تصرفاتها .

تطلب منها تقاليد القرية تحت عقوبة الموت أن تحمل الى زوجها جسما طاهرا ، ولكن روحها تكون على غير ذلك منذ وقت طويل ، فهي منذ الطفولة تعرف وترى الصلات الزوجية بين والديها ، إذ أن الاختلاط مألوف بسبب ضيق المكان وفقدان الحياء ، وأن محادثات الفلاحات حتى أمام صغيرات الفتيات تدور دائما حول هذه المسائل ، وقد يكون ذلك دون رذيلة ، ولكنه أيضا دون تحفظ ، وهن يتبادلن وصفات وطقوسا لكى يرقن أزواجهن ، أو يحتفظن بهم .

وكذلك الرجال من جانبهم - وإن كانوا أكثر تحفظا ولكنهم ماديون جدا بسبب حياتهم نفسها - لا يفهمون إلا الحب البدنى ، وهم يلقون بأنفسهم إليه في بساطة ،

(١) قد نوه حضرة صاحب المعالى عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية بهذا فى جريدة (البروجريه اجيبسيان بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٣) اذ قال : ان اختلاط المسلمين بالاقباط فى مدن وقرى الصعيد قلل الطلاق اذ دهش المسلمون حين شاهدوا عدم الطلاق بين الاقباط المحيطين بهم ، وأعلن أن بلدته (ابوقرقاص) - وثلاثة ارباعها من الاقباط - لم يحدث فيها طلاق واحد من عشرين سنة وكذلك مدبرتنا المنيا واسيوط عدد الطلاق فهما قليل وقليل جدا

(٢) لم يضابق الاسلام المرأة فى تصرفاتها وانما منحها الحرية ما دامت فى حدود الأدب والاحتشام . المترجم .

كل مع زوجته . يقهرهم على الأمانة قانون القرية أكثر مما تقهرهم عليها الفضيلة ، إذ أن الزنى يغسل في الحال بالدم ، وكذلك تضطربهم إليها الفاقة ، إذ أنهم لا يستطيعون اصطحاب فتيات اللذة .

لا تدوم نار الهوى طويلا ، فالفلاحة تفقد فتنتها في الثلاثين ، ولكن الأولاد الذين أنجبهم لزوجها يربطونه بها ، إذ كل منهما يعلمهم فوق كل شيء . . . ، فأما هي ، فلكي تنال اعتباراً اجتماعياً ، لأن العقم وضاعة ، وهو أوفر الأسباب جلباً للطلاق (١) أو لتعدد الزوجات . وأما هو فلكي يفوز بمعينين وخلفاء يسمحون له بالراحة وبإصدار الأمر .

وهكذا كان النسل كثيراً ، فالأسر ذوات خمسة أطفال أحياء - وذلك يتطلب وضع ثمانية أو عشرة - هي أكثرية وبقدر ما يكبرون تنال والديهم من الأهمية .

وأخيراً إن الذي يربط الرجل بالمرأة هو مهارتها وسلطانها اللتان تفوقانه غالباً « إن الرجل نهر والمرأة جسر » . (مثل فلاحي) .

بعد زواجها بخمسة عشر يوماً وإلى أن يبلغ ابنها الأكبر خمسة أعوام هي دائماً في موسم القطن تساعد زوجها في الحقول ، ولكنها - على العكس من القروية العلوية - لا تقوم بالعمل الضخم .

هي في أغلب الأحيان مشغولة في منزلها وذلك حسبها ، لأنها طحانة وخبازة ، وهي تطعم وتحلب الجاموسة والماعزة وتعني بالطيور وتعد السماد والوقود ، وتخطط وتغسل الملابس أو تتفلى في جماعة .

(١) في سنة ١٩٣٤ كان من بين ٣٢٧٨ طلاقاً ٢٣٩٦ قد فرقت بين أزواج بدون أولاد . وفي سنة ١٩٤٢ بلغ عدد الطلاق ٦٨٠٥٥

إنها تذهب وتجيء حرة في حدود التقاليد القروية ، فهي لا تختبئ من الرجال كالثرية أو كالحضرية ، ويجب عليها أن تحمل الطعام (الفطور) الى زوجها الذى يشتغل هناك ، وتعود بأرواث الجاموسة وأن تذهب لاحتضار الماء عدة مرات فى اليوم ، والى السوق لتبيع بيضها وزبدتها وطيورها وتشتري الزيت وما شاكله ، وهنا تلين الشدة القرآنية ^(١) أمام الضرورة والتقاليد .

تحتفظ الفلاحة بملكية الأثاث الذى أحضرته يوم زواجها وبثمن ما تبيعه . هي تدخر وتعير زوجها ، وهذا يعطيها شيئاً من السلطة . وإذا اضطهدا زوجها فأنها تنسحب الى منزل والدها ثم تضع لعودتها شروطاً كـفستان أو قرط . . . إن حاجتها الى زوجها أقل من حاجته إليها .

منذ سنتين فى أثناء الاستيلاء على الرجال لمواجهة خطر الفيضان كانت امرأة تولول فقلنا لها : لا تحزنى فقد أخذ منك زوجك وسيرد إليك . — ليس زوجى هو الذى أبكيه ، وإنما هي جاموسى التى لا أجدها بحثوا لى عن جاموسى .

تستمع الفلاحة بهذه الحرية وتلك السلطة ما دام لديها من الحكمة ما يجعلها لا تخرج على التقاليد ، إذ هنا يسترد الرجل سيادته فهي تموت ولا تدع نفسها للطبيب يفحصها أو يعالجها . هي تخرج وتتحدث مع رفيقاتها كما تريد ، ولكن الويل لها إذا فوجئت فى رفقة رجل أو منفردة فى مكان لم تعودده . وإذا هوت فى الإثم فان زوجها يتهمها أمام والديها ، وإذا ذاك يتعهد أبوها أو أخوها أو ابن عمها بقتلها . وجرائم القتل بسبب العرض التى هي لا تزال مألوفة إلى حد كبير والتى هي محبذة من

(١) لا نرى ان هناك شدة قرآنية تلين أمام الضرورة فى هذا الصدد ، اذ الاسلام الصحيح لا يقهر المرأة على القبول فى بيتها ، بل هو يبيح لها المساهمة فيما تستطيعه من الاعمال ان لم يوجها عليها . المترجم ،

الإسلام^(١) ان لم تكن من أوضاعه ، تلقى رحمة العدالة الرسمية . وقسوة العقوبة هنا لا يعوزها التناسب مع الخطيئة فحسب ، ولكن مع تربية المرأة على الأخص . وهالك مثلاً من بين مائة (٣ مارس سنة ١٩٣٧) .

بينما كان محمود احمد عبد الله مغادراً قريته القريبة من نجع حمادى متجهاً الى الحقول كعادته ، إذ علم فى الطريق أن شقيقته الأيم البالغة من العمر ٣٥ سنة قد أغواها رجل ، فلما سمع هذا النبأ عاد فوراً الى القرية وتوجه الى منزل أخته ، وعلى أثر ذلك ودون أن ينبس ببنت شفة قبض على فأسه الذى كان معه وهوى به على جمجمة تلك التعسة فحطمها . ولما انتشر خبر الجريمة ، اتجه مأمور المركز ووكيل النيابة ومفتش الصحة الى موضع الحادثة ، وقد ترك المتهم نفسه لرجال الحفظ يقبضون عليه بدون مقاومة ، وقدم هو نفسه الآلة التى استعملها فى قتل شقيقته . وبعد أن اعترف بجريمته أعلن أنه قد أراد الانتقام لشرف أسرته .

يمكن أن تدير المرأة المنزل إدارة واقعية ، فهذا يتجاوز عنه ، ولكن الويل لها عندما تقصر فى احترام زوجها كأن تمشى أمامه حين يذهب الى السوق ، أو أن تتجىء لتكلمه أو تتحدث بصوت عال بينما هو يتحدث أو يلعب مع رفاقه ، هو لا يدعوها ألبتة باسمها ، ولكنه يقول لها : (يا مرة) ، أو يا بنت ، أو يا أم احمد مثلاً ، وهو يظهر أنه هنا الرئيس بتصنعه احتقارها ، وبعدم ابداء أى حنان نحوها . وبقدر ما يتقدم فى السن يتطلب الاحترام ويكتفى به . ولقد قال لنا أحد الفلاحين :

« ان زوجتى أنجبت لى عشرة أولاد ، عشرة أولاد ليس بينهم واحد أحول

(١) لا يحبد الإسلام جرائم القتل الفردية بسبب الاعراض ، وإنما هو يعذر مقترفها فيخفف عقوباتهم ، أما رجم الآئمة المحصنة وجلد الغير المحصنة فامرهما موكل الى الوالى لا الى الافراد ، وهو فوق ذلك لا يبيح العقوبة الا بعد تحوطات صارمة . المترجم ،

ولا أعمى . . هم يحيطون بى فأحس أننى عظيم ومحترم . وبفضل أمهم لم تقدم أقدامهم قط الى طرق العار . انها تمسح لهم المخاط وتنظفهم وهي توصيهم دائماً أن يقبلوا يدي عند عودتى من الحقل ، وان ينهضوا إذا كانوا جالسين عندما أدخل الحجرة وألا يدخنوا أمامي ، وأن يبدءوا بتقديم الطعام إلى .

إن الفلاحة التى يمكن أن تكون أمّاً من الرابعة عشرة إلى الخامسة والأربعين تضع حملها كأبسط ما يكون فى العالم جالسة على طريقة المصريات الفرعونيات ، والطوارئ السيئة نادرة .

ولكن هذا الحادث يجب أن يسبق ويلحق بكثير من الأعمال المعدة لضمان أكبر قدر ممكن من الصحة والسعادة للطفل وفيها الاحتياطات السحرية تفوق كثيراً العناية الصحية ، والأم مقتنعة بأن جميع ما تنتظر إليه بانتباه أو تشييه بقوة أثناء حملها سيؤثر فى الطفل الذى سيولد . ولهذا هي تتجنب أن تنظر الى متوفى ، وهي بالعكس تحقّق الى صور حسان الرجال ، وهي صور « ايينال » أو المجلات المصورة التى تلتصقها على الحائط . وينبغى ان تستطيع أكل ما يعجبها . فاذا حرمتها ، فان الوليد سيتأثر بنتيجة ذلك تأثراً سيئاً

على ثر ولادة الطفل يوضع فى (مقطف) يستعمل كمهدله . ولا يحم قبل اليوم السابع . وهذا الإحماء الأول فيه معنى التطهير . وتقوم به القابلة بوساطة إبريق يستعمل خصيصاً لهذا العمل . وهو يختلف فى حليته تبعاً لكون الطفل ذكراً أو أنثى . وكذلك حسب ما يكون غلاماً أو فتاة تلحق الأم نجاسة شرعية إبان ٤٠ أو ٣٠ يوماً . وهي عادات اسلامية ^(١) تجدها فى المغرب .

(١) يريد المؤلف ان يقول انها عادات شائعة فى البلاد الاسلامية ، اذ الاسلام

نفسه لا يفرق بين النفساء فى انثى والنفساء فى ذكر ، المترجم ،

إذا كان الوالد في وقت الوضع يعمل في الحقل وكان الوليد ذكرا ، فانهم يسرعون بنقل ذلك النبا السار اليه . وهنا يكون للرسول الحق في هدية ، وهذا التقليد يذكرنا بأحد نصوص «جبري» وهو : « . . . لتسقط اللعنة على الرجل الذي حمل النبا الى والدى قائلا : إن ابنا قد ولد لك وغمره بالسرور . . . ليكن ذلك الرجل . . الخ » . (٢٠ ، ١٤ - ١٨) .

وعند ما يولد الطفل تعلق خرزة زرقاء في عنقه لتجنب الحسد ، ولنفس الغاية يخفى الغلام الذي يتباهى بحاله تحت ملابس فتاة الى الفطام ، وأمه ترضعه إبان عامين على الأقل مكثرة رضعاته بدون تبصر ، وهذا يحدث التهابات في المعدة والامعاء . نحن نشاهد نفس هذا التعيين في مدة الرضاع عند قدماء المصريين وفي أفريقيا السوداء وفي أوامر القرآن ، « والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين » (سورة ٢ آية ٢٣٨) . تعتقد الفلاحات أنهن بتأخيرهن الرضاع على هذا النحو يطلن مدة عدم الحمل .

وعند ما يجب أن تخرج ، وهذا لا يتأخر كثيرا ، تحمل الطفل على كتفها كركوب الحصان ، وذلك لا يمنعا من أن تحمل فوق رأسها (البلاص) مملوء ماء ، وحينئذ تعمل في الحقل تترك وليدها على الأرض بالقرب من الطريق المتغفل في الزراعة تحت ظلال حطب الذرة ، وهو ليس دائما فوق قطعة قماش ، هو يتدحرج في شق المحراث ويحمل الطمي الى فمه ، ويصيح وينام ويتعود . وإذا بكى كثيرا فان كل أم تمر من هناك تعطيه ثديها .

يظل الطفل في المنزل الى مناهزة العام الخامس ، فيعود سريعا على إلفة الحيوانات التي تعيش فيه ، ثم لا يلبث أن يصير في حالة تمكنه من الانشغال بها كأن يعرف كيف يقود الحمار الى الحقل ، والجاموسة الى القناسة ويركب فوق ظهرها ، ويثيرها في دوران الساقية ويعرف كيف يصيح لذود الطيور السارقة ، ويقذفها

بالحجارة ، ويجمع القطن ، بل يذره ، وهو لا يفعل كل هذا دون أن يتلهي كثيرا ولا تعوزه الرفاق ، فطول النهار بينما يكد الرجال في الحقول ، وتعمل النساء في المنازل أو في القناة تكون القرية للأطفال ، وهم الذين تقع عليهم عين الداخل قبل كل شيء : يعيشون عراة في المستنقع ، ويتعلمون السباحة ، وبطونهم كبيرة مستديرة ، لأنهم يأكلون من كل شيء . هم يلعبون في التراب لعبة النحلة بالبصل ، ويقفز كل منهم على رجل واحدة ممسكا بإيهام رجله الأخرى ، ويرمون بالنبله قاصدين نخلة أو طائرا . وفيما بعد يلعبون (السيجة) وهي أحجار صغيرة يضعونها في ٤٩ مربعا يرسمونها على الرمل .

وحوالى السنة السابعة يدخل الختان الفلاح الصغير في طبقة الرجال ، وبعد ذلك ينبغي أن يذهب الى المدرسة الازامية في الصباح على الاقل ، إذ أن والديه مضطران إلى إرساله اليها تحت تهديد عقوبة غرامة قدرها ٢٥ قرشاً (و ٥٠ قرشاً إذا تكررت المخالفة) . يوجد بين الفلاحين خمسة وتسعون في المائة أميون ، وتريد الحكومة أن تحو هذا العار في الجيل المقبل . قضى دستور سنة ١٩٢٣ بالتعليم الازامى ، ولكن التطبيق لم يتعقب فيه إلا منذ سنة ١٩٣٥ . تعددت المدارس القروية وبنيت تدريجياً مؤسسات في كثير من القرى وأرسل اليها مدرسون . وفي كل عام تجد بعض القرى - التي لم توالمربين فيما تعي ذاكرة الانسان - نفسها مزودة بطائفة من المعلمين ، وهكذا سيكون في سنة ١٩٤٦ - ٤٦٠٠ مدرسة أولية مجانية ، وسيتلقى جميع أبناء الاهالى التعليم ، ولكن الوالدين لا يفهمون هذه الخدائة . ولما كانوا معتادين على غير هذا الطغيان ، فانهم لا يذعنون له . وهناك صعيديون من عزبة بولكان التابعة لمركز طوخ عندما وجهت اليهم مخالفات ، لانهم لم يرسلوا أولادهم إلى الدروس الازامية في المدرسة الاميرية هاجوا المدرسين وجرحوهم ، ذلك لانهم لا يشتغلون إلا قليلا جداً بالتعليم ، وانما هم يريدون أن يعينهم أولادهم ، وأن يدروا عليهم ، وفوق ذلك فإن

منهج الكتابيب لايزال يحيا في كثير من القرى : مدرس أعشى جالس على الارض يجمع حوله بضعة أولاد ، وهذه الطريقة لاتكلف كثيراً وهي تظل ساعتين أو ثلاثا في اليوم أثناء ستة شهور من العام . وفي مدى ثلاثة أعوام يحفظ الفلاحون في ذاكراتهم وبضربات العصى قليلا من القرآن . وفي مقابل غناء (الفقى) يتسلم رغبين أو قرشاً من كل تلميذ في الأسبوع . ومنذ الآن حتى البنات الصغيرات يجب أن يتعلمن ، ولكن بعد الظهر . وفي الصباح يساعدن أمهاتهن ويقمن بإحضار ما يلزم من الماء ، وهن يحاولن أن يحتفظن باعتدال (البلايص) الصغيرة التي توكل اليهن . وعندما يكبرن يستطعن أن يحملن على هذا النحو ٣٠ لتراً من الماء . وهن مكلفات على الأخص بجمع كل الأرواث والقمامة التي يمكن أن تستعمل في المنزل أو في الحقل ويصنعن (الجلة) : فبقليل من الحما والقش الناعم وكثير من الروث يؤلفن نوعاً من الملاط يعجنه بأيديهن وأرجلهن ثم يصنعن منه كرات يبسطنها على شكل أقراص ، قطر الواحد منها ٣٠ سم وهذه الاقراص تصف في الشمس على الارض أو تلتصق على الحائط ، فإذا جفت كدست على السطح وهي فحم الفلاحين^(١)

هن يتلهين بلعب قماشية كدمى ، ولكنهن غالباً إلى الثانية عشرة يختلطن بألعاب الغلمان ومشاعلهم . وأحياناً منذ السنة الثامنة إلى زواجهن يلحقن بخدمة السيدات الثريات (الهوانم) .

يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الاطفال الذين يعيشون في قطع ، والذين يبدو أنهم مهجورون ، والذين ليس لهم إلا أسماء شخصية هم ينتسبون إلى الجماعة ، وان إهمال

(١) هذا النوع من الوقود هو زراعى بحالة جوهريه ، وهو مستعمل في أكثر الجهات اختلافاً أى في كل مكان يضطر فيه نقص الخشب وقلة السعة الأهلين الى اللجوء اليه . وهكذا يفعل الريفيون الصينيون وريفيو فرانساً في أكثر من موضع .

والديهم اياهم وتركهم جم-لاء يشعر بأنهم لا يكثرثون بهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فوالدوهم يحبونهم إلى حد الجنون وأكثر كثيراً مما يجب بعضهم بعضاً . وليس بين هؤلاء - كما في الصين - يجد المرء أطفالاً يشترهم ، والملاجئ ، وماوى الايتام هنا عبث تماماً ، وكثير من المنازعات بين النساء ، والمشاجرات بين الرجال تحدث من الإفراط فى حساسية أحد الآباء أو إحدى الامهات : إذا أساء أحد معاملة ابنهما أو ضربه فإن هذا يكفي لان يشمخا مفترسين ، وأن يخرجوا ابنهما من المدرسة وينتقما له فى وحشية ، وان كان ذلك لا يمنعهما من استعمال الشتائم والضربات «لتكوين» وارثيهما ، وكذلك الاطفال هم مرتبطون جداً بوالديهم ، وليس ارتباطهم بأمهاتهم أقل منه بآبائهم وهو ارتباط يبدو أنه ناشئ من تقاليد اجتماعية ودينية ، ومن الخوف والسمعة أكثر من نشوئه من العاطفة .

ومع ذلك فحب الابن لأمه - ولو كان شاباً ومتزوجاً - هو العاطفة الأكثر جدارة بالملاحظة فى الأسرة الفلاحية . وإذا نقص احترامه إياها كان منبوذاً من القرية كلها ، اذ : « الجنة تحت أقدام الأمهات » . وفى بيته الخاص هى التى تحكم مادامت حية ، وهى نفسها تميز به فتدعي : أم على مثلاً .

تؤلف هذه الصلة الرابطة الأسرية الأكثر متانة ، وهى متانة حالية كلها ، لان سلسلة الأسرة فيها غير معتبرة . فالأسرة القروية هى بدون أجداد ، وبدون اسم عائل ، وبدون خصائص ، وبدون استقلال . وفى هذا أيضاً هى تفتقر عن الأسرة الصينية التى تشغل فيها عبادة الاجداد وشرف الاسم مكاناً عظيماً .

وهنا تتلاشى الخلية الاسرية فى جماعة الاقارب والاصهار الأقربين والأبعدين ، وهذه هى الأسرة بالمعنى الاجتماعى أى التى تحت سلطة عميدها تشترك فى الجناز والاعراس ، وتحتضن أحقاد كل عضو من أعضائها وتنقم لشرفه ، وتلك صلة وقتية تماماً ، إذ أنها فى مدى ثلاثة أجيال لاتعود تعرف .

وهكذا ليست الأسرة التي تقطن المنزل بأكثر منه في تأليفها كلاً متماسكاً . وكما أنه لا توجد حياة أسرية لأنه لا يوجد منزل مريح ، كذلك لا توجد أسرة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لأنه لا يوجد رابط عميق .

الأسرة هي جماعات تعمل في الأرض ، والأطفال يولدون للعمل في الأرض ، والحياة الخاصة تتابع في إطار من التقاليد التي تربطها بالأرض .

الفصل الثامن

التقاليد الريفية

هناك تقاليد وأفعال وطقوس ينقلها الناس من جيل الى جيل دون أن يحكموا عليها ولا أن يتدبروها ، بل ولا أن يفهموها . (١)

تقاليد ريفية تبين لحة القروى بالارض وقرابة الجماعة الفلاحية مع الماء والحقل وثمارهما .

هذه الصلة العميقة قد بدت لنا واضحة بعد أن رأينا عمل الفلاح وجسمه ومسكنه وقبل أن ندخل في دراسته النفسية (في الفصل الآتى) ولكى نفهمها جيدا يجب أن نعرف بعض تصرفاته الريفية ، وهي توجد في كل لحظات الحياة الاجتماعية ، وهي ليست اعتقادات خرافية فقط ، ولو أنه كان يجب علينا أن نوضح أصل كل واحدة من هذه العادات المتبعة ومعناها لتحيرنا كما يتحير الفلاحون أنفسهم ، ومع ذلك فإنها تنتزع منها فكرة عامة ، وهي فكرة صلة غامضة بين الطبيعة والانسان . ففي الاشعور عند ذلك الذى يكرر تلك العادات يلمح المرء الا حساس الفطرى بالانتساب الى الارض ، وهذا الاحساس قد ساهم كثيرا في ركود العالم الفلاحي .

يلاحظ المرء عند الفلاحين احتراما عظيما للماء ، والماء الآتى من النيل ، ولكى لا ينتزعوا منه حياته لا يرشحونه ، وهم يقدمونه الى المرسل الدينى (٢) الذى يمر بهم

(١) سليم حسن ، « العادات المصرية الباقية الى الآن في مصر الحديثة » ، نشرة جمعية
أصدقاء الفن القبطى ، المجلد الثانى سنة ١٩٣٦ ص ٤٧ - ٧١ .

(٢) هذا تقليد خاص بالمسيحيين « المترجم »

ليباركه ، و يقدمونه كمشروب مألوف ومحبوب . هم لا يحتاطون من الماء ، ولا يميزون منه ما هو للاستعمال الداخلى مما هو للاستعمال الخارجى ، فكل ماء حسن كالنيل الذى يأتى منه .

يمر عيد عروس النيل (عيد الخليج) عند تمام وفاته فى القاهرة ، ولا يساهم فيه الفلاح ، ولكنه يشعر أكثر من جميع الحضريين بأن النيل ذكر حى . يجرى النهر دائما فى أفقه سواء أكان ذلك بالقرب منه أم على بعد كأنه خيط ، وهو يلجأ اليه أكثر مما يلجأ الى بنى الانسان ، نعم هو لا يتوسل اليه كما كان أجداده يفعلون ، ولكنه يعيش فى صحبته ، بل يمكن أن يقال : إن حبه فى دمه .

توجد بين النيل والفلاحين نفس الصلة المتينة التى توجد بين المحيط وسكان شواطئ بريتانيا الفرنسية . ألا يدعونه بالبحر ؟ ألا يدعون حقولهم بالشواطئ (الارياض) ؟ . انهم يربطون بزيادة النيل فكرة الخصوبة للنساء ، والصحة للرجال ، فيحتفل بالزواج على التفصيل فى ذلك الموسم . وعندما يكون الطفل نحيفا أو مريضا تحمله والدته الى النيل فى ذلك الحين أيضا وتجعله يلقي فطائر وتقرأ الى الموج الطامى بينما هو يكرر قوله : « يا نيل اجعل قوتى تزيد كقاعك » . والفلاح المحتضر قبل أن يلفظ نفسه الأخير يسقى جرعة أخيرة من الماء الحى .

« تكرم يارب وبارك مياه النهر فى هذه السنة ، واجعله بفضلك يصل الى الارتفاع الموافق ، ومتع وجه الارض بأن تكون حقولها مروية ، وغلاتها متضاعفة » (قطعة من القداس القبطى) .

إن طمى النيل يساهم أيضا فى عادات الحياة والموت ، فالفلاحة قبل وضعها تتحامل على نفسها الى شاطئ الماء وتأخذ قبضة من الحما وتبتلعها أثناء الولادة لتفوز بهوضع سعيد .

وعند ما يحلق المزين شعر الطفل للمرة الاولى ، فان شعر هذه الخلاقة الطقوسية لا يطير في الريح ، وانما هو يوضع في كرة من الطين ويلقى في الماء ..
وللتدليل على الألم تطلّى الباقيات بالطين صدورهن ورؤوسهن وأذرعتهن .
وجثمان المتوفى يوضع في الأرض بدون تابوت ولا ملابس .

يخفى الفلاحون في الأرض القدور التي تحتوى عل مدخراتهم وعلى الطلائع السحرية التي يجب أن تعمل عملها ، وكل ولادة تطبع الأرض بطابعها : فالمشيمة تدفن في المنزل ، وحبل السرة يوضع في كيس مع حبوب من الفلال ويغيب في حقل الأب .

تمتزج ثمار الأرض أكثر من هذا أيضا بذلك التنسك القروى ، فالتشابه بين الحياة النباتية وحياتهم الجسدية الخالصة يحملهم على الاعتقاد بوجود تأثير بين هاتين الخصوبتين ، واحتفال اليوم السابع (الإحمام الاول ووضع الاسم) يحتوى غالبا على التقليد الآتى : تحمل الى الحجرة ثلاث قفف مملوءة بالحبوب المختلفة ، احداها مغطاة بغربال ، فوqe يرقد الطفل ، وفي ساعة الإحمام تهز القابلة الغربال كأنها تغربل الطفل والحبوب فى آن واحد ، ثم تعيد الحبوب الى القفة وتلف الوليد وتنثر فوقه بضعة حبوب .

بنفس الكلمة التي يعين بها حجب الأطفال عن الرضاع وهى الفطام ، هم يعينون المرة العاشرة والاخيرة من سقيات الذرة ، وفي ذلك اليوم تقدم الفطائر الى العمال على نحو ما يقدم الى الام عند الرضعة الاخيرة .

توافق جمع الغلة دائما إشارات رمزية ، فقبل بدء الحصاد تصنع من أحسن السنابل دمية تدعى : (عروس القمح) وتظل معلقة في المنزل الى السنة التالية كمجلبة للسعادة .

وكذلك لوصول الحياة يخلط أحسن الحبوب يذور الغد . وفي (الجرن) يدس
شيء من الخبز في السكومة المراد تذريتها وغربلتها .

« كنت أدخل المنازل وأبارك الماء والخبز والقمح : فلما كانوا يشربونه ويرشونه
على أنفسهم وعلى مواشيهم وفي منازلهم ، والقمح كانوا يلقونه في حقولهم ، والخبز كان
لا بد لي من أن أكسره وأذوقه . وعلى أثر ذلك كانوا يحفظونه في مدخرهم ليباركه
الاله » . (تقرير مولاي خزام نوفمبر سنة ١٩٣٧ بعد زيارته الأسقفية) .

يشع سرور الغلة على الذين لم يزرعوا ، ولسكنهم يشتغلون في القرية للجماعة . فمن
التقاليد أن تقدم طليعة الإنتاج إلى قارئ القرآن ومؤذن المسجد والخالق و (فقي)
الكتاب والنجار . كل هؤلاء يأتون ليمسحوا عن حزمهم ثم يلتقط الفقراء سنا بلهم .

أما جني القطن ، فهو لا محل فيه لأية مراسيم^(١) ، وقد يكون ذلك لأنه نبات
أكثر حداثة ، وقد يكون لأنه زراعة رأسمالية لا ترمز إلى القوات ولا إلى الحياة اليومية .
وعلى العكس من ذلك النخل الذي هو قديم بقدم مصر الزراعية يدخل في جميع
أوقات الحياة القروية ، فالظلال والسقف والأشعة والأقفاص والحبال والمساكن ،
كل هذا من تلك الشجرة . وقد رأينا السعف يزين هودج العروس والقبر .

وفي صبيحة الزواج يجرد الزوج سبعة من خواصها ، ويشقها من طرفها ويذهب

(١) ومع ذلك ففي التينيسي بالولايات المتحدة مثلاً يوجد عيد القطن فيه تنظم
مواكب وصفوف من المركبات مدى أربعة أيام من شهر مايو في مدينة منفيس . وأول
هذه الاعياد أقيم في سنة ١٩٣١ . ولقد صار (كرنفال) القطن سريعا أحد متع أمريكا
الأكثر شعبية . راجع المجلة الجيوغرافية الإلهية مايو سنة ١٩٣٩ ج . بيلور . لوحات
تينيسي .

إلى أصدقائه فيمسمهم بها ، ليحمل إليهم السعادة ، فضرب الرجل بمجريدة خضراء بركة ،
والسعف هو زهور الفلاحين ، إذ لا يوجد موكب حفلة ولا حداد بدون مساهمته ،
وتناول طلع ذكر النخل ممتزجا بالماء شراب سحري لا إزالة العقم ، وعلى الضد من
ذلك ابتلاع نواة أو اثنتين أو ثلاث يمنع الحمل سنين بقدر عددها .

يختلط السحر بالطب في الاستعمال التقليدي لمنتجات الأرض لاجل حفظ الصحة
أو إعادتها . وقليل من التجارب وكثير من الخرافات يوضحان تلك المجموعة المدهشة
من الوصفات والتعويذات الموجودة لدى الفلاحين . إنهم قد كونوها مما تحت أيديهم
فنتقيع خوص النخل أو ورق الذرة لاضطراب الأمعاء ، وعصير البصل وفحم حطب
القطن للأعين ، وصمغ السنط للعظام المكسورة ، وأربطة القنب للأورام والروماتيزم
وهكذا يتعلق العلاج كما ترى بالكفايات النباتية . ونحن نضيف إلى ذلك أن نتيجته
تتعلق في جزء كبير منها بالتصديق . تمتد الخرافات إلى كثير من تلك التقاليد الغير
المؤسسة على العقل والتي هي صاحبة السلطان . ولكي يصف المسيو «بلاكان» صورها
الكثيرة هو يخصص لها أكبر أجزاء كتابه^(١) كما لو كانت كل حياة الفلاحين تتتابع
في هذه المنطقة الخارجة عن العقل . يخيل البينا أن الكتاب يلحون أكثر من اللازم
على خرافات الفلاحين . هم يعددونها برحاء . وعلى الرغم من كل ما نشر في هذا
الصدد لم تغلق الدائرة . فما الفائدة من إغناء المتحف بها . انه ليس متحفاً مبتكراً ،
فكثير من هذه الطقوس عام في الشرق أو في الاسلام^(٢) وأما الأخرى التي تصعد
غيباً وراء المسيحية إلى مصر العتيقة فهي تتم عن الركون الذي رسمنا هيكله .

انه من المحقق أن هذه العادات الشائنة تبين عزلة الفلاحين أكثر مما يبينها نوع
حياتهم ، وتولد ذلك المنعزل الذي « يصنعه الانسان لنفسه بكل ما يكدره فوق

(١) أنظر الكتاب المذكور في المصادر .

(٢) يقصد البلاد الإسلامية لا الإسلام نفسه . « المترجم »

منتجاته » . الى ذلك النوع من الحياة الذى يدفن الفلاح بالفعل ، هو يضيف أقال
تقاليد الدينية .

فى احترام الماضى الذى يتدثر بالغموض - بسبب جهل الفلاح - قد تكون حاجز
هو يعتبره غير قابل للتخطم ، حاجز يحتفظ بالافراد ويؤيدهم ، ولكنه فى الوقت
نفسه يخنق حريتهم وابتكارهم وينيم عقولهم الى حد أنهم لا يعرفون كيف يميزون
الجوهري من الطفيلي .

ومع ذلك فهذا العماد الداخلى مهما يكن منتشرأ لا يؤلف كل نفسية الفلاح ، هو
حد الضواغط التى تنوء عليه : كضغوط الأرض وضغوط الأحياء ؛ سيئاته عظيمة ،
أولئك لا يهدم روحه أكثر من ذينك المشوهين الآخرين . . .

الفصل التاسع

نفس الفلاح

لا يعيش الجنس القروي الا من نفسه . هو ينمو كالنحل مؤسساً مأوى جديدة ، ولكنه لا يتلقى أى عنصر أجنبى ، وفى هذا قوته وضعفه ، اذ المرء يولد قروياً ، ولكنه يصير عاملاً ، وهنا يقدم فعل البيئة أى فعل الداخل استمراراً يستحيل عليه ألا يترك أثره ، لافى جسم من يعيش فى تلك البيئة فحسب ، بل فى نفسه أيضاً .

هذه البيئة نحن نعرفها ، وهى وادى النيل وخصوبته ، والنظام الاجتماعى وضغطه . تستعبد مطالب أحدهما والآخر الفلاح ، فحياته تبعية : تبعية للأرض وللأشياء وللأحياء وللأموات ، يطيع الفلاح دائماً كأنه طفل قاصر ، وفى هذا المظهر - على ما نعتقد - يرتسم خط مزاجه .

ومهما تكن الدراسة النفسية العامة جد وعرة وجد جامحة الى التعميم المغالى ، فاننا نستطيع مع ذلك أن نقدم فى شئ من التأكد الخصائص الأساسية للروح والطبع الفلاحيين . إن العوامل العامة والبلد والجنس والدين والحالة الاجتماعية ونوع الحياة ، وبالاختصار : كل تلك الوحدة التى رأيناها فى الفصول السالفة تسمح لنا بأن نعبر عن نفس الفلاح بصيغة الأفراد .

سيكون من السهل ، ولكن من العسف أن نحكم عليه من وجهة واحدة كما يحكم عليه سادته ، اذ يقولون لنا ما يلى :

« الفلاح كسول ، وكل مجهود بدنى يشق عليه ، ولهذا هو يفضل أن يستغنى من تحسين حالته على أن يتعب . . . »

«إن الفلاح الحافظ للجميل جد نادر ، فمهما يكن الخير الذى يقدم اليه لا يوجد عنده ابدا تقريرا أقل انعطاف نحو أصحاب الأعمال ، فأمامهم يقسم الأيمان ويظهر نشاطا وعاملا ، وعندما لا يكونون موجودين يعود كسولا رخوا ولا يبدأ بأى شئ ، انه شعب جبان مستكين» .

«إن الفلاحين أغبياء وميالون الى الشر ، وعندما يستطيعون الخداع يخدعون» .
وهناك ملاك ونظار آخرون أكثر تفاؤلا ، فهم يقولون لنا مثلا :
« إن فلاحينا - تحت الظواهر المليئة بالضجيج - ودعاء ومسالمون وسعداء بحظوظهم ، ولكنهم لا يحفظون الجميل كثيرا . وفيما عدا الأرض لا يهمهم شئ» .
« إن الفلاح دائما متفائل وحافظ للجميل وعامل ووفى » .

يبدو بعض هذه الاحكام متناقضا مع البعض الآخر ، ونحن التقطناها من بين شهادات من مصر السفلى كما هى من مصر العليا ، وهي لاتصل الى أن تكون صورة صادقة رغم حسن نية الذين ينقلونها لنا ، والسبب في ذلك هو عدم تقديرهم الفلاح .
ومع ذلك فهى حقائق تلك التى يؤكدونها ، ولكنها حقائق متحيزة وجزئية والواقع الحى أكثر تنوعا من هذا . ولقد يكون من السذاجة أن يقال - لحل تلك التناقضات الظاهرة - إن الانسان يولد خيرا ، والجماعة تصيره شريرا ، أو ألا يرى المرء الا مظهرا واحدا حسب الميل أو النور الذى يحمله للموضوع ، أو حسب تفاؤل مزاجه الشخصى وتشاؤمه . نحن نأخذ كل شئ ، لأن كل شئ حق ، فنأتى النفس - كمرئيات المناظير المجسمة المبرزة - لا تتضح الا بتقريب المظهرين بواسطة جمع كل العناصر .

لنلاحظ بديا - ويمكن أن يكون ذلك شيئا قد تنبى به عن طريق الفصول السابقة - أن عمومية ذكاء الفلاح أكثر من خصوصيته ، وجهوده أشد من حركته ،

وسليته أعظم من إيجابيته ، وإن حكمته وتجاربه متماسكة من أمثال ذات مغزى تفصل حسب ظروف الحياة المختلفة وتعنى من التفكير الشخصى .

يحافظ الفلاح و يعيد ولكنه لا يبتكر ، والتحسّنات والاختراعات المدخلة الى الزراعة أو الى السكنى مثلاً لم تتأت منه ، وإنما فرضت عليه فرضاً . ومن كثرة القبول والتلقى والاحتمال قد هزل ذكاؤه وصار سلبياً ، ولم يعد مهتماً الى البحث عن جديد أى الى التعرض للاخطار وتعكير ذلك النعاس الذى يقيه من التألم الزائد على المألوف (اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش) أى من تعرفه خير ممن لا تعرفه .

هذا الضعف فى الشخصية وفى الابتكار يشرح بدوره فقر روح الجمال ، وعدم وجود أى فن حي عند الفلاحين . أنهم غير مثقفين فى هذا الشأن ، وذلك لعدم تفكيرهم فيه وبجشهم عنه أكثر منه لانهم أميون . هم فى ملابسهم وفى قراهم وفى حقولهم موضوعات فن للآخرين ، أما هم فأنهم يظنون غير مدركين لجمالهم . ومع ذلك فإن حبهم للارض وميلهم إلى الحقول والقصص والالوان ، وحاسة الهمزج عندهم كان من الممكن أن تصير تربيتهم فى هذه الناحية سهلة ، ولكن قابليتهم للحساب والإعادة والمحاكاة أكثر استعداداً ، فنحن نعرف فلاحين أميين يجرون فى رؤوسهم عمليات حسابية معقدة ويعلمون الحاسب المختص بأنه اتخذ عن حسن نية أو عن قصد ، وآخرين ينسخون النموذج الذى قدم اليهم بكثير من الأمانة ويحفظون زمناً طويلاً جداً ذكرى كلمة أو زيارة ، أو شئ رأوه ، ولكن إذا كانت تذكراهم ثابتة ، فإن أفهامهم بطيئة .

ومع ذلك فعندما يكونون أطفالاً تكون تلك الأفهام نشيطة كما يشاهد ذلك فى المدرسة وفى اللعب ، ولكنها فى نحو الخامسة عشرة تبتدىء فى التناقل . فقبل هذه السن يكون الفلاحون ذوى بدائه حاضرة ويبدون أكثر مواهب من الغربيين .

ونفوضهم قبل الأوان - وهو احدى نتائج المناخ - يمكن أن يشرح مثل هذه الميزة ، ولكن ماعسى أن يشرح تلك البلادة التى لا تلبث أن تجعلهم ينكمشون ، وأن تصنع منهم رغم كل شىء جنسا متأخرا ؟!

لقد تحدث المتحدثون عن عدم كفاية الغذاء ، ولكن النمو البدنى كان اذ ذاك يجب أن يقف أيضا ، والفلاحون الشبان ذوو تكوينات فاخرة . ولقد فكر بعض علماء الاجتماع فى العادة السرية المنتشرة إلى حد فى البلاد الاسلامية (١) ، ولكن يبدو ان هذه الرذيلة هى من نصيب المدن ، اذ الشبان فى الريف أكثر طهرا . وأخيرا قد عزی هذا التحدد إلى فعل المناخ الغير الممكن التجنب : فالفراس الذى ينبت بسرعة زائدة على الحد لا يلبث أن يقف عن النمو ثم يهوى على نفسه . ولكن هناك فلاحين قد خرجوا من بيتهم فأنجبوا منذ الجيل الثانى أطباء بارعين ، ومهندسين أكفاء ، أو على الأقل موظفين وتجارا يساؤون موظفى الدول الأخرى وتجارها .

وإذا ، فالبيئة الاجتماعية هى التى تقف بفتنة ذكاء الفلاح الشاب ، وهى الجبل الفظيع الذى يحوطه بمجرد اندماجه فى الجماعة ، ونوع الحياة الذى يحنيه على الارض ويحمله يكرر اشارات بعينها . هذا هو السبب الذى يقف نمو العقل عنده . ان الذكاء يربو بمكاسب جديدة ، وهى لا يوجد منها شىء فى هذا العالم القديم جداً ، والمحافظة جدا . عالم القرية المصرية

أما النساء فهن أكثر ذكاءً من الرجال ، والسير « ولیم وبلکوكس » الذى لم نغف عنه مشاغله الكبرى فى الرى من أن ينظر إلى الفلاحين ، يشرح هذا الفرق على

(١) لا يوجد أحد انتشار العادة السرية فى كثير من البلاد الاسلامية ، ولكن ليس هذا لأنها بلاد اسلامية . بل لأن الواقع هو ان الإسلام سائد فى الشرق ، والشرق حار ، والحرارة والرغبة الجنسية متلازمان . المترجم ،

النحو الآتى : « ان الحكومة الرديئة حينما يقبلها فى شىء من السلبية رجال ميلهم الطبيعى هو النشاط ، تنتهى بأن تصيرهم وضعا ، بينما أن تلك الحكومة نفسها إذا احتملتها سلبيا كذلك النساء اللواتى هن سليات بفطرتهن هى تعطف إلى إثماء ذكائهن . ولذلك لم تكن النساء الفلاحات أكثر ذكاء آمن الرجال فحسب ، بل أكثر منهم جدارة بالثقة » .

هذه النظرية قابلة للنقاش ولكن الظاهرة التى تريد شرحها جلية ، وهى الأهمية النسائية التقليدية فى مصر

ان الفلاحة هى أكثر حيلة من الفلاح ، مع أن هذا الأخير قد فاز منها بحظ وافر . هو ككل الضعفاء يستعمل الحيلة إلى حد الخداع . انه يعرف كيف يخفى سروره وحزنه وجريمته ، وسحته الخالية من العلامت قبل ذلك إلى حد عجيب . فحينما ينحرف ، وحينما يعتمد على الزمن ، وحينما يقبل مصمما على عدم التنفيذ ، وحينما يشرح مراده فى دوران أو يفهم العكس قصدا ، هو يظهر مرونة ، لها بدون شك صورة الذكاء ، ولكنه ذكاء فى حالته الغريزية .

يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق ، ولكن الواقع أن مفاهيمه مصطفة فى ترتيب ، وهو يحكم بوساطة المعادلة فأنت تسأله مثلا : « على أية مسافة نحن من قرية كذا ؟ » فيجيبك بقوله : « على بعد قرش فى الاوتوبوس » .

يعرف العمدة جيدا هذه النفسية فهو يقول مثلا :

- يا ولد ، اذهب إلى والدك وقل له إن البيك (أى الدائن) ينتظره هنا ، وإذا لم يكن والدك هناك ، فقل له أن يأتى رغم هذا ، لأن البيك يعرف انه موجود .
وهنا يأتى الوالد الذى لم تنج حيلته ، كأسهل ما يكون فى العالم .

ذلك لان الفلاح لا يفكر فيما وراء اللحظة الحاضرة ، وهو مرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فالزمان والمكان الخارجان عن الحالة الراهنة لا يكادان يؤثران في عقله ، لانها لا تؤثران في حواسه . انه كالبدائي وكالطفل تخضع عقليته لشعوره فتظل على مقربة من الإحساس ومن الوقائع والأشياء . لا يبحث الفلاح عن العلل أو عن الآثار في النظام العقلي ، ولكن يبحث عنها في النظام المرنى . انه رجل الحاضر المتعاقب ، وهذا هو السر في أنه يبدو غير منطقي ، وعدم عنايته بالمستقبل ناشئ من هذا العيب العقلي الذي يحتفظ به فقدان التربية .

هو يحرم نفسه مثلاً طول السنة حتى من الضروي ، ولكن عند ما يحل العيد يتفق كل شيء في يومين أو ثلاثة أيام ذوات سرور قوى له ولا أسرته : ملابس جديدة ، وموائد فاخرة وملاعب ، وبعد ذلك يستأنف حياته أشد فقراً مما كانت عليه قبل ، وإذا امتلكت يده بضعة جنينيات مربوحة أو مقترضة ، وحقله في حاجة الى التحسين فهل يشتري آلات أو سماداً جيداً لينمي إنتاجه . كلا ، وإنما هو يستدين ديناً آخر ، ليشتري قطعة مجاورة له ، إذ أن امتلاك مقدار أكبر هو الظهور في الحال بنظر المالك الأقل صفراً . وعند موعد الدفع سترى (تفرج) . وربة المنزل لا تملأ مصباحها الا بعد أن يبدأ الليل ، والحراث لا يشحم محراثه الا في لحظة الحراث ، وهو لا يدفع دينه إلا حين يجبر على الدفع ، ولا يشتري البذور الا ليلة البذر ، ولا يدعو الطبيب الا في حالة اليأس . وقصارى القول : ان روح عدم العناية بالمستقبل من خصائصه . ولقد لاحظ المقرئى هذا النظر القصير فقال :

« ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان الأخرى بل يتناولون أغذية كل يوم من

الأسواق بكرة وعشيا . . . قال لى شيخنا ابن خلدون : « أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » . (١)

وفى الواقع هم لا يفكرون ولا يعملون الا حسب ماتطلبه الحالة الراهنة ، حسب الضغط الحسى للحظة الحاضرة ، أى أن الحاضر هو الذى يحدد لهم اذا أمكن هذا التعبير . ولهذا هم فى الوقت ذاته سريعو التصديق وحذرون ، وفرديون ومحبون للاجتماع ، وأشجاء وسفهاء ، وودعاء وسريعو الغضب .

إنهم ذوو ثقة الى حد التصديق المحير فى الاشياء أو الاشخاص المقدسين الذين يستطيعون أن ينيلوهم الخير المشتبهى كالنسل أو الانتقام أو الصحة ، وخرافاتهم الكثيرة ، والهيبه التى يستمتع بها رجال الدين ونجاح المحتالين المرتدين ثياب النفاق هى أمارات هذه السرعة الفائقة فى التصديق .

والى جانب هذا يحذر كل منهم الآخرين عادة حتى فى أسرهم ، ويحذرون رؤساءهم دائما حتى فى احسانهم . كأولئك الاطفال الذين هم غالبا مخدوعون ومحرومون والذين يكشفون لدى الغير اشتهاه ثروتهم الصغيرة ، وهذا هو السبب الاخير فى الايمان بتأثير « العين الخبيثة » .

هذا الحذر وتلك الرهبة اللذان لهما ما يبررهما من نظام المظالم والوشايات بصيران الفلاح فرديا ويحصرائه فى حياة شخصية غير قابلة للاقتحام . فحينما يدخر شيئا ، يفعل ذلك فى أشد الاحوال خفاء . واذا زاول مهمة قيمة يحتاط كل الاحتياط من أن يتناولها بالحديث ، لان الشقاء يتبع السعادة عن قرب . ولكن حينما لاتكون مسائل

المنافع والارض والنساء - وهى المسائل التى تجلب التفرقة - هى موضع الاختلاف
تسود الحاجة ، الى الحياة جنبا الى جنب .

رأينا أن الفلاح محب للجماعة فى عمله وفى متعه وحداده ، وأن هذه الجماعية ،
تتحول الى تماسك عندما يكون هناك خطر عاجل تنبغى مواجهته . وهذه الجماعية هى
فى أغلب الأحيان تكون فرصة للتفاؤل والتباهي الصبيانى . فبمقدار ما كان الفلاح
يدخر فى خفاء وعزلة فى منزله ، هو فى حالة انسحابه فى تيار الجماعة والحفلة كالأطفال
الذين لا يقاومون منظر المعروضات ، هو يسرف للظهور بقدر ما يسرف للهو .

هو مرح مادام أنه لا يرهق نفسه بالماضى ولا بالمستقبل ، انه مرح عدم الانشغال
وعدم التحدد . هو يستمتع استمتاعا كاملا بالساعة الحاضرة "carpe diem" أى استعد
من اليوم الحاضر . وعندما يأتى أمر يعكس تلك الساعة ولا يكون شديد الضغط فانه
يجنب عليه بقوله : غدا (بكره) نابذا بهذا التأجيل ما كان ينبغى أن يفعله ، الى خارج
حدود ادراكه ومطيلا الحالة الراهنة ما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل انه حينما يجيب -
لوجوب التنفيذ حالا - (حاضر أو طيب) هو يقصد تماما الا يسرع . كل شيء يأتى
فى أوانه ، ومادام لا يؤمل فيما هو أحسن فلماذا هو ينشط ، ان تتأمله هو ملجؤه هو
(كيفه) هو هكذيته ، وهى كلمة واسعة وعميقة تحدد السكون الطويل والنوم المستيقظ
لذلك الذى ينشغل بالأى يعمل شيئا ، وألا يقول شيئا وألا يفكر فى شيء . انه صبر
من نوع فريد ذلك الذى علمته الارض إياه . ان احتفاظه بروحه كالسراج الضعيف
الساھر ، وانتظاره بدون نشاط ظاهر أو إغراقه نشاطه فى حلم داخلى ، فى ذلك الترم
الذى يهدد الشغل والروحات والحيثات كما يهدد الطفل فى مهده ، وفى ذلك البطء
الذى يضعف مصادمات الرجال ، ذلك هو (الكيف) أو الاستعداد الاساسى للفلاح
أو نصف الشعور الذى يقتل الألم .

لكى يركب القطار يصل قبله بعدة ساعات ، وهو يذهب الى الموعد بعده بعدة ساعات . . . أما الضبط والتحديد والإسراع . . . لماذا يحدد المرء الزمن الحاضر أو يدافعه ؟

ولما كان الفلاح يعيش بأمله فى ذلك الزمن الحاضر ، فلم يكن معجلاً ولا شغوفاً بالاطلاع ولا طموحاً . هو مسالم ووديع لأنه صبور ، وهو صبور لكثرة خضوعه للناس وللأشياء ، وهو بسبب هذا نفسه متناقل على هيئة النيل أكثر منه كسولاً ، وليس النشاط بالنسبة إليه إحدى الحاجات ، وعقليته هى من نوع جبرى ساكن . (هو هكذا) .

ومع ذلك فأحياناً ومن خلال هذه الحالة التى تمنعه من أن يرى كثيراً أو يفعل كثيراً كما تمنعه أيضاً من أن ينتحر ، وفى ذلك الأفق المؤلف من مزيج معرفته واحساسه تقع بغتة حادثة تنهشه ، واذ ذاك يعمل ضدها بدون تمييز ولا نسبة ، وبدون تقدير لقيمة هذا الحادث أو التفكير فى عاقبة فعله ، ولكنه يعمل حسب الانفعال الداخلى الطارىء . هل أخفى منه جاره شيئاً من غلته . أو دجاجة أو إوزة ؟ هل حول ماء ربه ، أو ترك جاموسته تقضم فى حقله ؟ هل أساء أحد رفاق ابنه معاملته ، أو أهانت إحدى الجارات زوجته ؟ هل شنع عليه أحد بما ليس فيه أو وشى به ؟ هل تأخر صديقه فى أن يرد إليه البضعة القروش التى هو مدين له بها أو نظر الى امرأته أكثر من المألوف ؟ عندئذ نشاهد الفلاح المفرط فى احتمال عسف من هم أعلى منه ووحشيتهم يبدى تجاه نظرائه أكبر حساسية مغالية ، وهذا الحادث الذى هو فى الغالب عديم الدلالة يبدو له هائلاً ويدفعه الى الانتقام ، فيقدر ما يوجد من عنف فى انفعاله الذى هو آت عن طريق العدوى هو يُدفع ويقتل ، والحياة البشرية لاحتساب لها . فى مصر العليا عند ما يختصم رجل مع آخر يحاول أن يهاجمه فى موضع الاختصاص بأية

آلة كانت ، والصعيدى يشبه البركان الذى ينفجر فى أقل الاوقات انتظارا لهذا الانفجار .

وفى غالب الاحيان يكون الانتقام (الثأر) فى الخفاء ، هو يجرى فى الليل وباحتياطات لا نهاية لها : كأن يهاجم العدو عدوه من الخلف فى حقول الذرة أو هو - دون أن يصيب شخصه - يحرق غلته أو يبعثر حبوبه فى الحقول المجاورة أو يسم جاموسته .

ان الفلاح الذى يحتمل فى عمله كثيرا من الإهانة من جانب سادته لا يهاب أن يتساوى معهم فى مسائل النساء التى هى مع مسائل الارض تبسط عليه أكبر السلطان . وحينئذ لا يكون هناك قوى وضعيف ، وثرى وفقير . إذ لا تستطيع هنا السلطة ولا المال أن يفعل شيئا ، والملاك يعرفون ذلك فلا يستطيعون أن يتصرفوا فى القرويات لذاتهم . ونحن نعرف أن أحد (البكوات) قد قتل على باب داره . لأنه أفسد إحدى الفلاحات .

يدل القتل والانتقام عند الفلاحين على الحدة أكثر من دلالتها على الشر . هما يمان عن أن دماءهم حارة ، ولكن هذا الهياج لا يكاد يدوم ، والإذعان يسترعي انتباهنا أكثر منه ، إذ هو شئ عادى : (طولة البال تهد الجبال) ، (طولة البال ماتخسرش) .

(يشارى الخبر بفلوس بكره يبقى بلاش) هذه أمثلة فلاحية .

ولقد نقل المقرزى عن كعب الأخبار أنه قال :

« إن الله لما خلق الاشياء جعل كل شئ لشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالشام

فقات الفتنة . وانا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وانا معك .
وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك » .

إذعان الى حد الذلة والوضاعة ، خلقه واحتفظ به ضغط السادة أكثر مما خلقته الفاقة
مثلا . ان الفلاح يعمل كأنه طفل أو بهيمة لانه يعامل كطفل أو كبهيمة ، هو لا يعرف
من الطبقة العالية التي تسوده الا جانبها الحشن ، ولقد قيل لنا انهم لا يفهمون السلطة
التي تتأنسَن وتلجأ الى العواطف الخيرة هذا حق ولكن لانهم لم يهذبوا إلا بالضربات
والغرامات والشتائم والفظاظة التي انتهت بأن صيرتهم غير حساسين .

ونحن أنفسنا في شبابنا قبل ان نفهم كرامة الفرد الانساني استعملنا هذه الطريقة
القاسية إذ انها كانت تبدو لنا طبيعية وضرورية

لتكن فكرة العدالة عند الفلاح فاسدة ، وليكن تعوزه الصراحة والثقة والحمية .
نحن نعترف بهذا ولكننا نعترف ايضا باننا لم نعمل شيئا لكي نعلمه هذه المحامد ولكي
نرفع نفسه .

ليكن انكبابه على العمل بدون سرور وبدون إخلاص وبدون كمال ، وليكن
خاليا من الميل الى العمل المتقن ، وليكن ينقصه التصميم الحر والابتكار ، كل هذا حق
ايضا ، ولكن هذه الثغرات ناشئة من خضوعه ومن عزله فنفسه محاصرة بين الجهل
والطغيان على حد تعبير القلي .

كذلك الارض وشغلها يحملان الفلاح على الصبر والثبات والصلابة ، ولكن صيرته
هذه الارض علي صورتها جسمانيا وماديا ، فحبه كله بدني ، ومع ذلك فهو ليس خليعا .

هم يعلمونه منذ طفولته أنه خرج من بطن أمه ، فهو لا يجمل شيئا من التفاصيل

البدنية الموازنة وهو ينطق بسباب يدل في وضوح على إحاطته بكل أسرار الحياة الجسدية وصغيرات الفتيات اللواتي يلعبن بالدمى يمثلن بالإشارات مناظر لا يستطيع الواقع أن يفوقها ولكن هذه الوقاحة البهيمية الهاذئة ليس فيها شيء شديد الإزعاج وهي لا تلتبس ألبتة بالدعارة فالخلقية الأساسية لم تصب .

ان الرقابة المتبادلة والروح المحافظة وغريزة الحياة تصير الجنايات على الأخلاق أقل عدداً منها في البلاد الأخرى . « لا تؤلف الاعتداءات على الأعراض بين الفلاحين إلا جزءاً صغيراً من مجموعة المخالفات القانونية ^(١) »

في الواقع ان الفقر والتقاليد يعودان الفلاح منذ باكورة حياته على التقشف الجسماني فوثارة السرير ، ورفهية المنزل ، ولذائذ المائدة ، وبيوت البغاء هي أشياء لا يزاولها وفي هذا حماية لخلقيته . يمكن ان تضاف الى ذلك أوامر الاسلام ولكن الفلاحين جهلاء بدينهم وليس الشيوخ أو علماء الأزهر هم الذين يعلمونهم إياه ونحن نعتقد بالأحرى ان الخلق الفطري عند أولئك البدائيين يحتفظ بقوة قانونية .

الفلاحون اخلاقيون لانهم يؤمنون بالله ، وهم ماديون ولكنهم ليسوا متمذهبين بالمادية . هم يؤمنون قطعاً بالتدخل والعناية الإلهيين : « ان شاء الله » في كل شيء ، وهم لا يقومون بأى مشروع ولا يزاولون أى عمل دون أن يضيفوا إليه : « ان شاء الله » التاجر الاغريقى :

— هل ستسلمنى قطنك غدا ؟

الفلاح

(١) محمد القللى «محاولة على أسباب الجنايات في مصر» مكتبة الحقوق والتشريع ، باريس سنة ١٩٢٩ ، ٣٨٠ صفحة .

- نعم ياخواجه ان شاء الله

- خمسة قناطير لا أقل ، أليس كذلك ؟

- بلى ، ان شاء الله .

- هل ستجد جمالا للنقل ؟

- ان شاء الله .

- ينبغي أن تصل إلى البضاعة حتما قبل الظهر .

- ان شاء الله .

- ليست المسألة مسألة ان شاء الله ، فنحن نتحدث عن عمل ، وانا أريد وعدا حاسما

- إذا لم يكن هناك ان شاء الله ياسيدي فليس هناك قطن وإلى اللقاء . .

يدبرها ربنا ، والله يقسم الأرزاق ، الله يحمي (المحصول) - ان الله مع الصابرين
كل واحد وحظه الذي كتبه الله له . انا لله وانا اليه راجعون . الله موجود . هذا يوم
الرب . الله هو المدبر ، العبد في تفكير والمولى في تدبير . رب العطا يعطي البرد على
قدر الغطا . هذه هي عبارات العلم الديني القروي ، وهي عبارات تنعطف نحو الجبرية
تشف عن الإذعان ، ولكنها في الغالب تنعش بكل جمال الرضى النبوي بالارادة الإلهية

إن الفلاح يؤمن بالله كأول الاحياء واكثرهم فعالا . وعلى الرغم من فقر عقله
وجبله بالدين قد كون لنفسه عنه فكرة جد قتيبة : هو القادر والعاقل والخير . وكل
هذه الصفات تجتمع في تلك العبارة التي يستعملها مبينا بها الاله : « ربنا » . ينبغي أن
يستمع المرء إلى الفلاح اذ ينطق بهذه الكلمة .

إن انحرافات التي تضنى نفسه لم تفسد جوهر عقيدته ، فالشعب الفلاحي اكثر
من الشعوب الاخرى اتجاها نحو الصلاة والزهد ، لانه شعب مؤمن . ان المقدس ،

والبركة ، والفوق الطبيعي ، والطهر ، أو ظواهرها فقط ، قد أحدثت فيه دائما جاذبية
لا تنتهر . فالفلاحون الكاثوليك - وهم الذين نعرفهم أكثر من غيرهم - يقدمون
أجل المثل للحياة الدينية ، بل للبطولة ، وقسّسهم الذين هم فلاحون يحبون بينهم ولا أجّلهم
حياة زهادة وإخلاص ليس المرسلون الآتون من أوروبا بقادرين عليها دائما .

يجب علينا ألا ننسى ان أوائل رجال الدين في العالم المسيحي ، وهم رهبنة طيبا ،
كانوا فلاحين .

الفصل العاشر

تطور الفلاح

في ميدان محطة القاهرة المتسع ينتصب أثر سميك ممتلىء قد نحت من جرانيت
أسوان ، وهو أبو الهول يقف على رجليه الاماميتين بينما تمسك برقبته امرأة واقفة تزيل
النقاب عن وجهها . وهو : « تمثال نهضة مصر » .

ان مصر منذ نصف قرن من بين جميع بلاد الشرق الادنى وجميع البلاد الإسلامية
هي البلد الاكثر يقظة .

فمن الوجهة السياسية قد تحررت من تركيائهم من إنجلترا ، لتكون من نفسها دولة
مستقلة .

والصفوة التي أدركت مصير الوطن المصرى ، ونشأة فكرة الوطنية ونموها
في إحدى الطبقات قد صيروا هذا الخلاص ممكنا . ومنذ سنة ١٩٣٣ قد صار المملكة
المصرية سفراء وقناصل فى الخارج ، وحكومة وطنية ، وحياة نيابية ، ومعارضة
وتصويت فردى ، واحزاب سياسية ، وبرامج انتخابية ، ووزارات ووكلاء وزارات ،
يزيد تنوعهم باطراد ، وبالأجمال لها كل آلات الدولة الاكثر حداثة .

ومع ذلك فهذه الحياة السياسية لا تنكاد تحرك الا عشر الاهلين والباقي
الفلاحون . وهم مواطنون غير مدركين وغير منظمين لا يساهمون فيها أكثر من ذى
قبل حين كان الترك والانجليز يقبضون على زمام البلاد .

وكل هذه التجديدات التي سردناها آنفا هم يحجلون وجودها أو لا يفهمونها .

يقال أنهم تابعون لحزب كذا وكذا . ليسكن هذا ، ولكن على معنى أن العمدة أو الساسرة قد قيدوا أسماءهم في الحزب غير أنهم ليسوا من المناضلين بل ولا من الاشباع كما يكون القرويون الروسيون في مثل هذه الحالة مثلا . إنهم لم يعلموا حريتهم ولا حقوقهم ، ولم تكن الصورة الديموقراطية قط خادعة في أى مكان آخر كما هي في مصر ، ولكن الشر الأكبر ليس في هذا .

ان تقدم مصر الاقتصادى ليس أقل وضوحا من تقدمها السياسى ، وهناك المسألة أمر جدير بالملاحظة ، فالحكومة تملك احتياطا من الذهب قدره ثلاثون مليوناً من الجنيهات ، وهذا المبلغ قد تضاعف تقريبا فيما بين سنتى ١٩٢٥ - ١٩٣٥ « وكان بالضبط و ٤١٩٥٠٠٠٠٠ ٢٧٩٠٠٠٠٠ جنيها في ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٠ »

وليس في ميزانيتها ألبتة عجز ، والنمو المطرد في إنتاجات الجمر والسكة الحديدية ورووس أموال الشركات المجهولة الاجنبية والمصرية وانتشار الصناعات المحلية ، « والشركات المصرية تستخدم ٢٠٠٠٠٠٠ عامل » ومساكن مصر في سوق القطن وتحسن زراعتها والامتدادات المنهجية للرى ، وبالتالى للانتاج الزراعى ، كل ذلك يؤلف علامات الشراء :

غير أن هذا التقدم لم ينتج منه تحسن في حالة الفلاح ، ومستوى حياته لم يتغير ، وكذلك وسائله الى الاستغلال كما هي . والسبب في ذلك بسيط جدا وهو أن الفلاح في هذا التطور الاقتصادى كان يستخدم كالأساس الادنى للمنزل ، وعدم إدراكه وثبات حاله الراهنة كانا شرطا لهذه الهناءة الرأسمالية . ولقد كتب أحد الاقتصاديين أنفا ما يلى :

« ان الزراعتين المنعوتتين بالثراء ، وهما : القطن وقصب السكر ستؤثران في

تطور الفلاح ما دام أن احدهما تحضر من الخارج رؤوس الاموال التي تجلب التحسن الزراعى . والاخرى تحضر الصناعة التي تصير الفلاح أكثر دقة بواسطة استعمال الآلات الميكانيكية

لم تغد رؤوس الأموال ولا الصناعة الفلاحين في شئ . « ققبل عصر ١٩٢٠ الهنىء كانت أمورهم المالية كما كانت بعده متساوية في الرداءة . وكان فقرهم مساويا لنفسه في العظم منذ مائة سنة وألف سنة . بل يلاحظ - وذلك في التقارير الرسمية - انخفاض في مستوى حياتهم . (١) ويميل البعض الى عزو ذلك الى نمو السكان . (٢) ويضيف على الشمسى باشا الى هذا نسبتته الى « سوء توزيع الثروة الزراعية » (٣) لأنه يوجد مع ذلك في هذه البأساء العظمى لبلد ثرى كهذا ملاك يمتلك الواحد منهم دخلا يتراوح بين ١٢٠٠٠ جنيه و ١٥٠٠٠ جنيه .

وهنا أيضا نحن لانغالى في الشر ولا نرى أن الفقر أسوأ الأشياء . ولكن الجهل . . .

ان التجديد العقلى فى مصر ساطع . وفى عهد حكم جلالة المغفور له فؤاد الاول على الأخص كثرت المؤسسات العلمية فالجامعة الملكية التى لم تكن موجودة منذ بضعة عشر عاما تحتوى اليوم على ١٠٠٠٠ طالب . وقد بلغت من العظم الى حد أن أنشئوا فيها أقساما ثم كليات . ومنذ الآن ستكون جامعة في

(١) خلاصة تقرير لجنة المالية عن مشروع الميزانية لسنة ١٩٤٠ - ١٩٤١

(٢) خطبة فى مجلس النواب فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

(٣) لقد نوه الدكتور إبلى نصيف بذلك حين قال : هل تشكو مصر من الازدحام بالسكان فى المحاضرة التى القاها بالفرنسية يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٩٤٣ بالجمعية الملكية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع .

الاسكندرية . وتحتوى مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية على مئات الألوف من التلاميذ . وهم مزودون بأحدث الكليات . وهذا فضلا عن التعليم الحر الذى هو أقدم من غيره . وليس هذا فحسب . بل ان جامعة الازهر القرآنية نفسها قد حدث فيها إصلاح وتنوع كمعاهد : شبرا وطنطا وأسيوط . وهناك ثلاثة آلاف مدرس يوزعون التعليم الاولى فى القرى . وصحافة مصر من جرائد ومجلات وأسفار يمكن أن توازن فى هيئتها وأبنائها بأرقى صحف أوروبا . وهي تستعمل نماذج لكل البلاد العربية . ولكن الصحيفة الاكثر أهمية ، وهى الاهرام التى يدعونها بتامس الشرق لاتسكاد تطبع ١٠٠٠٠٠ عدد ، والمجلة القروية (زميل الفلاح) التى تصدرها وزارة الزراعة تطبع حوالى ٤٨٠٠٠ فقط

والعلماء ورجال الادب الذين يأتون الى مصر فى كل شتاء للمؤتمرات وللمحاضرات يجدون فى القاهرة والاسكندرية مستمعين مستبشرين ذوى صدور رحبة كما فى بيثات باريس . وهم يدهشون لهذا ويصرحون به .

والذين يفكرون ويدرسون هم مشتغلون الآن بإنشاء لغة وطنية وموسيقى وطنية ، ومسرح وخيالة (سينما) وطنيين وبالاجمال : انشاء شئ يكون مصريا خالصا لا يختلط بالبلاد الاسلامية الاخرى . ومن الشيق تتبع هذا التطور الثقافى . ولكن ينبغى أن نتحرر منه لننظر الى أدنى .

هل السواد الاعظم يشمله هذا التجديد ؟ وهل هو يتبع هذه الصفوات الحضرية ؟ كلا ، أو هو يتبعها على بعد شاسع إلى حد يجعله لا يبدو متحركا ، والامية لاتزال تسود الاكثرية الساحقة ، ولا بد أن تكون الإحصاءات الاخيرة قد اعترفت بذلك وسواء أكانت تلك جناية المسؤولين الذين نموا كل شئ فى مصر ماعدا التعليم ، أم جناية الفلاحين القليلي المواهب والمتمردين بمجمودهم على كل تعليم ، أم جناية المناهج

الغير المتلائمة مع عقليتهم والتي تفرض عليهم مع المدرسة الإلزامية ، فنحن لا نقول كلمتنا في هذا ، ولكن الظاهرة تظل ملحوسة ، وهي ان ٩٥ ٪ من الفلاحين أميون .
وحينما يعرفون القراءة يظنون أجنب عن تبادل الافكار ، لأن اللغة المكتوبة أو أسلوب الكتب ليس هو لغتهم .

إن ضعف الفلاحين وآلامهم يأتيان من جهلهم الهائل في عالم قد تطور ، وتلك النهضة التي أشرنا إليها آنفا تزيد في اظهار عزلتهم وتبعيتهم ، ومع ذلك فاذا كنا لا نستطيع أن نشاهد في هذه الجماهير تغيرات جوهرية ، فانا نلاحظ عليها من الخارج بعض تقدمات جديرة بالتقدير ، ومن الداخل معالم للتطور .

تقدمات بالمعنى الاجتماعي ، فمصر المتطورة بدأت تنشغل بمصر الغير المتطورة .
نعم ان ذلك يحدث في أغلب الأحيان بلا مهارة وبدون استمرار ولا منهج ، وهو مشروع أكثر منه حقيقة واقعة . ولكنه مع ذلك تصحبه رغبة في تحسين هذه الجماهير الغير القادرة على تحسين نفسها بنفسها .

لنسرّد بديا بعض الوقائع : للفلاح اليوم حالة عقارية شخصية ، وهو لم يعد خاضعا للسخرة بسبب هوى السادة . توجد له عدالة وقضاة ، نعم هو لا يعرف كيف يستمتع دائما بهذه الشرعية ، ولكنه يستطيع أن يستمتع بها على حين أنه كان قبل ذلك .

أما وضع حد لقسوة الباشوات وترك ما تملكه زوجة الفلاح أو ابنة الرعيدي لها فمن عمل اللورد كرومر في نهاية القرن التاسع عشر ، ذلك العميد الذي كان يفكر كثيراً في الفلاحين^(١) قد استعمل كل سلطته في ان يجلب لمصلحتهم على الأقل القدر الضروري من العدالة . فالسوط (الكراباج) قد انفي ولو من ناحية المبدأ ، وتسلم

١٠ مصر الحديثة . تأليف الاول كرومر . ماكيلان لوندرة سنة ١٩٠٨ ، مجلدان كل منهما ٦٠٠ صفحة وثانيتها يعني بحالة مصر الاجتماعية .

الضرائب قد حددت بنسبة وفي وقت معقولين، ولم يعد الفلاح في وجل دائم من الصراف . هو يعرف ما لا يجب عليه دفعه ، وانه اذا كان حقله لم يستطع الإنتاج (بسبب فيضان أو جفاف أو حريق) فانه يعفى من الضريبة ، غير ان عيب الارشاء لدى الموظفين وأتانية كبار الملاك يضعفان في اغلب الاحوال النتيجة النافعة لهذه الاحتياطات ومع ذلك فهي تعمل عملها .

وفي مصلحة الفلاح أيضا اصدر اللورد كتشنر خلف اللورد كرومر في سنة ١٩١٢ قانونا يقضى بان يسكن منزل المزارع الصغير وآلات شغله وحيوانات من حيوانات الحبل والركوب وخمسة أفدنه غير قابلة للحجز عليها .

ولكى يحسن حالة مالية الفلاح ويعوده على النظام أسس نفس هذا العميد صناديق ادخار في القرى يجب على الفلاح أن يضع فيها مدخراته ، غير انه ينبغي أن يقال إن هذه المؤسسة لم تنل نجاحا . وقد يكون ذلك ، لانها كانت إجبارية ، فمكان لا بد من إلغائها بعد الحرب

وفي سنة ١٩٠٣ وبعد تجربة حاولها البنك الاهلى أسس البنك الزراعى المصرى لداى كانت غايته أن يقرض صغار الزراع بقائدة شرعية قدرها ٩ ٪ فأنشأ فروعاً في جميع عواصم الاقاليم ولقد كان له امتياز الاستيفاء قبل الضرائب . فكان ذلك في أول الامر نجاحا ، ولكن الرسميات الكثيرة التعقد ، والفروع البعيدة عن مقرضى القرى صالغرة بعدا شاسعا ، ومواعيد الدفع العلنية ، الغير القابلة للتخارج بهيئة خارجة عن حد المألوف كل ذلك قد صير خدمة المرابى الحاضر المتساهل أفضل من غيرها . ومع ذلك فان النجاح النسبي الذى احرزه البنك الزراعى كان يمكن أن ينمو لو أن تطبيق قانون الخمسة الافدنة الذى أزال كل ضمان لقروضه لم يصوب اليه الضربة القاضية . وعلى أثر ذلك تحول البنك عن غايته الاولى وبدأ التصفية في سنة ١٩٣٠

وفي سنة ١٩٣١ لا بد أن يكون مبدؤه قد أخذ وأدخلت عليه تحسينات في إنشاء بنك التسليف الزراعي المصري الذي أسسته الدولة (١) بمعاونة كبار مصارف القاهرة . ولكي تسهل الحكومة عملياته وافقت على قرضه مليوناً من الجنيهات ووقفت لصالحه العمل بقانون الخمسة الأقدنة .

تقدم هذه المؤسسة الجديدة - الى صغار الملاك بفائدة قدرها ٧ ٪ ولجمعيات التعاون ٥ ٪ - المبالغ الضرورية لحاجات الزراعة وجنى الغلات ولشراء المواشى وتحسين الارض ، وهي تباع بالاجل لصغار الملاك (والمستأجرين والشركاء) السمار والبذور المنتقاة ، وهي تقرضهم الى ٨٠ ٪ من قيمة غلاتهم المودعة في (الشون) التي تكثر منها في انحاء البلاد . ولما كانت تفهم العقلية القروية ، وقد استفادت من تجربة البنك الزراعي ، فقد نقلت تصرفاتها من المركز الاساسى وتركت سلطات واسعة بالقدر السكافي لعالمها الذين يذهبون الى القرى وبسطت الرسميات الى أقصى حد . وهكذا ربحت ثقة الفلاحين وأقذت كثيراً منهم من مخالب المرابين دون أن تتحمل هي نفسها خيبة أمل دائئها فيها ، ومع ذلك فيبدو أن لديها ميلا الى ترجيح خدمة متوسطى الملاك وكبارهم .

ومن المرجح ان تكون الشروط الخاصة التي يمنح بنك التسليف الزراعي الجمعيات التعاونية اياها قد لوحظت . فمذ خمسة عشر عاما يوجد منها عدد في مصر ، وقد اعترفت بها الحكومة كمؤسسة رسمية (قانون سنة ١٩٢٣ المعدل في سنة ١٩٢٧) وكانت تعينها كثيراً وتقرضها لتشجيع زيادة عددها وتسمح لها بشراء بذور وسماد ومواشى وآلات بأفضل الشروط .

١. القرض الزراعي في مصر - تأليف جوزيف رانيس المكتبة الاصطلاحية.

وقد وكلت هذه المهمة منذ سنة ١٩٤١ الى بنك التسليف فكان هذا التغيير سعيداً إذ قد ارتفع عدد الجمعيات التعاونية من ١٤٧ في سنة ١٩٢٧ إلى ٧٠٣ في سنة ١٩٣٥ وارتفع عدد المساهمين فيها من ١٢٢٩٨ إلى ٧١٠٠٠ وفي سنة ١٩٣٥ نالت ٥٤٤ من هذه الجمعيات التعاونية من بنك التسليف الزراعى مبلغ ٨٣٦٠٠٠ جنيه . وأما الجمعيات الأخرى فهي تستمتع برؤوس أموالها الخاصة .

ان فوائد هذه الجمعيات واضحة ، فهي تلغى الوسطاء المفسدين وتنظم الانتاج والايمان وتحسن الكيفية والكمية ، وتشتري وتبيع بأفضل الشروط^(١) وتعنى بالخدمة الاجتماعية : «تحتفظ الانواع المختلفة من الجمعيات التعاونية بجزء من فوائدها السنوية ، لينفق فى الخدمات الاجتماعية المتباينة كاصلاح القرية والتربية والصحة وماشاكل ذلك» فى مصر السفلى ولاسيما فى البحيرة تكثر هذه الجمعيات ، غير أن نجاحها لايعنها من أن تظل أقلية ضئيلة بالنسبة إلى المجموعة ، بالنسبة إلى الفلاحين ، الاكثر عوزاً والاقبل استعداداً لروح الاجتماع .

ولكى تحمي الحكومة هؤلاء الاطفال الكبار اتخذت سلسلة الاحتياطات الآتية:-

(١) قانون ضد المرايين (١٨٩٦) وهو الذى يعاقب المقرض بالربا الفاحش بغرامة

كبيرة .

(٢) تأسيس أسواق القطن أو الحلقات (١٩١٢) التى يجرى فيها البيع حسب

سير البورصة وبوزن مراقب .

(٣) الغاء ضريبة النخل فى سنة ١٩٢٠ .

(١) كتاب التعاون الزراعى تأليف ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون بوزارة الزراعة المطبعة الاهلية ، القاهرة سنة ١٩٣٥ مجلدان مصوران بالعربية ، والثانى منها يتعلق بتطبيق التعاون الزراعى فى مصر .

(٤) إلغاء ضريبة (الخفر) في سنة ١٩٣٦ وهو حق الحراسة الذي كان يجب على الفلاحين دفعه .

إذا كان اقتصاد الفلاح في حاجة إلى أن تنظمه حكومة كأنها العناية الربانية فإن الأشد من ذلك حاجة هو حياته الصحية أى مسكنه وصحته . وهنا تفوق المشروعات الحقائق الواقعية كثيراً .

هل ينبغي أولاً تحقيق وجود الماء الصالح في جميع القرى . أو إنشاء قرى نموذجية قدر يحيا .

يوجد اليوم ٢٥٪ فقط من الالهين وهو العدد الذى يمثل سكان المدن يشربون ماء صافيا . ومن وقت الى آخر تؤسس محطات جديدة للماء الصالح . وفى سنة ١٩٤٠ قد مهت كل مديرية الفيوم الأشد من غيرها بعدا عن النيل بمؤسسات نموذجية ، ولكن الفلاحين ليسوا معجلين للاستفادة من هذه النعمة ، ففي النخيلة مثلا ، وهى قرية ضخمة ، عدد سكانها عشرون ألفا على مقربة من أبى تيج ، قد أدخل الماء الصالح حديثا بفضل عناية مجلس قروى نشيط . يجب أن يدفع نساء الشعب (للحنفية) العامة مليما عن كل صفيحة أو (بلاص) ، ولكنهن لا يذهبن اليها تظ مفضلات النهر الغنى المجانى ، وبين ولاية الامور خفراء ليمنعوهن عن هذا العمل ويقهروهن على الاستفادة من ذلك التقدم الذى يلعبه .

أغوى إنشاء القرى النموذجية الحكومة أكثر من الماء . فمن قبل قد أنشأ محمد على بخطط الميزان نحو عشرة بلاد كان يجب أن تكون مثالا لغيرها ، ولكن مثال ذلك الغير هو الذى كان أقوى ، واليوم لا تكاد هذه البلاد تمتاز عن تلك التى بنيت بدون أى تصميم .

وفى سنة ١٩١٤ افتتح الخديو عباس الثانى ثلاث قرى مستقيمة الشوارع تتكون

كل واحدة منها من ١٨٠ منزلا منها ١٦٩ للفلاحين ، والباقي للمصالح العامة ، وكان كل مسكن منها يتألف من حجرتين وردهة ، فلم تكن هذه التجربة أكثر تربية للفلاحين من غيرها ، إذ أنهم قد حولوا هذه المنازل حسب حاجاتهم .

ومع ذلك فهام أولاء القاطنون بالامر بعد نوم عشرين عاماً يعودون إلى القرى النموذجية ، وهكذا بأمر المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول قد أنشأت تفتيشات الخاصة الملكية للعالم الذين يشتغلون فيها مساكن متجانسة ومتلاصقة ذوات أدوار أرضية تبدو لنا كأنها سجون ، ولكنها قصور عند الفلاحين . ولقد سبقت هذه المباني وحويكت من عدد كبير من الملاك الذين أعدوا في عزبهم لفلاحيتهم منازل صغيرة من أجر أو ابن ، ولكن البناء الأكثر أهمية هو بناء عزبة بهتيم التي تملكها الجمعية الزراعية الملكية . وجدت فيها بدياً في سنة ١٩٣٤ طليعة تلك المنشآت وهي ٣٠ منزلاً للزراع و ٣ للمستخدمين والعرفاق العامة ، والمباني منتظمة من الشمال إلى الجنوب على خمسة صفوف ينقسم كل صف منها إلى مجموعتين بشارع يتسع في الوسط حتى يتحول إلى ميدان ، وبين كل صفين من هذه الصفوف يوجد شارع عرضه ستة أمتار بحيث تتغلغل الشمس في جميع المساكن .

تلك المنازل مبنية بالآجر ، والسقف بالاسمنت المسلح ، والأرضية مرتفعة من الداخل ٣٠ سم ، وارتفاع المنزل أربعة أمتار ، و ٢٠ من هذه المنازل يتكون كل واحد منها من حجرتين وردهة داخلية وحظيرة للحيوانات ، وفي كل منزل مرحاضه الذي يلتم مع أوامر الصحة . و ١٠ منازل كبرى يتألف كل منها من ثلاث حجر ومدخل وتوابع أخرى ، وهذه المنازل يشغلها رؤساء الاسر وأقاربهم وهي في أغلب الاحايين الاب وابنه ، وقد بنيت ستة تنورات للخبز خارج المنازل لكي لا يؤدي الدخان السكان ، وهي تحت تصرف الاسر كل بدورها ، وكذلك ستة حمامات

(بالدوش) أربعة للرجال ، واثنان للنساء ، ويمكن أيضاً أن تغسل فيها الملابس ، وقاعة للاجتماع تتسع لـ ٧٠ شخصاً وهي تستعمل للاعياد والافراح والمآتم ، والمسجد ذو مسطح قدره ستون مترًا مربعاً ، والمدرسة التي يتبع فيها منهج المدرسة الازلامية مفتوحة للعلماء والفتيات . وهناك حوانيت قد أنشئت لكي تسمح للسكان بأن يشتروا حاجاتهم دون أن ينتقلوا ، وكذلك (دوار) كبير مؤلف من ستة مستودعات تخزين المنتجات المختلفة وأطعمة المواشى والآلات الزراعية . والماء الذي يملأ الصهريج يأتي من بئر مجهزة بآلات رافعة .

غير أن هذه البنايات الغالية التكاليف (١٠٠٠ جنيهه) لا يمكن أن يحاكيها الافراد ، فكان ينبغي لهم وجود شيء أكثر اقتصاداً وأكثر قرباً أيضاً من العادات القروية دون أن يضحووا من أجل ذلك بالصحة . وفي سنة ١٩٣٦ قدمت الجمعية الملكية الزراعية إلى الملاك صورة واقعية أخرى ، وهي ٢٠ منزلاً من نوع يختلف عما تقدم ، كل أربعة منها متصلة ببعضها ، وتفصل هذه المجموعات شوارع عرضها ستة أمتار ، وهنا الخواطر مبنية باللبن ، والسقف مصنوعة من الخشب ، وفي كل منزل منها حجرتان ، سعة الواحدة منهما ٨ ونصف $3 \times$ ونصف وردة صغيرة وتنور المنزل . وقد تكلف كل مسكن من هذه المساكن ٢٥ جنياً بدل ١٢٥ جنياً في النموذج الاول .

وكذلك صممت الحكومة من جانبها على أن تبني قرية نموذجية في كل مديرية والبلد في هذا المشروع قررت إعادة بناء ميت فارس في (مصر السفلى) التي هدمها الحريق ، ويحتوى الرسم على منازل ذوات دور أو دورين بالماء الصالح والمجارى وشوارع متسعة تمتد على جوانبها الاشجار وفي وسطها قاعة الاجتماع والمسجد والمدرسة وفي خارج القرية يوجد موضع للسوق الاسبوعية ومستودعات للخشب والسماد والحبوب ومضخة للحريق وسيقطن ٢٠٠٠٠ نسمة في هذه الفردوس التي تستغل ٤٥ فداناً . هذا

تصميم لم يتحقق بعد (١)

غير أن قرية نموذجية واحدة في وسط جهة واسعة تكون شبيهة بقطرة ماء في البحر ، اذ قليل جدا من الناس هم الذين يستفيدون منها والذين يحا كونها . فالأفضل إنفاق المال في مشروعات أكثر نفعاً كتزويد القرى بالماء الصالح فتكون الفائدة أعم كما تقول المعارضة ، وهذا فضلا عن الظلم الناشئ عن هذا التفريق بين القرى . والا فلماذا تصير هذه نمودجا وتبقى الاخباريات تعسات ؟ ولقد ووجه تصميم يتحقق في خمس سنين لإعادة بناء ٤٠٠٠ قرية في مصر ، وقدر له مبلغ ثلاثين مليوناً من الجنيئات ، وهذا المبلغ لا يبدو هائلاً ولا غير ممكن التحقيق اذا فكر المرء في أن الحكومة المصرية قد انفتت على الخزانات وأشغال الري خمسة وأربعين مليوناً من الجنيئات ، ولكن المشروع قد هجر منذ اعباء معاهدة سنة ١٩٣٦ الثقيلة الحمل ، وقد يسكون ذلك بسبب عدم وجود الروح الاجتماعية . (٢)

ان اللجنة المؤلفة لاصلاح نظام العمدة الاقطاعي وتحسين حالة القرية تقترح

(١) انظر في مجلة العمارة ١٩٤١ العدد الثاني ، تلك الدراسة القيمة للدكتور سيد كريم (ص ٥١ - ٦٤) اصلاح القرية ، بين القرية النموذجية وقرية الانتقال .

(٢) أنفتت الحكومات المتتابعة ١٤٠٠٠٠٠٠ جنيه لأجل تنظيم دفع الديون العقارية أى لأجل إنقاذ كبار الملاك الذين لا يتجاوز عددهم ١٣٠٠٠ شخص ، وهذا معناه ان كل واحد من هؤلاء الممتازين قد نال ١٠٠٠ جنيه دفعها اليه الخزنة بحجة حماية الثروة الزراعية .

ولقد خصصت الدولة هذا العام ١٧٠٠٠ جنيه لانشاء المراكز الاجتماعية فعاد على كل واحد من هؤلاء البؤساء نصف قرش . فاذا اصفنا الى هذا النفقات المبدولة لتعميم الماء الصالح والعيادات المجانية فان المبلغ المحفوظ في خزنة المالية لاولئك البؤساء لا يتجاوز بضعة قروش لسكل منهم (الانذار - المتنيا ٢ مارس سنة ١٩٤١) .

إنشاء مجالس قروية يكون للفلاحين فيها فوائد . وفي الوقت الراهن توجد في نحو ستين بلدا كبرى مجالس بلدية مؤلفة من المدير أو المأمور ومن مفتش الصحة ، وأربعة أعضاء منتخبين . وبضعة أعضاء معينين من وزارة الداخلية .

وهناك مؤسسات أخرى أقل بروزا من الأولى ، وهي المجالس القروية المنشأة منذ سنة ١٩١٨ وفي سبعين قرية . وهذه المجالس القروية معدة لأن تصير مجالس بلدية ، فهي مؤلفة بنفس الطريقة ، ولكن مواردها المالية ضئيلة .

ان رش الشوارع الأساسية - وان كان لا يزيل الاحوال - وإنشاء حديقة صغيرة شعبية محرمة على الشعب الذي لو دخلها لحطمها ، وبضعة مصابيح تبين نشاط هذه المؤسسات البلدية .

كان الجميع يظنون أن تكون هذه المجالس أكثر تمثيلا للقرى ، أينتخب العمدة بوساطة مواطنيه بدل تعيينه ؟ ولكن في هذه الحالة منذا الذي يجعل منه أهلا لوظيفته أيوضع في البلد موظفون مختصون : طبيب وممرضة متنقلة ، ومندوب من الزراعة ، ومندوب من الشؤون الاجتماعية ؟ أم تنشأ أولا مراحيض عامة ، لأن أمراض الفلاح التي تضعف إنتاجه تشغل السلطات . ولقد وضعت وزارة الصحة المنشأة في سنة ١٩٣٤ هذه المسألة على رأس برنامجها ، ولكنها لا تتصرف في ميزانية كبيرة ، وأعظم حظوظ ميزانيتها يذهب الى الموظفين ، ومع ذلك فإن حملاتها جديرة بالاشارة : فهناك ٦٧ صيدلية مجانية ثابتة أو متنقلة تعالج (الانكلستوما) (والبلهارسيا) وبقدر هذا العدد مستشفيات ، تحت تصرفها ٤٠٠٠ سرير تستقبل المرضى السيئي الحالات ، وفي سنة ١٩٣٦ كان هناك ١١١ مؤسسة رمدية عالجت ١١٣٣٥٩٩ مريضا . وكذلك العناية بالطفولة يكفلها نحو ٤٠ مؤسسة . والاطباء والقابلات ، والمرضات المتنقلات لا ينتظرون حتى تأتي الفلاحة تقص

عليهم حاجتها ، بل هم يذهبون إلى المنازل يعلمون ويأومرون ، وعلى هذا قد بلغت مجموعة زياراتهم نصف مليون . واليوم يوجد نحو ٥٥٠٠ قابلة رسمية (داية) أمضت كل منهن ستة أشهر للتمرين في أحد مستشفيات الولادة . وهناك ٨٠٠٠ من طبقة قد تلقين دروسا من ثلاثة أسابيع إلى ستة .

ينبغي أن يضاف إلى هذا المجهود الجليل ذلك الذى هو أكثر منه خلاصا ، وهو مجهود المؤسسات الخاصة والصيديات المجانية وزيارات فرانيسكانيات مصر المنزلية ، ومرسلات مريم ، والابليز ايتيات ، وراهبات القديس يوسف ، وراهبات سيدتنا مولاة الخواريين ، والمؤسسات البروتستانتية . وأكثر من هذا حداثا ، وأكثر منهجية أيضا المراكز الاجتماعية الموجودة في نحو عشرة مدن من الدلتا ، ولكن الحقل جد متسع ، والعمل هو ابن الامس ، والمستفيدون من هذه العناية هم آلاف من المساكين . وهؤلاء انفسهم يهدمون في الغالب نتيجة هذا الدواء بجهلهم وعاداتهم وفقيرهم ، وكل هذا يقيم بعدده عقبات أمام التطور .

ليس في مقدور القرية النموذجية أن تجعل من الفلاح رجلا سليم الصحة . بريثا من العاهات . وليس عمل السلطات في المديرية والمراكز بأكثر منها انتاجا . وما دام الفلاح يظل محتفظا بعقليته التي هي له اليوم : وبهذا العوز في الذكاء الذى لا يستطيع به التمييز بين ما يوافقه وما لا يوافقه ، فانه سيستمر على أن يكون في وسط التحسينات التي تجلب اليه كما هو اليوم . فلما الصالح الجيد التصفية ينبذ . ليشرب الماء القذر الذى شربه أجداده . والمنزل المنير الطلق الهواء الصحى يفسده بظريقته في الحياة . والقوانين والمؤسسات المنشأة لصالحه لن يعرف كيف ينتفع بها . فينبغى البدء بالتعليم « كما قال لنا أحد رجال الشارع »

وعندى أن كل اصلاح لا يقوم على تعليم الشعب قبل أى شئ ، مصيره الفشل

أو على الأقل يستغرق زمنا مديدا يضيع على الأمة أكبر الفوائد ، فبناء القرى الجديدة للفلاحين وإلقاء المحاضرات والارشادات الاجتماعية الصحية بالسينما والراديو لا تؤدي ثمراتها ما لم يتعلم الشعب ويعرف كيف يستخدم هذه الشؤون .

هكذا أعلن في سنة ١٩٤١ الشيخ المحترم المرحوم عبد القادر حمزة باشا . (١)

ولكن عددا من ولاية الأمور يعتقد باخلاص أن تعليم الفلاح هو تصديره تعسا ، وأن حالته الراهنة المكونة من عدم الادراك ومن العادات تؤلف أحسن حظوظه ، فهو لا يتألم بقدر مانظن ولا يحقق ما ينقصه ، فتعليمه يوقظ فيه مطالب رفهية وملاهي لا يستطيع أن يرضيها ، فيقرزه ذلك من عمله في الأرض .

وحينئذ فماذا ستصير مصر ؟ وفي سنة ١٩٣٣ وقف أحد النواب يؤيد أن تعليم السواد الاعظم شيء غير مرغوب فيه ، وهو سيكون انتحارا للبلاد ، وبعض كبار المللك يفكرون على هذا النحو .

نحن نقر هذا اذا كان الأمر يتعلق بذلك التعليم الذي هو بدون تربية وبدون ملائمة والذي نجده في المناهج الرسمية للتعليم الالزامي ، واذا كان الأمر يتعلق بتعليم الفلاحين استعمال أشياء غير ممكنة الوقوع في القرية او عادات منسوخة عن الغرب فان هذا التعليم لا يعطى نتائج متناسبة مع النفقات ولهذا فاللجنة ترى «أن يعيد القائمون به تنظيمه من أساسه معتبرين ضرورة اعداد الشباب لحياة القرى ، لكي يرفعوا مستوى الانتاج الزراعى » . (٢)

(١) المصور عدد ٨٠٠

(٢) مشروع الميزانية ١٩٤١ - ١٩٤٢ في محضر مجلس النواب ابريل سنة ١٩٤١
ابنة الشاطيء في « قضية الفلاح » (١٩٣٩) : اصلاح التعليم القروى ، عيوب المنهج الحالى . ١١٢ الى ١٣١ . طه بك حسين في « مستقبل الثقافة في مصر » (١٩٣٨)
التعليم الاولى ، و٤ الى ١٢٥ من الجزء الثانى . جالك تاجو في « مشكلة التعليم في مصر »
(١٩٤٢) ، ٥٩ الى ٦٣ .

أما التفرز من الأرض والهجرة الى المدن فانهما يأتيان من البأساء الدائمة أكثر من اتينهما من هذا التعليم ، إذ أن الفلاح يرتحل ، لأنه يؤمل أن يجد هناك مايربحه ، ليعود على الفور الى بلده .

لا يشاهد الى الآن ، والحق يقال ، نقص في سكان القرى ، فاحصاً سنة ١٩٣٧ ينم عن حالة ثابتة بين الاهلين القرويين رغم ارتفاع نسبة المواليد والانخفاض النسبي في الوفيات . ومن ناحية أخرى نحن نلاحظ أن في القرى الاقل أمية - كما نلاحظ بين الفلاحين الذين بعد اقامة طويلة في المدينة يعودون الى قرأهم فقراء أو مثرين ، ولكن عيونهم مفتوحة -- بعض النفور من عمل الأرض الشاق .

وفي سنة ١٩٣٧ قد أحصى في القاهرة ١٨٨ ألف سائح من مصر العليا و ٢٠٠٠٠٠ من مديريات مصر السفلى بزيادة ١٥٠٠٠٠ في عشرة أعوام . ولقد قدمت مديرية أسبوط الى العاصمة حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة ، والمنوفية المزدهمة بالسكان أكثر من ٧٠٠٠٠ وفي هذا ظاهرة ذات دلالة تشرحها البأساء والزحام أكثر مما يشرحها التعليم .

يكفى أن يرى المرء مستعمرات الفلاحين المنشأة في القاهرة ، فهم يؤلفون قرى حقيقية مجتمعين حسب مواضع أصولهم في الاحياء المتطرفة من العاصمة كالشرابية والقلى وأمثالها . هم يمشون معا ومجتمعين في مواقع خاصة وهم يحتفظون بأكثر قدر ممكن من عاداتهم القروية ، وفي أغلب الاحايين يهاجر الرجال وحدهم تاركين في القرى النساء والأطفال ، وهذا معناه الامل في العودة ، هم يلتحقون على الاخص كعمال بصناعة المبانى يستأجرهم رئيس مياومة ويدفع لهم أجرا أعلى (خمسة قروش تقريبا) ولكنهم يعاملون معاملة تشبه في قسوتها معاملتهم في الحقل ، وهم معرضون للتعطيل .

وبعد تجربة بضعة أعوام يعود البعض الى بلادهم أكثر فقرا من ذي قبل ،
أو مزودين بالقدر الكافي لشراء قطع الأرض الصغيرة التي هي موضع أحلامهم ،
ويستقر الآخرون نهائيا في المدينة ويستغلون كعمال حفارين أو حمالين أو خدما
أو باعة متجولين متعلقين بالثروة الحضرية كما أن أكوأخهم متعلقة بالأحياء الجميلة .
هم يؤلفون سوادا طفيليا لا يختلط بالمدينة ، وأحيانا يدخلها بضعة منهم ويبرزون فيها ،
فيصيرون تجارا كبارا ، أو مقاولين أو سماسرة ، ولكنهم لا يكونون آخرا من يستغلون
ذلك الوسط المتنقل الذي خرجوا منه ، فهم يدرسونه بأقدامهم بدلا من أن يعينوه
على النهوض .

بأساء دائمة للفلاح .

خاتمة بأساء الفلاح

بالموازنة بين حالة الفلاح الحاضرة وبين بأسائه منذ قرن أى فى زمن المماليك ، تبدو خيراً منها ، اذ لا يمكن ان يقتل قتلة الكلب ، ولا ان يجود تبعاً لاهواء الافراد ولا ان يصادر مصادر الرقيق ، بل ان موازنة حالته ببأساء القروى الاسود أو المدغسكى ، أو الصينى ، أو التونكيين تظهره لنا أحسن حظاً ، واذا لم يكن غذاؤه كافياً فهو لا يموت جوعاً . انه ليس ممزق الثياب ، وهو يلهو وينفق فى الاعياد . هذا حسن جداً ، ولكن يوجد نوعان من البأساء ، وهما : البأساء الجسمانية التى تتمثل فى عدم كفاية الدخل المالى وفى عدم الشروط الجوهرية للاحتفاظ بالحياة البدنية ونموها والبأساء العقلية والخلقية التى تتمثل فى الجهل وفى عدم الكرامة الخطر على حياة النفس .

لا ريب فى أن البأساء البدنية يحس بها العامل بهيئة أكثر سرعة ، لكونها أشد ظهوراً وهي تثير الشفقة أكثر من غيرها ، ومن ذلك تأتى الاحتياطات التى تتخذ لصالح منزل الفلاح وصحته واقتصاده . ومن ذلك أيضاً تأتى المحتويات العادية لشكاياته . . وللخطب المخصصة له ، ليس هذا جديداً ، ولكنه موضوع نال أصوات جميع خطب العرش منذ بدء حياتنا النيابية . . . نحن لا نألم بالآلام مختلفة يمكن ان تعالج متفرقة ، ولكنه ألم أساسى ، وهو انحطاط مستوى حياة السواد الاعظم من سكان الاقاليم الى حد يجرح كل شعور انسانى ، ويشين شهرة الوطن المصرى . ان الشعب المصرى لا يتألف فى الواقع من مائة وستين ألفاً أو من مائتى ألف شخص ذوى سعة نسبية (١)

ينبغي ان يقصد أيضاً من انحطاط مستوى الحياة البأساء الخلقية ، وهى التى يلحقها

(١) على الشمسى باشا ، خطبته فى مجاس النواب ، ديسمبر سنة ١٩٣٩

منابع الحياة البشرية نفسها تكون أثقل نتائج بالنسبة الى الفرد كما هي بالنسبة الى المجموعة والفلاح مزود من هذه البأساء بغزارة : فجعله ، وعدم ادراكه ، وفظاظته ، ووضاعته تحت درجة صفوة متطورة مهذبة هي اكثر مأساوية من فقره .

وكونه لا يشعر بهذه البأساء العظيمة ليس سبباً في ان تكون أقل خطأ بالقدر ، بل الامر على العكس ، فحين يتألم منها اكثر ، وحين يدركها ادراكاً تاماً ، عند ذلك سينتديء خلاصه ، وبالإجمال : إن عدم مدنيته ، وعدم تربيته ، وسوء معرفة الدين يستطيعون إنهاضه ، وعدم التثامم معه ، وفي اكثر الاحيان أيضاً احتقارهم إياه وعدم اكترائهم به ، هذا هو الشقاء .

ان اكثر الاحتياطات الرسمية مثلاً قد فكرت فيها مكاتب جد بعيدة عن الفلاحين وحققها موظفون ليس لديهم من الرفية شئ . وإذا ، فسواء أكانت ترمى الى الصحة أم الى التعليم ، الى الزراعة ام الى العدالة ، فأنها ترتبط بنظرية أو بمحاكاة بلد آخر اكثر من ارتباطها بالواقع الدقيق ، وهي لا تعنى بالعقلية القروية ، وإنما تعنى بمثل أعلى أو برسم . هي تتدخل في أشياء كثيرة وتفرض على الفلاح بطريقة جافة وأمرية ، وهي تلتصق عليه من الخارج دون ان تلحق نفسه ودون ان توقظ معونته الى حد يجعله لا يستطيع أن يصدق رفق الحكومة الذي هو مع ذلك أمر واقعي فيظل في بأسائه .

وهذا يمكن أن يشرح تلك السلسلة المدهشة من الإخفاقات التي تجعل المتشائمين يقولون : ليس يرجى شئ مع الفلاحين . ومع ذلك فالمجهودات المبادهة الخاصة التي هي أقل غني وأشد ضيقاً - ونحن نتكلم عن تجربة - قد عرفت كيف تربح ثقة الفلاح ، لأنها تعمل معه لا له فحسب ، ولأنها تنصنع ولا تقهر ، وتعد ولا تهدد ، وقد نالت نتائج فاخرة رغم ذلك الضجر الذي لا محيص عنه .

هكذا كانت مؤسسات الجمعية الملكية الزراعية التي ذكرناها في الفصل السابق والتي تمت في ديسمبر سنة ١٩٤١ بإنشاء مركز اجتماعي .

وكذلك تلك المحاولة السعيدة التي جرت في عزبة كبرى من عزب البحيرة مساحتها ١٦٠٠ فدان) حيث لم يكتف مالكيها ، وهو اغريقي بأن يبنى لقرويه منازل جميلة بالآجروب (الاسمنت) المسلح (يتكلف الواحد منها ١٢٠ جنيه) فكان يستقدم كل أسبوع من المدينة طيبين أحدهما للصحة العامة ، والآخر للأسنان ، وأنشأ مدرسة نموذجية وعلى الاختصاص عین مسعفة اجتماعية . وهذه الشابة المصرية ، وهي أولى خريجات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية ، لاتقيم في (فيلا) المالك أو في منزل الناظر ، ولكن على مقربة من الفلاحين ومن المدرسة في غرفة صغيرة صيرتها جميلة وفي الساعة الثامنة توزع الادوية مجاناً ، وفي التاسعة تقوم بالزيارة الصحية للمدرسة ، بعد ذلك تذهب إلى المنازل متعقبية في رقة سوء النظافة والهمجية . وقد أعدت لكل أسرة بطاقة ، لتستطيع بهذا أن تلاحظ التقدم ، وهي تجمع الفلاحات الشابات ، لتلقى عليهن دروساً في العناية بالأطفال وفي الخياطة . وفي المساء تجمع الرجال ، لتقص عليهم قصصاً وتعلمهم كيف يسرون عن أنفسهم . فبعد مرور سنة بفضل استمرار هذه الخدمة وقربها ، أصبح نساء (العزبة) يستحمن كل أسبوع بعد أن كن لا يستحمنن إلا مرة كل عام ، وذلك لان درية لم تلق عليهن خطباً في أحواض الحمامات ولا في (الدوش) ، وإنما قد استعملت ما تملكه كل فلاحه في منزلها ، وهو : (الطشت والحلة والسكوز) .

لنشر أيضاً إلى ذلك المثل الجدير بالملاحظة وإن كان أشد قدماً ، وهو مثل (أبودية) في مركز السنبلالوين فناظرها - وهو الزامى من جنس قروى قوى يعيش في تلك (الابودية) ويشغل فيها ترافقه زوجته - قد خلق من هذه الضيعة والتي هي ٤٠٠ فدان مستغلة في الزراعة المباشرة ، جنة في النظام وفي الصحة .

الفلاحون قاطنون في ٣٦ منزلاً تختلف كبراً وصغراً حسب عدد الاولاد ، وهي مبنية بالآجر ، وسقفها بالخشب وداخلها يطل بالحص في كل سنة . ولا يوضع شيء فوق السقف . ولكن كل أسرة تتصرف في قطعة من الارض مجاورة وهي عبارة عن مربع محدود بخط نظري يكس فيه الخشب والسماد ، فلا ينتج من ذلك جور على الغير .

كل واحد من العمال يتقاضى من ٣ قروش الى $\frac{1}{4}$ ٤ في اليوم ، وهو أجر يزيد عن أجور الممتلكات المجاورة ، وقد منحوا فدانا أو فدانين لحاجاتهم من الذرة والبرسيم لان كل أسرة تقر يا تملك حماراً وماعزة أو عجلاً أو جاموسة ، وفي كل عام يرتدى جميع هؤلاء السكان مرة ملابس جديدة على حساب المالك ، ولذلك يكلفه ٧٠ جنيباً تقريباً ، وهذه (الجلايب) لا تعطى كيفما اتفق ، ولكن باختيار جد شخصي عن طريق زوجة الناظر حسب قامة كل واحد وذوقه .

وفي العيد الاكبر يجري توزيع عام للحم ، فيتسلم كل واحد ٢ (كيلو) تقريباً ، وذلك يتكلف حوالي ٤٠ جنيباً وفوق ذلك يقدم الدهن إلى الذين ليس عندهم جاموس . وكذلك يجري تقسيم فواكه من الحديقة عدة مرات كل عام . ولا يكل طفل يولد حديثاً تقدم أهبة من الملابس الضرورية .

وعندما يكون الفلاح مستديناً يقدم اليه الناظر ما يلزمه بدون ان يخدعه ثم يستوفي حقه على أثر ذلك من أيام عمله . أما الماء الصالح فهو محقق للجميع بوساطة (طلمبة) مثبتة عند مدخل (العزبة) وهناك حوالي ١٢ مرحاضاً صحياً و (دوشا) مبنية الى جانب المسجد ، ذلك المسجد الجميل الذي بناه المالك المسيحي وعين له إماماً على نفقته يجمع رجال العزبة والعزب المحيطة بها . ولقد أضيف اليه « كتاب » ظل حتى الغي عند افتتاح مدرسة الزامية في القرية المجاورة لها .

وعندما يمرض الفلاح يعالجه الناظر الذى قد صار بالعادة دكتورا بعض الشيء ، أو يرسله الى طبيب ميت غمر الذى يتقاضى راتباً معيناً . ولقد كانت زوجة هذا الناظر المحسن نفسها تعالجهم وتغسل لهم أعينهم ، وتعطيهم ملابس وتعلمهم عادات . انها كانت دائماً حاضرة بينهم ، وقد ظلت على هذه الحال ٢٤ سنة الى جانب زوجها .

والفلاحون يعرفون كيف يحفظون الجميل ، فعندما علموا -- بوساطة حيل صبيانية رغم الغموض الذى احيط به الامر -- انها مريضة بالقاهرة مرضاً خطيراً ، تكسدت ٣٠ رجلاً فى سيارتين وارتحلوا الى المستشفى ، فظن من فيه أنها مظهرة ، وفى الواقع انها كانت مظهرة ألم حينما رأوا ناظرهم العزيز وأولاده عاندين من المقبرة يرتدون الملابس السوداء . وفى (العزبة) وما يجاورها كان الحداد آلياً بقدر ما كان عاماً . ولقد تركت هذه الام لابنتها مثلاً تسير على منواله وديعة باسمه متحدثة بالعربية جيداً ، وينبغى ان يرى المرء كم أن اولئك الذين لا يحبهم أحد يحبون هذه الفتاة .

لم يفتقر المالك ولا الناظر بسبب هذه العدالة الاجتماعية التى يستعملانها ، فالضيعة لا تزال احدى ضيعات مصر الاكثر انتاجاً ، ومننتاجاتها تنال الجوائز فى المعارض الزراعية .

وهكذا ايضا الابتكار الذى استحدثته لشغل العطلة خمس فتيات مصريات من قلووسة (بالوجه القبلى) . قالت الراوية التى نحن نترجم تقريرها ^(١) : (ان ابنتى عمى وأختى وأنا قد أنشأنا مدرستنا الصغيرة فى أوائل يولييه سنة ١٩٣٣ اذ كانت مدرسة الحكومة بعيدة عن القرية بعداً شاسعاً ، وكانت فيما وراء منزلان خطر للسكة الحديدية .

(١) نشرة العاملين الاجتماعيين : مدرسة ريفية صيفية .

كان المكان المؤلف من حجرتين أعارتنا إياهما سيدة لطيفة يوجد في وسط البلد ، وعندما افتتحت المدرسة كانت المواد المدرسية لا تزال غير كافية ، ورغم ذلك بدأنا في العمل وتلقينا ستين طفلا ، أكثرهم بنات تتراوح أعمارهن بين ست سنوات وسبع عشرة سنة ، قسمناهم الى خمس طوائف ، وكنا نحفظ بهم من الساعة السابعة صباحا الى الاولى بعد الظهر . وفي المبدأ كانت الطاعة شاقة ، ولكن النظام لم يلبث أن ساد قليلا قليلا . كنا نعلم المطالعة والخط وبعض الاشغال اليدوية والالعاب ، وكان نداء الاسماء يحدث في كل صباح .

وبوساطة جوائز المواظبة وصلنا الى نسبة ٧٠ ٪ في الحضور . وفي السنة التالية عندما كان لدينا ١٧٠ مقيدا كانت النسبة ٨٠ ٪ .

ولقد أحرزنا تقدمات محسوسة في المطالعة والخط ، وأكثر منها في الصحة ، والحلي التقليدية قد اختفت ، والوجوه كانت تغسل في كل صباح ، والشعر صار نظيفا ، وطرده الذباب أصبح منتظما وهكذا . . .

وفي كل يوم نضع قطرة في أعين الاطفال . وأشدهم مرضا كان يرسل إلى طبيب العيون . وفي يوم الجمعة ولو أنه ليس هناك دروس ، كان الاطفال يأتون الى التفتيش الصحي ، وكان كل واحد منهم يتسلم قطعة من الصابون وسائل لتنظيف الرأس .

وفي دروس الرسم المعطاة للفلان ، كان علينا أن نعلمهم كيف يميزون الالوان ، وفي دروس الخياطة للفتيات علمناهن تفصيل (الفساتين) .

ولقد كان تنظيم اللعب في المبدأ شديد الصعوبة ، ولكن الاطفال قد انتهوا بأن فهموه وطبقوا عليه القواعد .

دامت هذه المحاولة ثلاثة أعوام، ولكنها لسوء الحظ انقطعت برحيل اللواتى ابتدأنا .

إن معلمى المدارس فيما يختص بتلاميذهم ، وبعض الملاك فيما يختص بشركائهم أو مستأجريهم يعترفون بأن تقدم الفلاحين وغاوتهم يتعلقان بخططهم هم ، على أن بعضهم ينشغل باخلاص بهذه الانسانية ، والمقالات المتزايدة باطراد فى الصحف المصرية توضح ذلك جيدا ، وكذلك إنتاج رواية « عاصفة على الريف » السينمائية التى توجد فيها مشكلة الفلاح ورؤسائه مبسوبة بشجاعة ، ولكن ألا يمكن مع ذلك التحدث عن خيانة الصفوة المستنيرة .

أعرضت هذه الصفوة عن الجماهير ، واحتفظت لنفسها وللسياسة والادب أو لأوروبا بذكاها ومدنيتها وثقافتها وماها وفقدت الاخلاص . وآخرون يقولون : انها فقدت الوطنية .

على بعد بدون ريب ، ومن وقت الى آخر كانت تثير محامد الفلاح الزراعية ، ولكنها لم تعمل له شيئا هاما ، وموضع التماس بين الحكام وبين هذا الجمهور ينم عن شئ مسرحي ، ونحن نعلم أن المسرح ليس هو الواقع . ولقد استطاع أحد النواب حديثا أن يعلن فى المجلس ما يأتى :

« عندنا حينما يزور أحد رؤساء مجلس الوزراء قرية ما يسبقه اليها حرس مكون من ٣٠٠ جندى تقريبا ، وهذا فضلا عن الضباط . وعن عدد ضخم من كبار الموظفين ، وفى مثل هذه الأحوال لا يستطيع أن يختلط بالقرويين ولا أن يعرف حاجاتهم » (١) ثم دعا النائب المحترم الوزراء الى أن يشاهدوا بأنفسهم حالة الشعب .

والفلاح - كطفل مهجور كبير بدون تفكير وبدون معرفة - قد بقى (فى

الارض) والارض منته من النزول أخفض من ذلك واحتفظت به ، وسندته ، ولكن الرفع ليس من وظائفها .

واذا ، فالامر يتعلق في هذا الرجل وفي هذا الشعب بإثارة الحياة البشرية أو بإيقاظها

هذا هو دور الصفوة ، وقبل كل شيء دور الذين لهم من تلك الصفوة في الحقول منافع . نحن نقصد الملاك والمهندسين الزراعيين وأولئك الذين يسرون في الارياض أو يعيشون فيها لأعمالهم من : التجار ومستخدمى المصارف والموظفين ، ولو أنها مثلت دورها لما كان لها مع القرويين صلات اقتصادية أو أدبية أو سياسية فحسب ، ولكن كان يوجد احتكاك برى ، بين رجل ورجل . وتلك الاحتكاكات وحدها هي التي ترفع . ولقد استطعنا أن نلاحظ كم أن زيارات بسيطة من جانب الأعيان أو المدنيين لمدارسنا القروية إذا كانت مطبوعة بطابع المحبة والعناية تقوى القرويين عندما يأتى بعض السادة والسيدات اليهم ومن أجملهم .

هذه هي مهمة المدرسين ورجال الدين بمقتضى وظائفهم إذا أمكن أن يقال ذلك فهم يتغلغلون في الجماهير أكثر من غيرهم . وهكذا كان الذين يسهلون عملهم يبدون أذكى أنواع الوطنية ، ونساء الملاك وبناتهم هن مدعوات بنفس الطريقة الى المهمة دعوة خاصة ، ففتاة واحدة من بنات إحدى الأسر الكبيرة - إذا انشغلت بالشعب أثناء قضاائها عطلتها المدرسية في القرية - كافية لائت تجميع كل فلاحات (العزبة) . وفي كل مساء تجلس يمينهن ساردة عليهن قصصا لتعليمهن ورفعهن ، هذه هي النسائية المنتجة .

يتعلق الأمر إجمالاً بمزاولة تحقيق عمل من أعمال التربية ، وهو مسألة فهم وخدمة شخصية أكثر منه مسألة لجان وخطب ومراسيم .

ان عقلية اجتماعية وروحانية من جانب الصفوة - مادامت هي التي يجب أن تبدأ - تستطيع وحدها أن توقظ دون أن تهيج ، وأن تساعد دون أن تستبدل ، وأن تحرر دون أن تقتلع الجذور .

ونحن لا نستطيع أن نختتم بأحسن من نص « ييوس » الحادى عشر العظيم الذى يلائمنا بنوع خاص ، وهو :

« ينبغي لكم أن تعيروا العامل مساعدة مادية ودينية : مساعدة مادية عاملين على ألا تتحقق لصالحه العدالة الخاصة المتبادلة فحسب ، بل العدالة الاجتماعية أيضا ، أى انه يستفيد من تلك المؤسسات التى ترمى الى تحسين حالة طبقة الصعاليك ، ومساعدة دينية محققين له المعونات الدينية التى بدونها يحيا مغمورا فى مادية تصيره وحشا ومخط من قدره إنهم ملايين من الكائنات البشرية ، أولئك الذين يعيشون غالبا فى حالة محزنة وبأسنة الى حد يجعلهم لا يستمتعون حتى بأقل قدر ممكن من النعمة الضرورية لحفظ الكرامة الانسانية . » (١)

« ١ » رسالة بابوية الى جماعة أساقفة المكسيك فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣٧ . فقرة عن القرويين . . .

وفى القرى حينما يتوفى أحد الناس توجد دائما حجرة (منضرة) تقدم فيها التعازى الى أسرة المتوفى . وبينما يكون الموضع المعد للنساء مليئا بالأنين ينتظر الرجال ، متجهمين صامتين ، زائريهم ، والجميع ينهضون عند دخول القادم الجديد ، وهنا يتمنى الداخل قائلا « البقية فى حياتك » أى (أرجو لك أن تعيش بقدر ما فى الامكان) فيجيبه بقوله : « البقاء لله » أى (البقاء صفة من صفات الله) . وهنا يجلسون بدون حديث كما لو كان المرء قد ذهب يبحث فى أعماق نفسه عن الكلمة الملائمة ، ثم يقطع الصمت فيتلو القادم الجديد حكما أو أمثالا أو نصوصا من الكتاب المقدس ، أو مواظ صغيرة عن الموت الغير القابل للتجنب ، وعن الاذعان لارادة الله ، وعن حياة المتوفى الطاهرة ، وعن الثواب الذى وعد به الأخيار ، وعن الشجاعة التى يجب أن يديها الرجل فى حداده . وهنا تدعو الحكمة حكمة أخرى ، وتوقظ القصة كالصدى قصة ثانية ، فتتحل الالسنه من عقالها ، وفصحاء المتحدثين يبدون قيم مواهبهم ، انه من المدهش أن يرى المرء كم ان الناس يتبادلون فى مناسبة الحداد والعواطف الحسنة فلكى يؤدى أحدهم التعزية لايخشى أن يسير ثلاث ساعات ، ولا أن يفقد يوما من أيام عمله . الأصدقاء يسهرون مع الأسرة ويحملون اليها المعونة بحضورهم ، والمساعدة المشجعة بجميع خدماتهم ، ذلك واجب لا يقصر فيه أحد . الموت هو الموحد الاكبر للمستويات ، وهو أحد مراكز الجاذبية ، وعنده تنمحي فروق الديانات ، وتقرب طبقات الهيئة الاجتماعية : فيتآخى المسلمون والمسيحيون فى ذكرى الموت ، ويجتمع الأثرياء والفقراء حول القبر .

فيلير اليسوعى

المنيا

ولولة على شاب

- ٢ -

- (١) يا ناس دا الغايب له حبيب وحبيب
يا ناس دا الغايب له حبيب خلاه في القهر
- (٢) يا ناس دا الغايب له حبيب ينوح
يا عيني ياللي رحت زى الحشيش الاخضر
- (٣) قالوا مريض دخلت عشان ألقيه
لقيته مريض والمرض شاف غرضه فيه
- (٤) آدياريتهم كانوا يتباعوا في السوق ونلقاهم
ياريتهم كانوا في السوق مع الدلال
- (٥) ان طال غياني كسروا اقلامي
ان طال غياني كسروا قلبي
- (٦) ساعة خبر موته لبست الفستان بالمندار
ساعة خبر موته قلبوا لي فستاني
- (٧) طريق الكنيسة أعطيها بالورد
طريق الكنيسة أعطيها بالياسمين
- (٨) يا حبابي ياللي قاعدين جنبي
يا حبابي ياللي قاعدين جاري
- قضى حياته في دموع ونحيب
وجرح قلبه في يوم مرزى الصبر
- وقلبسه في يوم الشوم بجروح
وزى الحمامة اللي ريشها صغير
- لقيته غايب عن وعيه والصراخ حواليه
حتى الطبيب لما شافه مارضيش يداويه
- ويقولوا تعالى اشترهم انت ياللي عاوزاهم
ويقول تعالى اشترهم ياللي مامعكيش عيال
- وتكسر حتى الدوايا يا أعز أولادي
حتى الدوايا تكسرها يا نضري
- وعقل ست البيت من دماغها طار
وعقل ست البيت ما رجع تاني
- يا ريتهم يحون لي ليلة الحد
يا ريتهم يحون لي عيد الخمسين
- أنا مليون وجع ولا حد يعلم بي
أنا مليون وجع ولا حد بي داري

(٩) كنت سليم والى جراك ايه ياترى انضربت فى الليل ولا حصلك ايه لما قالوا مريض دخلت حداثه لقيت العقل الزكى فقد ما معساه

(١٠) انت عملت ايه ساعة طلوع الروح أنا كنت بسف القنسله باللوح
انت عملت ايه ساعة طلوع روحى أنا كنت بسف القنسله بلوحي

جمع هذه الولولة من بردونها اد . . توفيق سنة ١٩٤١ ، وقد ترجمناها بشيء من التصرف ألجأنا الى اللغة العامية ، من ناحية ، وملاحظة القوافى من ناحية أخرى .

شرح المقاطع

(١) مراهرة الفراق

(٢) الاسف على شباب المتوفى

(٣) لوحة مؤثرة تمثل المحتضر - وقد صارت كل وسائل العقل البشرى فى قنوط - مبكيا عليه من أهله . ان الصرخات الحادة الفاجعة هى عند نساء مصر العليا التعبيرات الحقيقية لآلامهن .

(٤) المتوفى هو الولد الوحيد لأمه . . . ولكى تواسى الباكية قليلا هذه الام تعبر عن الرغبة الغير القابلة للتحقيق ، وهى أن ترى الاطفال تباع فى السوق ، اذ التبنى هو تسرب اجنبى الى مصر ، وقد ظل الى أيامنا غير معروف فى الصعيد حتى عند المسيحيين ، وهو محظور فى الشريعة الاسلامية

(٥) ان القلم والمخبرة هما ذكرى ان نفستان عند أم المتوفى . أتخطمهما ؟ أى شيء أكثرهما من هذا قلبها المعذب ؟

(٦) فى هذا المقطع تصف الباكية الحالة الغير العادية لدى الام عند إخبارها

بوفاة ابنها . انها قد قلبت كيانها الى حد أنها لم تعد تعرف كيف ترتدى فستانها .

(٧) ان أيام الآحاد والأعياد لدى نساء مصر العليا المسيحيات هي أيام ذكريات للموتى ، فهن - كعلامة من علامات الحداد - يمتنعن عن الذهاب الى الكنيسة أحيانا سنوات عدة . وفي عيدى الميلاد والفصح تكون الكنائس مقفرة منهن . وعلى العكس من ذلك تأتي سحب من النساء يعكرن سلام المقبرة بصرخاتهن الحادة . ولقد تمسحت هذه العادة الوثنية - اذا صح هذا التعبير - بظاهرة توزيع الصدقات على الفقراء (كالقطائر واللحم الخ) لراحة أرواح الموتى .

(٨) تعارض بين حالة المحتضر وصحة الحاضرين .

(٩) ان الباكية الراغبة دائما فى اثارة ألم سامعاتها تسأل المتوفى عن تفاصيل احتضاره

(١٠) القندلة نبات شديد المرارة ، وهل توجد ساعة أمر من ساعة الاحتضار؟

مراجع

- ٢ -

لقد بينا في الكتاب المستندات التي تؤيد هذه النقطة أو تلك ، وهذه المراجع النقدية والعملية الآتية التي لا نذكر منها إلا المصادر الأساسية قد اردنا ان نتحصر في الفلاح في ثلاث برهات من التاريخ وهي :

(١) الفلاح القديم

ويلكينسون (س . جاردنير) . - أخلاق المصريين القدماء وعاداتهم . طبعة جديدة راجعها وأصلحها س . بورش ، لندن ، موريه سنة ١٨٧٨ ثلاثة مجلدات من القطع الثماني ، كل مجلد ٥٠٠ صفحة ، وهو مصور . راجع على الاخص الفصل الرابع عن الحياة الخاصة ، والفصل الحادي عشر عن الزراعة ، والخامس عشر عن الحفلات الشعبية ، موتيه (بيير) . - مناظر الحياة الخاصة في المقابر المصرية في الامبراطورية القديمة ، ستراسبور ، العدد الرابع والعشرون من مطبوعات كلية الآداب سنة ١٩٢٥ من القطع الثماني ، ١٨ صفحة مقدمة و ٤٣٩ أصل وبه ٧٢ صورة .

انظر ما يتعلق بحياة الشعب

هيرودوت . - تاريخ « الكتاب الثاني » نص أثبتة وترجمه ف . ا . ليجران باريس ، مجموعة جامعات فرانس طبعات الآداب الجميلة سنة ١٩٣٦ من القطع الاثني عشرى ، ١٨١ صفحة .

والمائة الاولى من هذا الكتاب الثاني ضرورية لمن يريد ان يرى فلاحى الماضي بطريقة اخرى غير طريقة الصور البارزة .

هارتمان (فيرناند) . - الزراعة في مصر القديمة ، باريس ، رسالة ، سنة ١٩٢٣
من القطع الثماني ٣٣٢ صفحة وبه ٧٧ صورة .

(٢) الفلاح منذ مائة سنة .

في وصف مصر ، مجموعة ملاحظات وبحوث قداجريت في مصر إبان حملة الجيش
الفرنسي ، باريس يانكوك ١٨٢١-١٨٢٩ ، الطبعة الثانية في ٢٦ مجلداً من القطع الثماني
انظر ما يلي :

جيرار (م . ب . س) مذكرة عن زراعة مصر وصناعاتها وتجارتها .
تختص المائتان الأوليان من صفحاتها بالزراعة . ويوجد هذا المجلد في سلسلة
الدول الحديثة وهو المجلد الثاني .

شابترول دي فولفيك . محاولة عن أخلاق سكان مصر المحدثين . وهو المجلد
السادس من السلسلة السابقة صفحة ٣٤٢ .

لان (س . و .) . - اخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم ، كتب في مصر
فيما بين سنتي ١٨٣٣ - ١٨٣٥ لندن ، جاردنير ، ١٨٩٥ من القطع الثماني ، ٥١ صفحة
وبه صور . راجع في هذين المؤلفين الاخيرين ما يتعلق بالفلاح

(٣) الفلاح العصري

ستابع هنا النظام الزمني للدراسات التي ظهرت وسندكر منها كل ما نعرفه
وهي ذات قيم شديدة التباين كما أنها عسيرة الوجود وهي :

يل سانجون - حياة القرية في مصر مع وصف الصعيد ، لندن شامبان
١٨٥٣ ، مجلدان ٢٩٦ صفحة .

طرف من كل شيء ، وملاحظات جيدة

كلونزيجير ، مصر العليا : شعبها ومنتجاتها ، وصف لأخلاق شعب وادي النيل
وعاداته وخرافاته ومشاغله ، لندن ، بلاكي ، ١٨٧٨ ، ٤٠٨ ص .

مترجم عن الألمانية مع مقدمة لـ « شوينفورت » .

ييو . بك (ج - ب .) . - محادثة حول أرومة الفلاح ، القاهرة ، مجلة جمعية
مصر الجيوغرافية سنة ١٨٩٩ ص ٢٠٣ - ٢٤٨ . نحاس بك (يوسف) . - حالة
الفلاح المصرى الاقتصادية والاجتماعية ، باريس ، رسالة فى الحقوق سنة ١٩١٠ من
القطع الثمانى ٢٠٠ صفحة .

ليجران (جورج) . - فلاح السكرنك (مصر العليا) . ، باريس ، جمعية
الاقتصاد الاجتماعى ، سنة ١٩٠٢ ، السلسلة الثالثة ، العدد الخامس . عن عمال
العالمين من القطع الثمانى ص ٢٨٩ - ٣٣٦ . دراسة فردية فحمة حسب منهج « لى بليه »
بوجيه (شارل) . - ملاحظات عن مصر ، الفلاح ، مجلة الجيوغرافيا التاريخية
والوصفية سنة ١٩٠٦ ، ص ٣٨٨ - ٤١٥ .

صورة كاملة تقريباً وبدون يان أصل لنص ييو « بك »

شامبيريه (راء ول دى) . - تحقيق عن حالة الفلاح المصرى من الوجبات
الثلاث : الحياة الزراعية ، والتربية ، والصحة والاسعاف ، باريس ، شالا ميل ، سنة
١٩٠٩ ، من القطع الثمانى ٢٠٦ ص .

آراء عن السياسة الانجليزية وتقريبات سطحية بين مصر وتونس .

والثيرف . مينفيل . شىء عن الفلاح ، مجلة الخمسة عشر ، يونيو ١٩٠٩ ،
لندن ص ١٠٩٣ - ١١٠٥ .

ساباتان (ف) . - في بلد الفلاح . نظرة الى الورا ، من القطع الاثنى عشرى ، ٧٢ صفحة ، مطبعة مسينا ، القاهرة بدون تاريخ

النجار (مصطفى صادق) . - محاولة عن الفلاح والعمل اليدوى في مصر ليون ، بونسيه ، سنة ١٩١٣ من القطع الثمانى ، ١٠٠ صفحة . وهو تحقيق عن مديرية المنوفية .

ويلسكوكس (س . ولیم) . - الفلاح وزوجته في اراضى مصر الغير المزروعة القاهرة ، مجلة جمعية مصر الجيوغرافية ، يونيو ، سنة ١٩١٧ ص ١٦٧ - ١٨٨ .

ملاحظات شيقة على الفلاحة الماهرة وعلى السخرة .

بلاكان (وينيفريد) ، فلاحو مصر العليا ، ديانتهم ، حياتهم الاجتماعية والصناعية اليوم وصاتها بمابقى حيا من العصور الفرعونية . لندن هاراب ، ١٩٢٧ من القطع الثمانى ، ٣٣٠ صفحة وصور عدة .

هذا الكتاب الذى يبين عنوانه الثانوى مايحتويه بيانا حسنا يروى ماراه المؤلف ابان اقامته خمس سنين بين الفلاحين .

الهلواوى (مصطفى على) . - في الريف المصرى ، القاهرة بدون ناشر سنة ١٩٢٨ من القطع الاثنى عشرى ٣٠٠ صفحة .

شهادة من أحد أهالى القرى المصرية . وبه بعض بيانات نفيسة في وسط كثير من الجمل الانشائية .

وينكلير (هانس اليكساندر) الفلاحون بين الماء والصحراء ، شعبيات من قرية كيان بمصر العليا ، استوتجبار ، كولهامير ، ١٩٣٤ ، من القطع الثمانى ، ٢١٤ صفحة . ومقدمة صفحاتها إحدى عشرة .

دراسة جنسية لقرية اتخذ سكانها الذين هم من أرومة بدوية نوع حياة الفلاحين
ابنة الشاطى . - الريف المصرى ، القاهرة ، مكتبة الوفد سنة ١٩٣٥ من القطع
لاثنى عشرى ٢٤٨ ص .

مؤلف شجاع وبه معلومات ، لمعامه خصصت نفسها لقضية الفلاح .

لودويج (اميل) . - النيل ، أو حياة نهر ، المجلد الثانى ، باريس ، بلون سنة
١٩٣٧ من القطع الاثنى عشرى ٢٩٣ ص وبه صور .

تاريخ مصر منظورا اليه من ناحية الفلاح ، وهذه النظرة مع الاسف قد زيقها
قليلا الأوهام والأخطاء .

كنيتيل (جون) . - الدكتور ابراهيم الحكيم ، ليبيج ، برنار توشنيز ، ٣٦٠
ص . رقم ٥٢٧٥ سنة ١٩٣٧ .

تاريخ فلاح نشأ من الأرض .

توفيق الحكيم . - يوميات نائب فى الريف ، نشر فى مجلة القاهرة سنة ١٩٣٩
١٥٤ صفحة ترجمة ج . فييت .

ابنة الشاطى ، قضية الفلاح ، القاهرة سنة ١٩٣٩ من القطع الاثنى عشرى
٢٣١ ص وبه صور .

دوريات للمراجعة

- ٣ -

في مصر

الدليل الإحصائي للمملكة المصرية.

التقويم السنوي للحكومة المصرية.

الاهرام

المصور .

نشرة المعهد المصري.

نشرة الجمعية الملكية الجيوجرافية المصرية .

نشرة اتحاد الزراع المصريين (مصر الزراعية) .

نشرة الجمعية الملكية للاقتصاد السياسي والتشريع : «مصر العصرية» .

الجريدة الرسمية للحكومة المصرية.

جورنال ديجيت .

لابورس انجيسيين .

لاباترى .

زميل الفلاح .

مجلة القاهرة .

مجلة الشؤون الاجتماعية .

كل هذه النشرات تظهر في القاهرة .

في فرنسا

الخطط الجيوغرافية .

خطط التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

سجل العمل الشعبي .

في أرض الاسلام .

قصص الشرق .

معجم

لم نذكر في هذه القائمة الكلمات التي لا تظهر إلا مرة واحدة أو التي هي مترجمة على أثر ظهورها في النص وأسماء الموازين والمقاييس والمكاييل والنقود مشروحة على حدة.

إردب : انظر قائمة المكاييل سباخ : سباد طبيعي

الازهر : جامعة القاهرة القرآنية الكبرى

أقة : انظر قائمة الموازين

برار : أراض مستنقعة أو مالحة

بلاص : جرة مستديرة لنقل المياه

بلغة : حذاء أصفر

بندر : عاصمة مركز أو مديرية

جاروف : مذراة من خشب

جلبية : ثوب

حلة : مرجل

دائرة : إدارة أملاك

ريس : رقيب عمال

زحافة : أداة تسوى الارض

ساقية : آلة لرفع المياه ذات عجل

وقواديس

شادوف : آلة لرفع الماء ذات عود وتدار

بالاذرعة

شونة : مستودع للغلات

صراف : من يتقاضى الضرائب

طاقية : غطاء للرأس من قماش

طبلية : مائدة مستديرة منخفضة للأكل

عريف : منشد قبلى وهو أعمى عادة

عزبة : ضيعة خاصة تؤوى العمال الضرورىين

لاستغلالها

عمدة : حاكم القرية

فدان : انظر قائمة المقاييس

قصيبة : أداة لتسوية الارض

قنطار : انظر قائمة الموازين

قيراط : انظر قائمة المقاييس

- لبدة : غطاء للرأس من الصوف
- مأذون : من يجرى عقد الزواج ويحضر
- معاون : مساعد رئيس الشرطة في المركز
- وثيقته للمسلمين
- ملاية : مثزر كبير أسود يغطي الرأس
- مأمور : حاكم المركز
- ويلف الجسم
- مدير : حاكم إقليم
- موال : أغنية غرامية
- مديرية : إقليم
- ناظر : مشرف على الضيعة
- مركز : قسم من المديرية وعاصمته
- نبوت : عصا غليظة
- مصطبة : مقعد مبنى مستطيل غالباً يتسع
- نورج : آلة تدرس بها الغلال .

المقاييس والمكاييل والموازين والعمله

- ٥ -

الفدان : هو الوحدة للمساحة العقارية ، وهو يساوى ٨٣٣ ، ٤٣٠٠ متر مربع وهو ينقسم إلى ٢٤ قيراطا .

القيراط : هو ٣٥ : ١٧٥ مترا .

الاردب : (١٩٨ لترا) وهو وحدة المكاييل ، وبه تباع بالجملة الفلال والفلول والعدس . وإردب القمح يزن تقريباً ١٥٠ كيلو ، وإردب الذرة ١٤٠ كيلو ، والشعير ١٢٠ كيلو .

القنطار : هو وحدة الموازين ، وهو يوازي ٤٥ كيلو . وموازين التجزئة التى تستعمل في السوق هي اجزاء للقنطار .

الرطل : هو $\frac{1}{16}$ من القنطار .

الاقية : هي $\frac{1}{36}$ من القنطار ، أى كيلو وربع تقريباً .

الاقية : تساوى ٤٤ ، ٣٧ جراماً .

الجنيه : هو وحدة العملة وهو ينقسم الى ١٠٠ قرش أو ١٠٠٠ مليم ، ويوازي تقريباً الجنيه الاسترلى زائداً نصف (شلن) .

القرش : يؤلف العملة الاساسية في تجارة التجزئة ، ويسمى القرش الصاغ مقابلة له بالقرش التعريفية (٥ مليات) ويمكن ان يوازن سلطانه في الشراء بسلطان الفرنك الفرنسى .

المليم : هو العملة السائرة للفقير والفلاح ، وهو يكاد يشبه السولدى

﴿ تم بحون الله وقدرته ﴾

الخطا والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الوفيات	الوفيات	٩	١٣
لملاك	الملاك	١١	٨
للوحة	اللوحة	١٤	٤
لأرض	الأرض	١٦	٣
يونسون	يونسون	١٦	٥
كان	كانا	١٧	٥
شاعلي	شاعلي	٢٦	١٠
بحج	بحج	٢٨	٩
وبالمقارنة	وبالموازنة	٣٢	١٣
مواز	موازنا	٣٢	١٧
ذو	ذوو	٤١	١٨
بمقتضى	وبمقتضى	٤٢	١٧
سيعدها	سيعيدها	٥٤	٨
الداخلية	الداخلية	٥٥	٧
يعيننا	يعيننا	٥٥	١٩
كثيراً	كثير	٥٦	٦
وهو	وهي	٧٥	١٧
المتسعمرون	المتسعمرون	٩٩	٢١
الجزء	الجزء	١٠٦	١٦
توفر	لا توفر	١١٠	٢٠
القلاحات	القلاحات	١١١	١١
ليعجلوا	ليعجلوا	١١٢	٢٠
بالبحار	بالبحار	١١٣	٤
لاسرة	الأسرة	١١٧	٢

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وإذا كان	وإذا كان	١٢١	٥
تعد	تعد	١٢٢	٢
تتلى	تتلى	١٢٨	٩
يفقثون	يفقثون	١٤٠	١٩
تجتمع	تجتمع	١٤٢	١٧
لا بواب	الأبواب	١٤٨	٥
أبدعونه	ألا يدعونه	١٦٧	١٠
حد	أحد	١٧١	٨
باديتهم	بديتهم	١٨٣	١١
٢٧٩٠٠٠٠٤١٩٥	٢٧٩٠٤١٥٩	١٨٧	٩
الشراء	الثراء	١٨٧	١٤
قدمات	تقدمات	١٩٠	٨
الجاهير	الجاهير	١٩٠	١٢
الحل	الحل	١٩١	٨
لذای	الذي	١٩١	١٤
صاغيرة	الصغيرة	١٩١	١٧
١٠٠٠	١٠٠٠٠	١٩٦	٨
ويأومرون	ويأامرون	١٩٩	١
الصحية	والصحية	٢٠٠	٢
يدرسونه	يدرسونه	٢٠٢	٧
يجود	يجرد	٢٠٣	٤
يلحوقها	يلحوقها	٢٠٣	١٩
الاخفاقات	الاخفاقات	٢٠٤	١٦
أزاي	أزاسي	٢٠٥	٢٠
ولذلك	وذلك	٢٠٦	٩

فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
٧٣	كيف ينجى ثمار الارض	٣	تصدير
٧٦	١ - زراعة القطن	١٢	استهلاك
٧٨	ب - قوت الفقراء	١٣	مقدمة
٨٠	ج - القمح	١٨	{ الفصل الاول
٨١	د - البرسيم		{ الثبات
٨٢	هـ - المزروعات الغذائية		الفصل الثاني
٨٤	٢ - حالات العمل	٢٥	{ الاطار الطبيعى
٨٤	الفلاح قابلا للتسخير		{ مصر بلد زراعى
٨٧	الفلاح مياوما		١ - الجيوغرافيا
٨٨	الفلاح شريكا	٣١	{ ٢ - الدراسة الاحصائية
٨٩	الفلاح مستأجرا		{ للجماعة البشرية
٩١	الفلاح مالكا	٤٠	{ الفصل الثالث
٩٧	{ الفصل الخامس		{ الاطار الاجتماعى والسياسى
٩٧	جسم الفلاح		{ مصر بلد أوليجارشى
٩٧	١ - الأرومة والنوذج	٤٢	الدولة والارض
١٠٢	٢ - معاملة الجسم ولباسه	٤٦	الأراضى الموقوفة
١٠٦	كيف يلبس الفلاحون	٤٧	الملكية الخاصة
١٠٩	٣ - الصحة والمرض	٥٤	الحكومة
١١٣	٤ - ما يشربون وما يأكلون	٦٢	{ الفصل الرابع
١٢١	{ الفصل السادس		{ عمل الفلاح
١٢١	القرية والجماعة الريفية	٦٢	١ - أنواع العمل
١٤٥	{ الفصل السابع	٦٣	كيف يعد الارض
	منزل الفلاح وأسرته	٦٦	عمل الماء
		٧٢	الاسمدة

صفحة		صفحة	
٢١٤	٢ - ولولة على شاب	١٦٦	(الفصل الثامن
٢١٥	شرح المقاطع		(التقاليد الريفية
٢١٧	٣ - مراجع	١٧٢	(الفصل التاسع
٢١٧	١ - الفلاح القديم		(نفس الفلاح
٢١٨	٢ - الفلاح منذ مائة سنة	١٨٦	(الفصل العاشر
٢١٨	٣ - الفلاح العصري		(تطور الفلاح
٢٢٢	٣ - دوريات للبراجعة	٢٠٣	(خاتمة
٢٢٤	٤ - معجم		(بأساء الفلاح
٢٢٦	٥ - المقاييس والموازين والعملة	٢١٢	ملحقات
			١ - ملاحظات على الحدود
			١ - أخلاق وتادات

DATE DUE

9. LIBRARY

A. U. B. LIBRARY

~~XXXXXXXXXX~~
غلاب، محمد
الفلاحون
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

01018457



